افتتـــــاحيـــة

يصادف صدور هذا العدد من مجلة «الأصـــالة» انعقـاد ملتقى الفـكر الاسـلامى الخامس عشر بالجـزائر الخاص بالقــرآن الكريم .

ووزارة الشؤون الدينية ، اذ تخصص هذا العدد ، وملتقى هذه السنة ، ومشاريع أخرى هامة ، للقرآن الـكريم ــ ترى أن الانسانية فى العصر الحاضر ، ترقص على بركان من الحمم يوشك أن يقضى عليها : استبدت بها المادة الخرقاء ، وتحكمت فيها الأنانية الجشعة ، وسيطر عليها الهوى الكذوب،واستخف الناس بالقيم والأخـلاق ، فلم يعد هنـاك اعتبـار لروابط الدين ، والأخوة ، والصداقة ، فصـار الناس يعيشـــون متباعدين متنافرين وان ضمتهم جامعة ، وربطتهم رابطة ، وولدتــهم أم واحـدة .

وما دام الأمن والســلام أنشـودة كل عاقل ، وحلـم كل انسان يريـد الحياة ، وهما يرتبطـان بصفات النفـوس ، ويتصلان بالقيم والأخلاق ، فقد وجب على الانسان ان يعود الى الله الذى خلقــه ، وعلم ما ينفعه وما يضره .

..وجب ان يعود الى كتاب الله الخالد الذى يهدى للتى هى أقوم ، فيعمل بتعاليمه ، ويبصر الطريق على ضوئه ، ويبنى الحيـاة على هديــه .

وليس كهذا الكتاب السماوى الخـالد ، هاديا للانســان ، ومربيا لروحه ، ومهذبا لأخلاقه ، وموقظا لضميره ، وحافظا لأمنه ، ومطمئنا لقلبه ، ومبرزا لخصائصه ، وآخذا بيــده الى حيث سعادة الدنيا والآخــرة .

«قلم التحرير»

في رحـاب القرآن

التشريـــع الاســـلامى

أصــوله ـ مبــادئه ـ أنــواعه ـ أهدافه ـ خصائصه ـ حاجة البشرية اليــه فى كـل عصــر ومصــر .

محمد الصالح الصديق

التشريع قبل الاسلام :

قال اللــه تعـالى : (**وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه مـن الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمـة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون وأن احكم بينهم بما أنزل اللـه ولا تتبـع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثـيرا مـن الناس لفاسقون أفحكـم الجاهلية يبغون ومـن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**) .
المائدة رقم السورة 5 ـ رقم الآيات : **48 ـ 49 ـ 50 .**

تحليلات وتعليلات :

(وانزلنا اليـك الكتاب بالحـق)
الكتاب هو القرآن الكريم ، وهو وحده الجدير بـأن يسمى كتابا عـلى الاطلاق لتفوقه عـلى سـائر الكتب السماوية ، فاللام للعهد ، والقرآن لم يسم فى أول أمره ـ عندما كان يتولى نزوله ـ كتابا بل كان يسمى قرآنا ، أى كلاما يتلى ، ولما أصبح النازل منه كثيرا بحيث يصح أن يكون كتابا ، سمى كتابا ، وهــذا يرينا أن هذا الكتاب تطور تطورا علميا صحيحا .

(مصدقا لـما بـين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) أى حال كـونه مصدقا لما تقدمه واللام فى الكتاب للجنس أى

جنس الكتب المنزلة • ومهيمنا عليه ، أى رقيبا على سائر الكتب السماوية ، حيث يشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها ، ويعين أحكامها المنسوخة (1) •

وقيل مهيمناً ، مؤتمنا ، وقيل قفانا يقال قفان على فلان اذا كان يتحفظ اموره • فقيل القرآن قفان على الكتب لانه شاهد بصحة الصحيح وسقم السقيم (2) •

(فاحكم بينهم) اى بين أهل الكتاب والفاء لترتيب ما بعدها عما قبلها ، فان كون القرآن العظيم بذلك الشان من موجبات الحكم المأمور به ، أى اذا كان شان القرآن كما ذكر فاحكم بينهم بما أنزل الله اليك من الاحكام والحدود دون ما أنزله اليهم لان شرعك ناسخ لشرائعهم •

(ولا تتبع أهواءهم) الزائغة ، ولا تنحرف عما جاءك من الحق الذى لا محيد عنه ، وكل تشريع لا يستمد مما أنزل الله فهو هوى لا يثبت على قاعدة ، ولا يرجع الى مقياس واحد يتبين به الخطأ من الصواب •

(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)

كلام مستأنف جئ به لحمل أهل الكتاب من معاصرى الرسول صلى الله عليه وسلم على الانقياد لحكمه بما أنزل الله و (الشرعة) بكسر الشين ـ وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها : الشريعة ، وهى فى الاصل الطريق الواضح الذى يوصل الى الماء ، والمراد بها الدين ، واستعملت فيه لكونه سبيلا موصلا الى ما هو سبب للحياة الابدية ، كما أن الماء سبب للحياة الفانية (3) •

وقيل سمى الدين شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث أن من شرع فى ذلك على الحقيقة روى وتطهر واعنى بالرى ما قاله بعض الحكماء (كنت أشرب فلا أروى فلما عرفت الله تعالى رويت بلا شرب)(4) •

وقيل (الشرعة) ابتداء الطريق ، والمنهاج الطريق المستقيم (5) •

وقال العلامة الالوسى فى قوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) لكل امة كائنة منكم أيها الامم الباقية والخالية عينا ووضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بتلك الامة لا تكاد أمة تتخطى شرعتها ، والامة التى كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى عليهما الصلاة والسلام شرعتهم ما فى التوراة ، والتى كانت من مبعث عيسى عليه السلام الى مبعث أحمد عليه الصلاة والسلام شرعتهم ما فى الانجيل ، وأما أنتم أيها

الموجودون فشرعتكم ما فى القرآن ليس الا فآمنوا بما فيه .

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) أى ولو شاء الله لجعلكم أيها الناس أمة واحدة فى جميع العصور ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد من غير اختلاف بينكم فى شىء من الاحكام الدينية **(ولكن ليبلوكم فيما آتاكم)** .

ولكن لم يشأ ذلك ليختبر كل فريق فيما أتاه الله من الشرائع المختلفة هل يعلمون ما مدعين معتقدين أنها مصالح قد اختلفت على حسب الاحوال والاوقات معترفين بأن الله لم يقصد باختلافها الا ما اقتضته الحكمة ؟ أم يتبعون الشبه ويفرطون فى العمل .

التشريع قبل الاسلام :

تفيد الآيات الكريمة تعاقب الرسالات السماوية من عند الله تعالى على هذه الارض حسب سنة الارتقاء فى تطور بالتدريج حتى جاءت الرسالة الاخيرة التى تعرض الاسلام بشرائعه وقوانينه وآدابه وأخلاقه وفقا للفطرة البشرية ، وحاجات الحياة المتجددة فى جميع العصور المقبلة دون أن تصطدم بالاصول الاولية الثابتة والمبادىء الاساسية .

والملحوظ أن هذه الآيات التى نحن فى رحابها تقرر أن شريعة موسى وشريعة عيسى وشريعة محمد عليهم الصلاة والسلام مختلفة ومتباينة .

وفى الكتاب الكريم آيات أخرى تقرر أن الشرائع متفقة كقوله تعالى : **(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)** (6) وهذا قد يثير حيرة وتساؤلا على الاقل ، والجواب أنها متفقة فى الاصول والاسس التى لا تتبدل ولا تتغير ولا ترضخ لزيادة أو نقصان أو نظر ، وهى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وفعل الفضائل العامة واجتناب الرذائل ، ومختلفة فى الفروع كطرق العبادات وبعض الاحكام التى تتغير بتغير الازمنة لان الله تعالى جعل البشرية على الاختلاف **(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الامن رحم ربك ولذلك خلقهم)** (7) **(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة)** (8) .

والبشرية فى تطورها العقلى والوجدانى والحضارى والمادى لا تصلح لها شريعة واحدة ، فما يصلح لها فى طور من أطوار حياتها لا يصلح لها فى طور آخر ، يظهر ذلك ـ كما فى المنار ـ فى اليهودية والنصرانية والاسلامية .

فاليهودية شريعة مبنية على الشدة في تربية قوم ألفوا العبودية والذل ، وفقدوا الاستقلال في الارادة والرأى فهي مادية جسدية شديدة ليس لاهلها فيها رأى ولا اجتهاد فالقائم بتنفيذها كالمربي للطفل العارم الشكس .

والمسيحية يهودية من جهة وروحانية شديدة من جهة أخرى ، فهي تأمر أهلها بأن يسلموا أمورهم الجسدية الاجتماعية للمتغلبين من أهل السلطة والحكم مهما كانوا عليه من الفساد والظلم ، وأن يقبلوا كل ما يسامون به من الخسف والذل ، ويجعلوا غايتهم كلها بالامور الروحية وتربية العواطف والوجدانات النفسية ، فهي تربية للنوع في طور التمييز عندما كان كالغلام اليافع الذى تؤثر في نفسه الخطابيات والشعريات .

وأما الاسلامية فهي القائمة على أساس العقل والاستقلال ، المحققة لمعنى الانسانية بالجمع بين مصالح الروح والجسد ، وبهذا يصدق عليها قوله تعالى **(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)** وقوله : **(كنتم خير أمة أخرجت للناس)** ، فهي مبنية على أساس الاستقلال البشرى اللائق بسن الرشد وطور ارتقاء العقل (9) .

والاسلام بهذا الطابع وبهذه الخاصة كان دين البشرية جمعاء على اختلاف النوع والزمان والمكان ، فكل حكم وكل قانون وكل تشريع يجب أن يستمد منه **(وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)** .

فكم حكم سوى الاسلام يعد جاهلية ، وليست الجاهلية فترة معينة من التاريخ انما هي حالة تتحقق كلما تحققت مقوماتها في الحياة ومن مقوماتها الرجوع بالحكم الى غير قاعدة ثابتة (فتتحكم أهواء الافراد وأهواء الطبقات وأهواء العصبيات والقوميات (10) **أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)** .

وهكذا فما يشرعه الفرد للفرد ، والجماعة للجماعة ، والمنظمة للمنظمة ، تشريع جاهلي لانه يعتمد على الهوى .. أما ما يشرعه الخالق للمخلوق فهو التشريع الحق لانه يجمع بين المادة والروح وبين الدنيا والآخرة .

وفي هذه الآية (**أفحكم الجاهلية** الخ) وجهان : أحدهما أن بني النضير تحاكموا الى الرسول صلى الله عليه وسلم في خصومة فتيل وقعت بينهم وبين بني قريظة وطلب منه بعضهم أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من

التفاضل فقال عليه الصلاة والسلام : (القتل بواء) (11) فقال بنو النضير : (نحن لا نرضى بذلك) فنزلت الآية ·

وثانيهما – أن يكون تعييرا لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التى هى هوى وجهل لا تصدر عن كتاب ولا ترجع الى وحى السماء · وعن الحسن : انه عام فى كل من يبغى غير حكم الله تعالى ·

واذا كانت هذه الآيات تنعى على أهل الجاهلية رغبتهم عن حكم الله ونزوعهم الى أحكام وضعية توافق مزاجهم ، وتتفق وأهواءهم ، فان المسلمين (الصوريين) اليوم الذين يعادون الاسلام ويتآمرون عليه ويرون أن الشريعة الوضعية خير من شريعة الله لا يقلون خطرا عن أولائك ، ولا استحقاقا للنعى والخزى منهم أنهم يقولون ، أو لسان حالهم يقول :

لقد مضى عهد القرآن ، وعهد الشريعة الاسلامية يوم كان الانسان يعيش فى الخيمة ، ويستضىء بالزيت والشمع ويركب الجمل ، ويكتفى بالتمر والحليب قوتا له ، وعصرنا الحاضر عصر القصور وناطحات السحاب ، وعصر الكهرباء والبخار ، وعصر الطائرات والمخترعات الآلية العجيبة ، عصر أصبح فيه الانسان سلطان الاكوان ··

فاذا كانت الشريعة الاسلامية قد لاقت بانسان العهود الغابرة فهى لا تليق بانسان العصر الجديد الذى اخترق أحشاء الفضاء وصار يفكر فى استعمارها كما استعمر هذه الارض ·

كبر مقتا عند الله أن يتجرأ هؤلاء على الحقيقة فيختلقوا هذه المزاعم ، وينسجوا حولها هذه الاوهام ، ويحاولوا تغطيتها أو تشويهها أو الحط منها وهى الشمس علوا ووضوحا ونصاعة ·· ولو فكروا ونظروا بالبصيرة النافذة والعقل الواعى النزيه لادركوا أن شريعة الاسلام تتفق كل الاتفاق ومقررات العقل ، ومطالب الحضارة الانسانية الحقة أليست (تحبب الانسان فى الحياة ولا تزهده فيها ، وتنشطه للعمل وتحرضه على استصلاح المعيشة وتحثه لطلب العلم وتدعوه لاحترامه واستثماره، وتبيح له مجال الفكر ، وتفسح له ميدان النظر ، وتسمح له بالتمتع باللذائذ البدنية المعتدلة ، ولا تحرم عليه الا الافراط فيها ؟ ؟

أليست على النفس روح الحرية ، وثبت فى الفؤاد حرارة الشمم والحمية والاباء ، وتفضى بالروح الى خالقها ، ولا تقيم الوسطاء بينهما ؟ ؟

أليست الانسان في ضعفه ولا تطلب منه فوق طاقته . تنزل معه الى حيث هو وتعلو به ولا تعلو عنه .

أليست تراعى أطوار الحياة، وظروف الانسان فتعطى لكل طور وكل ظرف ما يناسبه ويلائمه (12) ؟

تلك هى الشريعة السماوية ، شريعة الله التى يعاديها هؤلاء ويوثرون عليها شريعة الانسان ...

وذكر الجاهلية يتقاضانا الحديث عن شريعة العرب ونظام الحكم عندهم قبل أن تشرف شمس الاسلام : كانت الحالة فى الجزيرة العربية سيئة متعفنة للغاية، فالقبائل لا ينقطع نزاعها ، ولا تنتهى حروبها ، ولا تهدأ غاراتها ... وكلما أوشكت أن تنطفىء ، أججتها احن مسعورة ، وأثارتها جهالات مستحكمة وثارات متوارثة ...

وكانت المظالم الاجتماعية تتجسم اشباحها الرهيبة فى كل مكان ، كقتل الاولاد خشية املاق، ووأد البنات خوف العار ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وتسمية الابناء بأسماء توحى بنزعة الاعتداء فى الحروب كصخر وأسد وسنان وزجر وكلب ...

وازاء ذلك كله تمارس عادات قبيحة واخلاق سيئة كالزنا وشرب الخمر ولعب الميسر وزجر الطير والكهانة والنفث فى العقد وغير ذلك من العادات والاخلاق الجاهلية التى لا تستقر معها حياة الجماعة .

ومع ذلك كله فلم تكن فى الجاهلية هيئة حاكمة ، او طائفة من الناس تتكفل بحماية المظلوم وتامين الخائف وردع الجائر المستبد ، وضبط السلوك وتوجيهه .

ومن هنا يتضح ان (الجاهلية) لا تعنى الجهل ضد العلم وانما تعنى الجهل ضد الحلم ، ويشهد لهذا قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويدل على ذلك ايضا اللغة العربية التى تدل دلالة واضحة على ان العرب لم يكونوا قوما جاهلين ، فقد وضعوا لثمرة (العنب) اربعين لفظة مختلفة المعانى منذ ان يبدأ زهرة الى ان يصبح زبيبا ، ولهم ايضا معرفة واسعة بعلم التشريح وعلم الفلك والنبات والحيوان (13) .

كيف كان العرب اذن يسوسون شؤونهم ؟ ويسوون خلافاتهم ! ويدبرون حياتهم الجماعية ؟

كان النظام القبلي هو الذى يسود العرب فى جاهليتهم ، وكان الرابط الذى يشد أجزاء القبيلة ، هو القرابة الدموية ، وكل فرد من افراد القبيلة مرغم على الخضوع لنظامها وليس له فى اطار القبيلة صفة شخصية مستقلة، وليس له رأى ينفرد به بل هو تابع للقبيلة احسنت أو أساءت ، استقامت أم انحرفت ، ولسان حاله يقول :

وما أنا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غزية أرشد

فالعصبية القبلية هى منشأ كل حركة ، واساس كل تصرف ٠٠ وحاكم القبيلة او بعبارة اخرى ، المسؤول الاول فيها هو (شيخ القبيلة) ٠

ولكى يترشح فرد من القبيلة لهذا المنصب فى قومه لابد ان تتوفر فيه صفات ومؤهلات ، وهذه الصفات هى السن ، والشجاعة ، والجود ، والبلاء فى خدمة القبيلة ٠

وهكذا فمن له هذه المؤهلات او هذه الكفاءات تسلم عرش القبيلة وساسها، ودبر شؤونها ٠ وقد حدد الشاعر العربى لقيط بن يعمر صفات القائد المدبر فى قوله ينصح قومه :

وقلدوا امركم لله دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا أن رخاء العيش ساعده
ولا اذا عض مكروه به خشعا
مازال يحلب در الدهر اشطره
يكون متبعا يوما و متبعا
وليس يشغله مال يثمره
عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا

وواضح من هذا ان الصفات المؤهلة لرئاسة القبيلة وتسيير شؤونها ليست صعبة التحقق او عسيرة المنال بل هى ممكنة ميسورة يمكن ان يتصف بها أى فرد من افراد الجماعة وأن كل من له من شرف النفس ، وحنكة الايام ، ما يمكنه من رئاسة القبيلة تسلم قيادتها ونهض بمسؤولياتها ٠

وتجدر الملاحظة بأن (الدكتاتورية) لم تكن النظرية السائدة فى عرف القبيلة بالرغم من ان رئيسها واحد ، وبالرغم ايضا مما فشا فى ذلك العهد من الطمع والنهامة ، وتعاطى الربا الى حد الاغتصاب واستلاب الاموال بل ان شيخ القبيلة كان يجمع من حين لآخر رؤساء العشائر وهم الذين كان يتألف منهم شبه مجلس شيوخ القبيلة وكانوا يتدربون على الشؤون الكبرى ويتبادلون الرأى والمشورة ٠ (14)

وكان لهم وحدهم الفصل في الامور الهامة كاعلان الحرب أو اقرار السلام .

وكان في شريعة الجاهلية حلال وحرام مباح ومحظور ، (ويراد بالحلال كل ما أباحه العرف مما لم يتعارض مع تقاليدهم ومالوفهم ، أما ما تعارض منه معه فهو حرام محظور ، ويعاقب المخالف المرتكب للمحرمات ولما حرمته شريعتهم ، ومعنى الحلال والحرام الاصطلاحي هو المعنى الوارد في القرآن الكريم نفسه غير أن الاسلام حدد الحرام والحلال وفق قواعد الشرع أي أن الاسلام ندب المصطلحين وحددهما وفق قواعده .. أما الجاهلية فحددتهما وفق عرفها (15) .

واذا كانت أخلاقيات الدين هي الموجه الاساسي لسلوكيات الافراد في اطار الاسرة والمجتمع فان المجتمع الجاهلي كان يدين بالوثنية المرذولة التي لا أخلاق لها سوى الظلم ، والفظاظة ، والقساوة ، والانانية ، والانعزالية ، والتمايز الطبقي أو العرقي ، ومعاقرة الخمر ، ولعب الميسر ، وتعاطي الربا ، وتطفيف الكيل والميزان ...

والحقيقة التي تفرض نفسها على الباحث في هذا الموضوع هي أن تقوية الاواصر بين الناس ، وتحسين علاقاتهم في جو تسوده المحبة والاخاء والايثار هي الضمانة الاكيدة للمشاركة الوجدانية المسؤولة في اطار التعاون والترابط والتكامل وهذا يؤدي حتما الى الخضوع والرضوخ لمصلحة الجماعة الانسانية بدلا من النظم الفردية التي تقوي الفرد وتجعل له كل الحقوق .

وهذا الترابط والتمازج والتكامل الذي يفضي حتما الى الخضوع لمصلحة الجماعة بدلا من النظم الفردية هو الذي فقدته الامة العربية في الجاهلية حتى كانت شريعتها (ما يرضى الهوى ويوافق المزاج) .

ومن تتبع القرآن الكريم وجد فيه نصوصا كثيرة تصف طبيعة هؤلاء القوم المتميزة بالنفرة الشديدة لحياة الاستقرار ، والانانية ، والسيطرة ، والاستغلال ، وحب الذات .. والمتميزة بالصلابة والعناد ، والامية والفظاظة ، والفوضى الاجتماعية وفقدانهم للاحساس الخلقي القويم الذي يتفق مع طبيعة الانسان ومجتمع مثل هذا لا يكون الحكم فيه الا تبعا للنظام السائد فيه الذي لا يخلو من ظلم وهوى وافتراء بل هو مناف للفطرة الانسانية والطبيعة البشرية ، تأمل كل هذا في هذه الآيات التالية :

قال تعالى : (أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون اليك تدور

أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد) (16) ·

(ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) (17) ·

واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة (18) ·

(وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) (19)

(وقالوا أآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون) (20).

(أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طا غون ؟) (21) ·

(كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما) (22) ·

(انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام الا من غسلين لا يأكله الا الخاطئون) (23) ·

(ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولائك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟) (24) ·

حاجة البشرية الى الاسلام :

قال الله تعالى : **(ان الدين عند الله الاسلام)** ·

كان العالم فى الفترة التى ظهر فيها الاسلام يتخبط فى ظلام معتم دامس ، ويعيش فى وضع يسوده الضلال ·· والانحلال والاضطراب والذى يهمنا فى هذا الفصل بالدرجة الاولى هو وضعه الدينى الذى انحط بصفة عامة ومريعة .

ان بعض سكان العالم كانوا غير متدينين على الاطلاق وبعضهم كانوا خاضعين لاراء حكماء بلغت عندهم مبلغ العقائد الدينية ، فكانوا يقدسونها ولا يحيدون عن مجرياتها ، وبعضهم كانوا متدينين بشرائع سماوية ابتعدت عن الجادة القويمة ··

فالعرب وهم يدعون أنهم على دين ابراهيم يعبدون الاصنام ويقولون : **(ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى)** (25) ·

وكانت عقولهم الضيقة لا تهضم أن هناك بعثا بعد الموت وحياة بعد هذه الحياة فيها الحساب وفيها الثواب والعقاب ، وقالوا : **(أئذا كنا عظاما ورفاتا انا لمبعوثون خلقا جديدا)** (26)·

(ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) (27) ·

وكان (جمهورهم ينكر ذلك (الميعاد) ولا يصدق ولا يقول بالجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد ، وان كان مخلوقا مبتدعا ، وكان فيهم من يقر بالمعاد ، ويعتقد ان نحرت ناقته على قبره يحشر راكبا ومن لم يفعل ذلك يحشر ما شيا) (28) ·

واليهود وهم يزعمون أنهم على شريعة موسى ـ قد حادوا عن الطريق القويم بعد أن تحرفت التوراة وغمرتها الاوهام والاباطيل ··

والنصارى وهم يدعون أنهم على شريعة عيسى ـ قد اختلفت عندهم نسخ الانجيل فانقسموا الى فرق مختلفة ، وطوائف متعددة لا تجمع بينها رابطة ، ولا يضم شعبها أصل ، ويقول العالم البحاثة أبو الحسن الندوى يصف العالم الذى بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم وأشرقت عليه شمس الاسلام بعد ليل طويل ·

(بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفا ، فاذا كل شىء فيه فى غير محله ، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكانا آخر ومنه ما تكدس وتكوم) (29)

ويقول (دينسون) فى نفس هذا الموضوع : (وفى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتدين على شفا جرف انهار من الفوضى ، لان العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها وكان يبدو اذ ذاك أن المدنية الكبرى التى بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية اذ القبائل تتحارب وتتناحر لا قانون ولا نظام ··

ويستمر (دينسون) كلامه فيقول : أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله واقفة تترنح ، وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب ··

ويختم (دينسون) كلامه بقوله : وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه) (30) ·

وهكذا من الله تعالى على البشرية البائسة المنكودة التى تعانى تمزقا واضطرابا ، وتيها وضياعا بالرحمة

الشاملة والعلاج الناجع ، فبعث فيها خاتم الانبياء محمدا صلى الله عليه وسلم بدين يجمع شملها ويوحد كلمتها ، ويعالج أمراضها ويوجهها نحو سعادة الدنيا وسعادة الآخرة فكان الدين الاسلامى ...

الدين الذى يرجى أن يعيد فى هذا العصر انقلابه الجذرى الشامل بعد أن أصبح وضع البشرية لا يقل تعفنا وانحلالا وبعدا عن الجادة عن وضع البشرية قبل البعثة .

فالانقلاب الشامل الذى يرجى من الاسلام مرة أخرى هو الانقلاب فى سلوكنا ، والانقلاب فى أوضاعنا ، والانقلاب فى أخلاقنا ..

ان العالم اليوم من شرقه الى غربه قد طغت عليه المادة ، ونسى أن الانسان انما ميزه الله بالعقل ، وكرمه بالشعور وسخر له الكون لينهض برسالته فى الحياة التى تتمثل فى تعميرها واستغلالها لفائدة الانسان ..

نسى ذلك فصار يتسابق فى الدمار ، ويتبارى فى الهلاك ، ويركز جهوده كلها فى التسلح استعدادا لحرب الابادة من غير أن تأخذه الشفقة ، أو تهزه العاطفة لانه لا يؤمن الا بوجود نفسه ، ولا يعلم أن الخير دائما فى الايمان بوجود غيره أيضا ولكن أنى له ذلك وقد ابتعد عن السماء فانطمس عقله ، ومرضت نفسه وفسد ضميره ، وانحط خلقه ، وخبثت طويته ، فمال للشر ، وولع بالفساد ، ورغب فى سفك الدم ، وتفانى فى الاساءة والتدمير والتخريب .. ولن يعود انسانا كما خلقه الله ، الا اذا عاد الى ربه يؤمن به ، ويعتصم بحبله ، ويستضىء بنوره ، ويعمل بشريعته ..

عالمية الاسلام :

قال الله تعالى : (**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا**) .

كان آخر ما نزل من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفات يلقى خطبته على المسلمين فى اليوم التاسع من ذى الحجة من السنة العاشرة للهجرة هذا المقطع الكريم : (**اليوم أكملت لكم دينكم الخ**) .

من شأن هذا المقطع أن يبعث الطمأنينة والرضا فى قلوب المسلمين ويثير فيهم البهجة والاغتباط والاعتزاز ويمدهم بطاقات من العزم والقوة والارادة لما احتواه من بشريات عالية يقدمها القرآن فى خاتمته ، للانسانية جمعاء فى ضمن أمة الاسلام .

انهـا تبعـات ثقيلـة ، ومسؤوليات كبيرة ، يطالب كل جيـــل من الاجيال البشرية التى تمد الى هذا الوجود ـ أن ينهض بها ويحميها ويعيش لها ويموت عليها :

فأولى هذه البشريات (**اليوم أكملت لـكم دينكم**) أكملت لـكم ما تحتاجون اليه فى تكليفكم من فرائض وحدود ، وحلال وحرام ، فلا زيادة بعد اليـــوم لمستـزيد ، ففـى مبادئـه ، وكليـاته ، واصوله ، وتوجيهاته ـ الكفاية لبنـاء الضمائر ، وبناء المجتمعات ، وصنـع القيادات المؤمنة التى تحمل مشعـــل النور للسارين فى هذه الحياة .

فالدين الذى أعلن الله عن اكماله فى هذا المقطع ، هو الاسلام الذى امتاز عن سائر الاديان السماوية والوضعية بانـه دين الدنيا ودين الآخرة معا .

ومن ثم جمع للانسان كل ما يحتاج اليه من أمور دينه ودنياه فوضع أنماطا من السلوك ، ورسم معالم الطريق فـى الصلة بالله ، وحدد وسائل السعادة ، ووضع أسس العلاقة بين الافراد ، وحدد الحقوق والواجبات لكل فرد .. ورسم اطار التنظيم العام للمجتمعات ، واطـار الحياة للاسرة التى تعتبر اللبنة الاولى فى المجتمع وشرع قوانين وأنظمة لرقى الانســان ولكمـاله مـاديا ومعنـويا ، جسدانيا وروحانيا .

أما الحاجات الجزئية المتجددة التى لم يرد فيها نص فموكول أمرها الى العقل الذى صنعه الاسلام فهو يواجهها بالنظر والاجتهاد والحلول التى تلائم الظروف وتتفق مع تلك المبادىء والاصول .

وثانية البشريات (**وأتممت عليـكم نعمـتى**) وذلـك بالهداية والتوفيق ، وبهذه الشريعة التى تنظم حياة الانسان ســواء بوصفه فـــردا فى مجتمع ، أو بوصفه مجتمعا فى دولـة ، أو دولـة تؤلف جزءا من الارض .

وثالثة البشريات (**ورضيت لـــكم الاسلام ديـنا**) اخترت لكم الاسلام بين الاديان وآثرتكم به عـلى غيركم ويلتقى هذا التكريم الذى فضل اللـه به هذه الامة بتكريم آخر من قبل (**كنتم خـير أمة أخرجت للناس**) (31) ، (**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**) (32) .

ولم يرتض هذا الدين لهذه الامة الا لما امتاز به من خصائص جعلته أعـــلى الاديان جميعها ، كما جعلته أيضا ينتشر فى مختلف أنحاء العالم انتشارا سريعا

لم يعرف التاريخ مثله لدين من الاديان أو مذهب من المذاهب ..

أليس دينا ينظر الى الانسان نظرة كاملة تتفق مع واقع فطرة الانسان ماديا وروحيا ؟

أليس دينا يؤهل الانسان بتعاليمه الخالدة للخلافة فى الارض كانسان كريم ؟

أليس دينا لا يفرق بين عنصر وعنصر ؟

أليس فى حقائقه الباقية الخالدة وفى نظرته الى الكون وفى تقديره لمصالح الناس وحقوقهم وطلبه الايمان عن طريق التأمل والعقل وفى رفعه الحرج وتوخيه اليسر وفى مده للانسانية بالقدرة على الحركة والتطور وفى حضه على العلم والاشادة بأهله ، وفى قيمه ومقوماته الغزيرة التى تعطى الحياة قوة الاستمرار ..؟

أليس فى كل هذا ما يرشح الاسلام لقيادة الانسانية جمعاء فى مختلف أماكنها وعصورها .

ان دينا هذا طبعه ، وهذا زاده ، وذلك منهجه وفلسفته ، فلابد أن يتعلق به الناس اذا هم نظروا فيه بعقول سليمة ، وفطر هادية ، وتجردوا من الاهواء والنزعات ..

ومن أجل ذلك كله ارتضى الله الاسلام لهذه الامة دينا وجعله خاتمة الاديان كلها ..

وفى اعلان القرآن عن شكل الاسلام النهائى وطوره الكامل بقوله (**اليوم أكملت لكم دينكم** ـ الخ) ما يدل على عالمية الاسلام ..

ومن الحقائق الواضحة أن الاسلام لا يمثل حضارة خاصة بعهد من العهود تتجلى فى عمران ذلك العهد وفى آثاره ومختلف صوره ومعالمه ، ولما مضى ذلك العهد مضى معه الاسلام ولم يبق الا على لسان التاريخ يردده كما يردد الحضارات البشرية المختلفة التى مرت بهذا الوجود (كاليونانية والرومانية) وغيرهما كما هو اعتقاد كثير من المستشرقين المتعصبين و (أنصاف المسلمين) الذين تعلموا ليجهلوا وليفسدوا ..

ان الاسلام دين حى ، ورسالة خالدة ، بفضل نظمه ، وتعاليمه التى سادت بها البشرية قرونا طويلة وستسود بها ان أرادت ذلك من جديد .. (33) .

وهكذا فالرسول فى الديانات السابقة كان يبعث فى نطاق قومى لا تتجاوزه دعوته ، ولا تتعداه هدايته واصلاحه ، أما رسول الاسلام فليس مبعوثا الى قوم

دون آخرين بل هو مبعوث الى العالم أجمع الى البشرية قاطبة .

قال الله تعالى في شأن الديانات المحدودة :

(انا أرسلنا نوحا الى قومه) (34) .

(والى عاد أخاهم هودا) (35) .

(واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل اني رسول الله اليكم) (36) .

وقال فى شأن الاسلام الدين العالمى الخالد :

(وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) (37)

(وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) (38) .

أصول التشريع الاسلامى :

قال الله تعالى : **(هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر أولو الالباب)** (39) .

لا يتسع المقام للحديث عن الاسس العامة للتشريع الاسلامى بالتفصيل فقد أفردت بتأليف وعنى بها المختصون من أعلام هذه الامة فى القديم والحديث ، فغايتنا نحن أن نوجزها فى كلمات حتى يتبينها القارىء الكريم وتكون له عونا على تتبعها بتوسع وعمق فى أمهات كتب التشريع ولنتحدث قبل ذلك على طبيعة الاسلام فى التشريع ومراعاته لفطرة الانسان .

بنى الاسلام تشريعه على أسس تتماشى مع الفطرة البشرية وتواكبها لان الاسلام دين الفطرة . ومعنى ذلك أنه دين ينبع من أعماق الانسان ، ويعيش فى وجدانه ويحيا في فطرته ،. دين يدعو الى الحياة يجمع الوانها وصورها شريطة أن تخدم الانسان ، وتوفر كرامته ، وتعلى مكانته دين يدعو الى العلم والعمل والبحث فى أعماق الكون رآفاقه والتطلع دوما الى أعلى : الى العزة والكرامة ، الى المجد والسؤدد ، الى حياة فضلى تليق بخليفة الله فى الارض ، دين يهيب بالانسان أن يرفع رأسه ، وينصب قامته ، ويستقيم على الجادة المثلى - دين يراعى مراحل الحياة وأدوار الطبيعة فيختار لكل مرحلة ما يناسبها ، ويقابلها بما يلائمها ، ويضع كل شىء فى وضعه اللائق بكل دقة وبكل حكمة .

ذلك هو الاسلام الحنيف ، الدين الفطرى الخالد الذى أكرم الله به الانسانية قال الله تعالى :

(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (40) .

(صبغة الله ومن احسن من الله صبغة) (41) ، وقال صلى الله عليه وسلم :

(كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه) (42) ويقول (شاشاون) :

(مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر علميا أو صناعيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا ، ومهما تقدمنا فى هذه الحركة العظيمة للحياة العملية وللجهاد والتنافس فى سبيل معيشتنا ومعيشة ذوينا فان عقلنا فى أوقات السكون والهدوء عظاما كنا أو متواضعين ، خيارا كنا أو أشرارا ، يعود الى التأمل فى هذه المسائل الازلية وفى الحياة الاخروية) (43) . ويقول (هنرى برجسون) :

(لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة) (44) .

ويذكر أهل العلم بما ثبت بالتجربة التاريخية : (ان الحضارات التى لا تتأسس على دين لا تدوم طويلا ولا تتمتع بثقة العقل الكاملة ولا تتعمق فى سعادة الافراد والجماعات) .

ومبادىء الاسلام العامة تتناسق مع الفطرة السليمة مما جعله دين البشرية جمعاء ـ كما قدمنا ـ وفى هذا يقول الامام محمد عبده :

(ان الاسلام أكثر ملاءمة لمقتضى الفطرة السليمة فأباح الطيبات من الرزق ، ولم يكلف نفسا الا وسعها ، فكان الدين الاسلامى أكثر ملاءمة للطباع والعادات والقوى البشرية على اختلافها) (45) .

قال الله تعالى :

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (46) .

ومعنى كون الامة وسطا أنها ليست من أرباب الغلو فى الدين المفرطين ، ولا من أرباب التعطيل المفرطين .

(ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الاسلام على قسمين : قسم تقضى عليه تقاليده بالمادية المحضة فلا هم له الا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين ، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنى الهند أصحاب الرياضات) .

ويمكن أن نستبين مراعاة الاسلام للفطرة فى مظاهر الحياة المتنوعة (فالانسان ينزع بفطرته نزعا طبيعيا الى الايمان بأن لهذا الكون صانعا حكيما قديرا ، فكما ينشأ مفطورا على الايمان بأن الكل أعظم من الجزء وأن الواحد نصف الاثنين وأن الشىء لا يوجد فى

مكانين فى وقت واحد وأن المصنوع لابد له من صانع ـ كذلك ينشأ مفطورا على الشعور الوجدانى بسلطان غيبى فوق كل قوة هو خالقه وخالق كل شيء :

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (47) .

« اننى انا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » (48) .

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد»(49)

« وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (90) .

والانسان يرفض بفطرته أن يكون لله شريك إلا أن يكون هذا الانسان فاسد الفطرة ، مريض العقل ، وهذا ما جاء به القرآن :

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » (51) .

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذن لذهب كلّ اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » (52) .

والانسان بفطرته ميال الى الجنس الآخر لتتحقق باجتماعهما الاسرة التى هى خلية المجتمع فجاء الاسلام داعيا الى الزواج متماشيا مع الفطرة ملبيا لنداء الطبيعة ، قال تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (53) .

والانسان بفطرته يحب الحرية ويرغب فيها بقوة ، ولان يحرم من الطعام والشراب أهون عليه من أن يحرم من الحرية فجاء الاسلام فكفل لكل انسان حريته حتى فى اختيار العقيدة والدين ، قال تعالى :

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (54) .

« ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (55) .

والانسان بفطرته يحب المال ويرغب فى الكسب والتملك والاقتناء فجاء

الاسلام مشجعا له على العمل والكسب في اطار الشرع الحنيف فقال تعالى :

« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (56) ٠

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (57) ٠

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله اليك » (58) ٠

« يا أيهان الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض » (59) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم :

(نعم المال الصالح للعبد الصالح) ٠

والانسان بفطرته ميال الى الطيبات المتنوعة التى أوجدها الله فى هذه الارض وشديد النفور من الخبائث المختلفة فجاء الاسلام محلا لهذه الطيبات ومرغبا فيها، ومحرما للخبائث ومرغبا عنها فقال تعالى :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (60) ٠

« اليوم أحل لكم الطيبات » (61) ٠

« يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم » (62) ٠

ويتصل بالفطرة البشرية السليمة ما دعا اليه الاسلام من أنواع النظافة كالختان وكقص الشارب والاظافر والاستنجاء والاستحمام وتنظيف الاسنان قال تعالى :

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (63) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم :

(لولا أن أشق على أمتى لامرتهم بالسواك قبل كل صلاة) (64) ، وقال :

(خمس من الفطرة : الاستنجاء والختان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الاظافر) (64) ٠

والاسلام أرسى تشريعه على أصول عامة لا تتغير ولا تتبدل فيما أهمها :

الاصل الاول : (رعاية المصلحة العامة)٠

حث الاسلام على ما يفيد المجتمع ونهى عن كل ما يضره ، ويتجلى ذلك فى هاتين القاعدتين :

الاولى : تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة :

حرم الاسلام الربا لما فيه من الاثراء على حساب جهد الضعفاء وحاجتهم ،

وحرم الزنا لما فيه من نشر الفساد ، واختلاط الانساب ، وهتك الحرمات ، وأوجب اقامة الحدود مراعاة لما ينجر عن اهمالها من التجرؤ على ارتكاب الجرائم وممارسة الموبقات فتصبح بحكم تكرارها عادة جارية وعرفا متبعا فتسوء حال المجتمع وبالتالي يصاب بالهلاك والانقراض ·

ومن أمثلة تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة انتزاع بعض الاملاك من أصحابها عندما تقتضي ذلك مصلحة الجماعة ·

(ومن ذلك أيضا ما حدث أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من انتزاع دار سكنى العباس بن عبد المطلب لتوسيع المسجد) (66) ·

الثانية ـ الضرر الاكبر يزال بالضرر الادنى :

ومعنى هذه القاعدة أن الضررين اذا اجتمعا اهتم الاسلام بأكثرهما ضررا بالمجتمع فيدفعه ولو بتحمل ضرر أصغر، تخفيفا من وقع الشر على المجتمع : ومثلوا لهذا بهدم البلديات للجدر المهلهلة الموشكة على السقوط والآيلة الى الخراب ان كانت في طريق يكثر فيه المارة · ففي هذا ضرر لصاحبه ان هدم الجدار وضرر للناس ان سقط عليهم فالضرر الثاني أشد خطرا ولذا اهتم به الاسلام فدفعه بهدم الجدار ·

الاصل الثاني : (رفع الحرج عن الامة) ·

من أصول التشريع الاسلامي مسايرة الامكان البشري في جميع الاوامر والنواهي التي يكلف بها الانسان ·

وكل فعل من أفعال المكلف له طرفان : طرف الافراط والتشديد بالكثرة ، وطرف التفريط والاستهانة والقلة ، والشريعة الاسلامية التي جاءت لسعادة الانسان في العاجلة والآجلة وضعت على أساس العدل الوسط ، فلا افراط ولا تفريط · فالتكليف بما فوق الطاقة ينتهي غالبا الى النفور أو العجز أو التقصير أو الضيق أو القلق ··

فليس في التشريع تكليف يؤدي بكثرته وشدته الى الضيق والحرج ، أو الى العجز عن المداومة على العمل بل جاءت التكاليف مسايرة للطاقة البشرية ومحببة الى العباد ومشوقة لهم وهي داعية يسرها وسماحتها ومسايرتها للامكان البشري الى المداومة عليها ونصوص الوحي في ذلك كثيرة ، قال الله تعالى :

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (67) ·

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (68) .

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (69) .

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » (70) .

« ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له » (71) .

(ويضع عنهم أسرهم والاغلال التى التى كانت عليهم » (72) .

ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغالاة فى تكاليف الشريعة فقال :

(لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم) .

وشبه المتشدد فى الدين المرهق لنفسه بالمسافر الذى يهلك راحلته ولا يحقق غرضه : (ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) .

ويتجلى تيسير التشريع الاسلامى وسماحته فى الرخص المتعددة فى الطهارة كالتيمم وفى الصلاة بالقصر فى السفر والجمع بين الصلاتين ، وفى الصوم بالفطر للمريض والمسافر ، وبالنسبة الى حفظ النفس يسر التريع بأكل الميتة للمضطر ، وفى التناسل أباح الطلاق للتخلص من العداء وقيده بالثلاث تيسيرا على المرأة حيث ينسد الباب على الرجل وتتخلص المرأة من المضرة .. وفى المال رخص الشارع فى الضرر اليسير والجهالة التى تلزم غالبا ، كما فى بيع ما يغيب بعضه واذا أخرج بعضه من الارض قبل البيع يفسد كالجزر ...

وفى التشريعات التى تحفظ العقل رفع الله الحرج عن المكره وعن المضطر فى تناول محرم بالاكراه أو بالاضطرار.

وفى العقوبات كدرء الحدود بالشبهات فاذا قامت شبهة على براءة المتهم فانه لا يقام عليه الحد مثل عدم اقامة الحد على من سرق مال ابنه لما للاب من شبهة الحق فى مال ابنه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم) .

الاصل الثالث : (قلة التكليف) .

ومن الاصول العامة للتشريع الاسلامى قلة التكليف ، فليس الغرض من سن الشريعة احراج متبعيها وارعاقهم وانما الغرض تهذيب نفوسهم ، وترقية مشاعرهم ، وتربية عواطفهم ، والسمو بهم الى الكمال فى هذه الحياة ، واعدادهم خير اعداد لسعادة الآخرة ويشهد لذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحد

حدودا فلا تعتدوها ، وعفا عن أشياء ـ رحمة بكم لا عن نسيان ـ فلا تبحثوا عنها) ٠

وانظر الى التكاليف الاسلامية سواء منها العبادات أو المعاملات فانك تجدها قليلة ميسورة ٠

فالعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج فرائض معدودة محدودة يؤديها المكلف بلا جهد وعناء وفي وقت محدد واما المعاملات فهي أيضا ميسرة واضحة نصت الشريعة على المحرمات منها نص يدل على انها محدودة العدد بالاضافة الى ما بقي مباحا ٠

فالقرآن الكريم عدد المحرمات من المأكولات والذبائح ثم اعقبها بقوله :

« **يسألونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات** » وعدد من المحرمات من النساء واردفها بقوله :

« **واحل لكم ما وراء ذلكم** » وورد على المفترين على الله الذين يحرمون ما لم يحرمه الله الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا او لحم خنزير ثم عقب ذلك برفع الحرج عن المضطر لتناول شيء من المحرمات قال تعالى :

« **قل لا اجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا او لحم خنزير فانه رجس او فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم** » (73) ٠

الاصل الرابع : (تحقيق العدالة) ٠

وضع التشريع الاسلامي ما للفرد وما عليه من حقوق وواجبات ازاء نفسه والمجتمع والانسانية عموما وضمن صيانة هذه الحقوق والواجبات محافظة على الآمن في الانفس والاموال ٠

فاوجبت الشريعة المحافظة على الدين والنفس والنسب والعرض والمال والعقل لان عليهما مدار حسن العلاقة بين العبد وربه وبين العبد وبين غيره من بني جنسه وتسمى الكليات الست ٠٠ وقد أوعدت الشريعة كل من يستهين بواحدة منها بعقاب شديد وخزى عظيم في الدنيا وفي الآخرة ٠

وضعت الشريعة القصاص جزاء لمن سلب الحياة قال تعالى :

« **ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب** » ٠

والتقتيل أو التصليب أو تقطيع اليدين أو الرجلين من خلاف أو النفي لمن حارب الله ورسوله ويسعى في الارض فسادا قال تعالى :

« **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان**

يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » (74) .

وقطع اليد للسارق والسارقة قال تعالى :

« والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » (75) .

ونهت الشريعة عن تناول اعراض الناس لان فيه اعتداء على الكرامة التي يجب ان تصان وتحفظ قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب » (76) .

وحرمت أخذ أموال الناس بغير حق قال تعالى :

« ولا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل » (77) .

وحجرت على السفهاء ـ وهم لمسرفون المبذرون أموالهم في غير الوجوه المعقولة اما لفساد اخلاقهم وضعف عقولهم أو لسوء تدبيرهم قال تعالى :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا »(87).

وأمرت بكتابة العقود المالية والرهن حفظا للحقوق ومحافظة على الروابط الاجتماعية قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى اجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ، وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة

فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه » (79) .

وطالبت الشريعة كل مسلم ان يراقب تطبيق قوانين الاسلام وان يرد الظلم ان وقع وينبه الحاكم ان جار واعتبرته اثما ان رضى بالظلم فلم يغيره بيده أو بلسانه أو بقلبه قال تعالى :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) (80) .

وجماع القول فى هذا الموضوع الواسع العريض الذى لا تفى به مجلدات ضخام ان التشريع الاسلامى قد حقق العدالة بين المرء ونفسه قال تعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » (81) .

وبين المرء وأسرته قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والاقربين » (82) .

وبين المرء وعامة الناس قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (83) .

وقد جمع القرآن الكريم جميع التشريعات الاسلامية فى هذه الآية الكريمة :

« من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون » (84) .

وبهذا ارتفع التشريع الاسلامى الى الافق الاعلى واعتلى مكانة لا تدانيها مكانة آية شريعة عرفت على وجه هذه الارض مما استثار اعجاب علماء القانون ورجال الفكر وجعلهم يشيدون به فى تقدير واجلال فهذا الدكتور على بدوى وهو احد اعلام القانون يرى :

« ان التشريع الاسلامى له استقلاله عن غيره من التشريعات القديمة وانه يفوق فى كثير من النواحى غيره من التشريعات الحديثة » (85) .

ويقول الدكتور شفيق شحاته احد عباقرة القانون فى العصر الحديث : «واذا أردنا المقارنة من حيث قيمة النظرة الثانوية وجدنا التشريع الاسلامى قد

سبق التشريع الرومانى فى تقرير لبعض المبادىء العظيمة » (86) ٠

ويقول الدكتور عبد الرزاق السنهورى والدكتور حشمت أبو ستيت فى المقارنة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى :

« لم تسلك الشريعة الاسلامية فى نموها الطريق الذى سلكه الفقه الرومانى فان هذا القانون بدأ عادات ونما وازدهر من طريق الدعوى والاجراءات الشكلية٠ اما الشريعة الاسلامية فقد بدأت كتاباً منزلا ووحيا من عند الله ونمت وازدهرت من طريق القياس المنطقى والاحكام الموضوعية ٠ الا ان الفقهاء المسلمين امتازوا على الفقهاء الرومان بل امتازوا على فقهاء العالم باستخلاصهم اصولا ومبادىء عامة من نوع آخر وهى أصول استنباط الاحكام من مصادرها وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه » ٠

ويقول الاستاذ فارس الخورى العالم المسيحى المعروف :

وبالمقارنة بين الشرع الاسلامى والشرع الرومانى مثلا ترى اختلافا بينا بين الشرعين :

الاول منهما قائم على قواعد العدل المطلق ومقتضيات العقول ٠٠ والثانى على المصالح والمنافع الدنيوية ٠٠ فينبنى على هذا التخالف ان الاساس فى الشرع الاسلامى مصلحة الفرد فى الدنيا والآخرة ، وفى الشرع الرومانى مصلحة الجماعة فى الدنيا فقط » (87) ٠

واذا تتبعنا أقوال رجال القانون فى الشريعة الاسلامية تمدد بنا الحبل واتسع المجال فحسبنا منها ما ذكرنا وأهم من هذا كله ان التشريع الاسلامى ربط احترام التشريع بالعقيدة حتى يكون الانسان قاضيا على نفسه اذا أراد ان يكون مؤمنا . فمن استطاع ان يخدع القضاء حتى أخذ ما ليس له بحق أو منع صاحب حق عن حقه فان القضاء له لا ينجيه بل تبقى ذمته معلق وهو غاصب لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يودى الحقوق الى اربابها وهذا ما عجزت عند الشرائع الوضعية التى لا محل فيها الفكرة الحلال والحرام بل ما قضى به القاضى فهو حق وما لم يقض به فهو باطل ٠٠ فالانسان فى ظل هذه الشرائع الوضعية لا يحترم التشريع الا ما دام القضاء مصلتا فوق رأسه » (89) ٠

واذا تتبعنا أقوال العلماء والمفكرين فى الاشادة بفضل الشريعة الاسلامية يتمدد بنا الحبل وَيتسع المجال فحسبنا ما أوردنا منها ٠

أهداف الاسلام من وراء التشريع :

قال الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » (90) ٠

الشريعة الاسلامية هي مجموعة الاوامر والنواهي والاحكام العملية التي جاء بها الاسلام وأوجب تطبيقها لتحقيق أهدافه الاصلاحية في المجتمع البشري، ويمكن ارجاء تلك الاهداف الى ثلاثة أساسية :

الاول : تحرير العقل البشري من رق التقليد والخرافات والاوهام والبدع وذلك عن طريق العقيدة الصحيحة والايمان الصادق الحق ، وتوجيه العقل نحو الدليل والبرهان والتفكير العلمي الحر ، لذا حارب الاسلام الوثنية كالشرك الاعمى قال تعالى :

« ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون » (91) ٠

« أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (92) ٠

« وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » (93) ٠

« وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا » (94) ٠

« ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » (95) ٠

الثاني : اصلاح الفرد نفسيا وخلقيا وتوجيهه نحو الخير والاحسان والواجب كي لا تطغى شهواته ومطامعه على عقله وواجباته وذلك بممارسة الانسان للعبادة المشروعة التي تذكره بخالقه وبعقيدة الثواب والعقاب في الآخرة ليكون المؤمن على اتصال دائم بربه فلا ينسى ولا يغفل ولا يضل ولا يحيد وكيف يغفل أو يضل وهو في مراقبة ربه كل دقيقة وكل لحظة وكل نفس يصعده ٠

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » (96) ٠

« الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » (97) ٠

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » (98) .

« من عمل صالحا من ذكر او انثى وهـو مؤمـن فلنحيينه حياة طيبـة ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانـوا يعملون » (99) .

« ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها » (100) .

« قد افلـح من تزكى وذكـر اسم ربه فصلى » (101) .

« والعصر ان الانسـان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملـوا الصالحـات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»(102)

« واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى الماوى » (103).

الثالث : اصلاح المجتمع بحيث يسود فيه الامن والعدل والمساواة وتصـان كرامة كل فرد وحرياته المعقولة ولتحقيق هذا الهدف جاء الاسلام بنظام مـدنى يتضمن تشريعا شاملا لجميـع الاسس القانونية اللازمة لاقامة حياة اجتماعية فى دولة (104) .

وسلك الاسلام الى اصلاح المجتمع سبلـين :

السبيل الاول : انصاف المرأة ورفع شأنها فبعد ان كانت المرأة فى العصور الماضية ذليلة حقيرة تافهة رفع شأنهـا وبواها مكانتها اللائقة بها كانسان .

السبيل الثانى : من وسائل ابطال الرق بانواعه المختلفة وصوره المتعددة ، وقد افاضت الشريعة الاسلامية فى هذين السبيلين افاضة واسعة لا حد لها .

مصادر التشريع الاسلامى :

قال الله تعالى :

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحـق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » (105) .

« وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » .

المصدر الاول للتشريـع الاسلامى هو القرآن الكريم : الذى ثبت قطعيا انه كتاب الله تعالى انزله على نبيه محمـد صلى الله عليه وسلم ليهدى الناس الى اقوم طريق باطاعة أوامره واجتنـاب نواهيه : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** » .

انه منبع الهداية ، وموئل الحكمة : « فيه نبأ ما كان قبلكم وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومـن ابتغى الهدى فى غيره اضله الله ، وهو

حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هـــو الـــذى لا تزيغ به الاهـــواء ، ولا تلتبس بـــه الالسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا **«انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد»** من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه فقد هدى الى صراط مستقيم » ٠

وكل آيات هذا الكتاب، بل كل كلمة من كلماته ايضاح وبيان، وعلم ومعرفة، وثقافة وتهذيب ، ونظام وقانون وحجة وبرهان وحكمة ونصيحة ، ودواء وشفاء ، وأدب وتـربية ، وتعليم وتوجيه ، وهـداية ورشاد ٠٠

لـم يـكد يبسط ظلـه على الارض ، ويدوى بصوته بين الناس حتى استقبلوه بلهفـة ، وعانقوه بشـوق ، وقـــراوه بخشوع ودرسوه بامعان ، وتأملوه بجد وتفهموه بعمق ، وجعلوه الاليف الانيس والنـاصح المخلص ، والاستاذ المـربى والمنار الهادى ، والدستور الحـــق ، والطبيب المعالج ، والحكم فى الصغـيرة والكبيرة ، فكان ان وصل ما بينهم وبين أنفسهم ، وربط ما بينهم وبين خالقهم ، ورســم لهـم معـالم الحيـاة الكريمة وحدودها ، وهداهم الى طريق القـويم طريق السعادة فى الدنيا وفى الآخرة ، وجعلهم **«خير امة اخرجت للناس»** (106)

فلم تمض الا مـدة قصيرة حتى كان منهم « قادة الامم ، وفلاسفة الاجتماع ، واقطاب السياسة ، واساتذة العمران واعلام الشريعة ، واساطين البيان » ٠

وظـل القـرآن الكريم منبـعا فياضا تتدفق منه المعرفة والهداية ، والعـــلم والحكمة ، وسيظل كذلك مـــدى عمر الحياة يحكم ويهدى ، ويعلـم ويهذب ، ويؤدب ويثقف ويوصى وينصح ، ويعظ ويرشد ، ويرسم ويخطط ٠

قـال أبـو اسحـاق الشـاطبى فى الموافقات :

« والقرآن هو كلية الشريعة وعمـدة الملـة ، وينبوع الحكمة وايـة الرسالة ونور الابصار ، والبصائر ، وانه لا طريق الى الله سواه ولا نجاة بغيره ولا تمسك بشىء يخالفه » (107) ٠

وقال أيضا :

« فكتاب اللـه هو أصل الاصول ، والغاية التى لا تنتهى اليها انظار النظار ومدارك أهـل الاجتهـاد وليس وراءه مرمى لانه كلام الله القديم **وان الى ربك المنتهى** وقد قال تعالى : **« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة**

وبشرى للمسلمين » وقال : « **ما فرطنا في الكتاب من شيء** » .

وقال الامام الشافعي رحمه الله في « الرسالة » ليست تنزل باحد من أهل دين الله ، نازلة الا وفي كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى فيها (108)

وقد أتى القرآن الكريم بقواعد كلية وأحكام عامة ، وبلغت آيات الاحكام (120) آية ومعلوم ان الرسول صلى الله عليه وسلم أقام بمكة نحو ثلاث عشرة سنة ، ثم أقام بالمدينة نحو عشر سنين وهذا العصر الذي عاشه بعد الهجرة هو عصر التشريع حقا ففيه كان ينزل القرآن بالاحكام .

والمتتبع للآيات المكية يتبين له انها لا تتعرض للتشريع بل تقتصر على بيان أصول الدين والدعوة اليها كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والامر بمكارم الاخلاق كالعدل والاحسان ، والوفاء بالوعد ، واخذ العفو والخوف من الله وحده ، والنهي عن مساوىء الاخلاق كالزنا ، والقتل ، ووأد البنات والتطفيف في الكيل والميزان ولعل أوضح ما يبين التعاليم التي كان يدعو اليها القرآن في مكة سورة الانعام .

اما التشريع في الامور المدنية من بيع واجارة وربا وغير ذلك والجنائية من قتل وسرقة ، والاحوال الشخصية من زواج وطلاق فكل ذلك كان بعد الهجرة النبوية الى المدينة (109) .

المصدر الثاني للتشريع (السنة النبوية)

والسنة في مقام التشريع يراد بها ما يشمل من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله وتقريراته وليس ذلك لقصور في القرآن الكريم تداركته السنة ، ولا لغموض كشفته ، ولا لمغلق فتحته ، وانما لان أحكام القرآن قد تكون كلية تحتاج الى تفصيل أو عامة تحتاج الى تخصيص ، فمهمة السنة انها توضح القرآن الكريم وتشرحه .

فالاحكام التي توجد في الاحاديث الصحيحة مأخوذة من القرآن الكريم ، وقد بلغت أحاديث الاحكام في السنة ما يقرب من (500) حديث استنبطها الرسول صلى الله عليه وسلم منه بتأييد الهي ، وهذا الاستنباط يسمى في اصطلاح القرآن تارة (تبيينا) وتارة (ازاءة) قال الله تعالى :

« **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون** » (110) وقال : « **انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما** » (111) .

كما ان السنة أيضا تستقل بتشريع الاحكام وتنص على تحليل الحلال وتحريم الحرام مما لم يرد له فى القرآن نص .

وقد يكون شرح السنة للقرآن بمثال من أفعاله صلى الله عليه وسلم ففى الصلاة مثلا شرح النبى طريقة اقامتها وبين عدد ركعاتها وعين الوقت الصحيح وقال بعد ان بين كيفيتها « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

وتوضأ أمام أصحابه ليعلمهم الوضوء الشرعى الصحيح ثم قال :

« هذا وضوئى ووضوء الانبياء من قبلى فمن زاد على ذلك أو نقص فقد أساء وتعدى وظلم .. » .

اما تقريراته فهى ان يرى المسلم يفعل شيئا فيسكت عنه أو يقع الفعل فى عصره ويبلغه فيسكت عنه كذلك .. وكذلك يسمع الكلام أو يبلغه فيسكت عنه فيكون سكوته عنه مقررا للفعل ومجوزا له .

مثال ذلك : ما جاء عن عمرو ابن العاص انه كان فى سرية فاصابته جنابة فى ليلة شديدة البرد ، فلم يستطع ان يغتسل فصلى باصحابه فلما رجعوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم شكوا اليه فقال : يا عمرو اصليت باصحابك وانت جنب ؟ فقال يا رسول الله : الله يقول :

« ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » .

ومن السنة الحديث القدسى وهو كالقرآن من حيث كونه لفظا ومعنى من الله تعالى الا انه يخالفه فى انه لا يصلى به ، وفى انه أيضا للترغيب والترهيب، والوعظ والارشاد لا لتشريع الاحكام .

وهذه الثلاثة (القرآن الكريم ، والحديث القدسى ، والسنة النبوية) تتلاقى كلها عند مصدر واحد وهى انها من عند الله تعالى قال تعالى : **« وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى »** .

وقد ضل قوم انكروا السنة وقالوا حسبنا القرآن فى تشريعه كفاية ، وفى أحكامه ثروة ، وفى آياته نور وهداية ، وهم فى ذلك مخطئون لم يسمعوا قول الله تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » (112) .

قال العلماء فى تأويل هذه الآية : ما أمركم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من طاعة الله فافعلوه وما نهاكم عنه من معصية الله فاجتنبوه » .

وقال القرطبي قال المهدوي في قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول الى آخر الآية » هذا يوجب ان ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى ، والآية وان كانت في الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها ٠

وقال القرطبي أيضا : وقال الحكم ابن عمير : « قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان هذا القرآن صعب مستصعب ، وهو الحكم فمن استمسك بحديثي وحفظه فجامع القرآن ، ومن تهاون بالقرآن خسر الدنيا والآخرة ، وأمرتكم ان تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتبعوا سنتي ، فمن رضى بقولي فقد رضى بالقرآن ومن استهزأ بقولي فقد استهزأ بالقرآن قال تعالى : « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » (113) ٠

وكان الراسخون في العلم من الصحابة يفهمون عموم الآية في كل ما أمر به أو نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

المصدر الثالث : (الاجماع) ٠

لما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى واتسع العالم الاسلامي بالفتوحات أصبح المسلمون يواجهون قضايا جديدة ، وحوادث مختلفة يحتاجون فيها الى تشريع صريح وواضح يلبي الحاجات وكان مدار الفتوى عندهم على القرآن الكريم ثم على السنة النبوية فاذا لم يجدوا حلا لقضاياهم في هذين المصدرين نظروا في الامر واجتهدوا وتشاوروا حتى يجمعوا أمرهم على حكم متصل الاسباب بالقرآن والسنة ويكون مثل هذا الاجتهاد مصدرا من مصادر التشريع الاسلامي ٠ وهو كما ترى عبارة عن اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على حكم شرعي ٠ وقد بلغ عدد المجتهدين من الصحابة (130) مجتهدا من اشهرهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم اجمعين ٠

اما المجتهدون من التابعين وغيرهم فاكثر من ان يحصوا عددا لهذا كثرت المذاهب في صدر الاسلام وما يليه ولكنها اختفت جميعها وانقرضت واشهر ما بقي منها متبعا بين الامم الاسلامية أربعة :

مذهب مالك ، ومذهب أبي حنيفة ، ومذهب الشافعي ، ومذهب احمد ابن حنبل ٠

والجدير بالملاحظة ان باب الاجتهاد فى الاسلام مفتوح فى كل عصر من عصور التاريخ واذا توقفت حركت الاجتهاد أصيب الفكر الاسلامى بالجمود والضعف والشلل ولذلك يقول الامام السيوطى رحمه الله : « ان الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفايات وانه لا يجوز شرعا اخلاء العصر منه » ٠

المصدر الرابع : (القياس) ٠

القياس ان يعوز المجتهد حكم فى قضية أو مسالة او حادثة فيعمد الى مسألة ثبت حكمها بنص قاطع لا يحتمل التأويل فيثبت حكمها لتلك التى اعوزه الحكم فيها ما دامت العلة فيهما واحدة٠

وعرف علماء التشريع بقولهم : « الحاق حكم أمر مجهول بحكم أمر معلوم لعلة مشتركة بينهما » ٠

ومثلو له بالخمر التى ثبت تحريمها بنص قطعى : «**فاجتنبوه لعلكم تفلحون**» لعلة الاسكار فاذا ما توفرت هذه العلة فى أى مشروب فانه يلحق بالخمر ٠

وقد ثبت القياس بالكتاب والسنة :

اما الكتاب فقوله تعالى : « **فاعتبروا يا أولى الابصار** » والاعتبار هو النظر فيما قام من الوقائع أو فيما هو قائم ليتوصل بهذا النظر الى حكم شبيهه فيما يقع ، وهذا هو القياس » ٠

واما السنة فحديث معاذ بن جبل رضى الله عنه حينما بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم قاضيا الى اليمن وقال له : (بم تقضى ان عرض لك قضاء ؟) قال : بكتاب الله ٠ قال : « فان لم تجد فى كتاب الله ؟) قال : فبسنة رسول الله ٠ قال : (فان لم تجد فى سنة رسول الله ؟) قال : اجتهد رأيى ٠

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر معاذ وقال : (الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله) (114) ٠

ولقد وضع نواة القياس عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وذلك عندما قال لابى موسى الاشعرى : (اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عندك) ٠

اما عصر النبى فلم تكن فيه الحاجة ماسة الى القياس والوحى يتنزل والنبى صلى الله عليه وسلم بين اظهر المؤمنين يعلمهم ويرشدهم ويوجههم ، فهو اذن جدير بان يسمى « عصر الوحى » ٠

« مصادر أخرى للتشريع » :

اتفق جمهور المسلمين على المصادر الاربعة المذكورة « الكتاب ، السنة ، الاجماع، القياس » وتعتبر المنابع الاولية والاسس الاصلية للتشريع الاسلامى ٠

وهذا لا يمنع من ان نقول ان كل مصادر التشريع ترجع فى واقع الامر وحقيقته الى أصل واحد هو القرآن الكريم لانه الدستور الجامع والكتاب الالهى المنقول الى الامة بالتواتر القاطع جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر ، محفوظا من التبديل والتغيير ، مصونا عن النقص والتحريف ٠

وترجع السنة النبوية فى التشريع الى القرآن الكريم باعتبارها مبينة لمقاصده ، ومقرره لاحكامه ، وموضحة لمعانيه وتأتى بعد ذلك مرتبة الاجتهاد واستنباط الاحكام من تلك الاصول ٠

وهناك مصادر أخرى للتشريع غير الاربعة المذكورة وهى :

(البراءة الاصلية ـ المصالح المرسلة ـ العرف والعادة ـ الاستحسان ـ سد الذرائع) ٠

البراءة الاصلية :

ويعبر عن هذا باستصحاب الاصل قبل ورود الشرع ، ومعناه الرجوع بالاشياء الى الحالة المتيقنة التى ثبتت لها قبل الشك ، وهو مظهر من مظاهر اليسر والسماحة فى الاسلام ، وهذا ما يعنيه الاصوليون (بالبراءة الاصلية) أى براءة الذمة ٠

قال الامام القرافى فى شرح البراءة الاصلية :

(أى العمل بمقتضى الاصل قبل ورود الشرع بالتحليل والتحريم) لان الاصل فى الاشياء قبل ورود الشرع عدم الحظر أو الطلب والاصل في الاشياء الاباحة قال الله تعالى :

« هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا » ٠

ومثال ذلك أن يتوضأ المسلم ثم يساوره شك هل أحدث ؟ فان هذا الشك لا يؤثر فى اليقين ٠

المصالح المرسلة :

وفسر الاصوليون هذا الاصل بالمصلحة التى لم يشهد لها الشرع باعتبار ، ولا الغاء وهى مصلحة تحقق منفعة خالصة ويخصص بها عموم النص٠

ولائمة الاصول أمثلة لذلك كثيرة فمنها عند مالك قوله فى المرأة ذات الحسب التى نشأت فى دعة ورفاهية ونعمة : (انها لا تلزم بارضاع ولدها) وخصص بذلك من نظره عموم القرآن فى قوله تعالى :

« والوالدات يرضعن أولادهن » ٠

قال القاضى أبو بكر بن العربى :

ولمالك فى المرأة الشريفة رأى خصص به الآية فقال :

(انها لا ترضع ، وهذا من باب المصلحة المرسلة ، ثم قال ابن العربى : قال مالك : كل أم يلزمها رضاع ولدها بما أخبر الله به من حكم الشريعة فيها ، الا أن مالكا دون فقهاء الامصار استثنى الحسيبة فقال :

لا يلزمها رضاعه • فأخرجها من الآية وخصها فيها بأصل من أصول الفقه ، وهو العمل بالمصلحة ، والاصل البديع فيه هو ان هذا الامر كان فى الجاهلية فى ذوى الحسب ، وجاء الاسلام فلم يغيره ، وتمادى ذوو الثروة والاحساب على تفريغ الامهات للمتعة بدفع الرضعاء الى المراضع الى زمان مالك ، فقال به والى زماننا فحققناه شرعا) (115) •

وقال القرافى :

(ان المصلحة المرسلة موجودة فى جميع المذاهب عند التحقيق لانهم يقيسون ويفرقون بالمناسبات ولا يطلبون شاهدا بالاعتبار) •

العرف والعادة :

اعتبار العرف والعادة من القواعد الاصولية شائع مشهور بين العلماء •

قال ابن نجيم :

(الاحكام تبنى على العرف فيعتبر فى كل عصر عرف أهله) •

وقال ابن العربى :

(العادة دليل أصولى بنيت عليه الاحكام وربط به الحلال والحرام) •

واشتهرت من أقوال الفقهاء قولهم : (العادة محكمة) وقولهم : (الثابت بالعرف كالثابت بالنص) •

وقال القرافى فى قواعده :

(ان الاحكام تجرى مع العرف والعادة وينتقل الفقيه بانتقالها) •

والعرف المعتبر عند الاصوليين هو الذى لا يخالف دليلا أو أصلا من أصول التشريع الاسلامى ومن أمثلة ذلك :

(مسألة الكفاءة بين الزوجين ، ومسألة النفقة التى يرجع فيها الى العادة والعرف) •••

الضرر يزال :

وهو مستمد من قول النبى صلى الله عليه وسلم : (لا ضرر ولا ضرار) •

ومن أمثلة ذلك نزع ملكية خاصة لنفع عام ، وقد نزع الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بعض املاك الصحابة لتوسيع المسجد الحرام •

الاستحسان :

وهذا الاصل مختلف فيه اختلافا كبيرا فمنهم من أقره ومنهم من أنكره كابن الحاجب الاصولى المالكى المشهور ، وهو أيضا نوع من المصلحة وقد مثلوا

له (بالسلم الذى هو بيـــع معـدوم بموجود) فان القياس يأباه ولكـــن المصلحة لما دفعت اليه والحاجة قد حملت عليه جوزه الفقهاء ٠

ســد الذرائـع :

الذرائع جمع ذريعة وهى الوسيلـة لشىء ، ومعناها غلق أبواب الشر ، وسد الفساد ، صونا للمصلحة وجلبا للمنفعة، وضمانا للخير ٠ وبعبارة أخرى ســد الذرائـع هو اعطاء المباح حكم الحـرام اذا افضى اليه وحمل عليـــه وذلك ، كالدلالة على انسان ليقتلــه الظالـم وكمناولة السكين لمن يسفك بها دمـــا حراما، وهكذا تأخذ الوسيلة حكم الغاية٠

فكما ان وسيلة المحرم محرمـــة ، فوسيلة الواجب واجبة ٠٠٠

أنواع التشريع الاسلامى :

قال الله تعالى : **« ما فرطنــا فى الكتاب من شىء » (116) ٠**

يمتاز التشريع الاسلامى بالشمـول من جميع الوجوه :

أولا الشمول الانسانى :

فليس فى الارض صنف من البشر ذكرا كان أو أنثى ، طفلا كان أو شابا أو شيخا ، مسلما او غير مسلم الا وسعه التشريع الاسلامى بمبادئه واحكامه فى جميع الظروف والاحوال من المهـــد الى اللحد ، بل من قبل خلقه ، حيث يعنى التشريع بشرف التربة التى ينشأ فيها فحرم الزنا ، حتى تتوافر له قبل ان ينزل الى هذا الوجود أسرة ترعاه ، وأبوة تحوطه ، وأصل يمتد به نسبه وجو يليق به كانسان خلق لرسالة هامة فى هذه الحياة ٠

ثانيا الشمول المكانى :

فليس فى الارض بلد فى أى ناحية من نواحى المعمورة مسلما كان او غـير مسلم ، مهما كانت أوضاعه ، وظروفه ، وأحواله ، وطبيعة جوه وطقسه الا وسعه التشريع الاسلامى ٠

ثالثا الشمول الزمانى :

فمنذ خمسة عشر قـــرنا من عمـر الانسان وفى أية ساعة من ساعات الليل والنهار ، وفى أى فصل من فصــول الزمان المختلفة ، والتشريع الاســلامى قائم ساهر ، يقضى ويفصل ، ويداوى ، ويشفى ٠ ويعالج ويصلح ٠

رابعا الشمول الحكمى :

فما من حادثة أو قضية أو مسالـة الا وفى التشريع الاسلامى علاجها ، فاذا كانت الحياة فى تجدد دائم ، وتطـــور مستمر ، وفى تجددها وتطورها احداث

وقضايا ، وتغـــيرات وتحــولات فان التشريع الاسلامى فى مواكبة كاملـــة للحياة ، يراقبها ، ويرعاها ، ويسهـــر على شؤونها .

أنواع التشريع القرآنى :

وأنواع التشريع القرآنى ، الذى هو مصدر التشريع الاسلامى بكل أصوله ، هى هذه :

التشريع الاجتماعى :

وهو فى الآيات التى توجب الزكاة واخراجها لمستحقيها مثل قوله تعالى :

« **انما الصدقات للفقراء والمساكـين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهـــم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيـــل اللــه وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** » (117) .

وقوله تعـــالى : « **يسالونك مـــاذا ينفقون قل ما انفقتم من خير فللوالدين والاقربـــين واليتـــامى والمساكـــين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فـان الله به عليم** » (118) .

التشريع السياسى :

وهو فى الآيات التى توجب الطاعة لاولياء الامور والوفاء بالعهود والمواثيق مثل قوله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تاويلا** » (119) .

وقوله تعالى :

« **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتـــم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقـد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلـم ما تفعلون** » (120) .

التشريع الجنائى :

وهو ما جاء فى الآيات للحـــدود والقصاص مثل قوله تعالى :

« **وكتبنا عليهـــم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجـروح قصاص** » (121) .

التشريع المـدنى :

وهـــو ما تكفلت به آيات الربـــا والميراث ... الخ . وأشار اليه مثل قوله تعالى :

« **وما آتيتم من ربا لتربوا فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هـــم المضعفون** » (122) .

وقوله تعالى :

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » (123) •

وقوله تعالى :

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثين ، فان كن نساء فوق اثنين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث فان كان له اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وابناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما ، ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين • ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين • وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس • فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم » (124)

التشريع الحربى :

وهذا فى الآيات التى تؤذن بالقتال وتشير بالسلم وتبين معاملة الاسرى وتوزيع الفيء وتخطط للقتال وترسم له طريق النصر كقوله تعالى :

« اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » (125) •

وقوله تعالى :

«واماتخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين • ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم • وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (126) •

وقوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون • واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين» (127)•

ذلك ـ عزيزى القارىء ـ موجز عن التشريع الاسلامى الذى من الله به على الانسانية لتسير على هـداه فتستقيم شؤونها ٠ وتنتظم حياتها ، ويعلو شأنها وتأخذ مكانة القائد الموجه بين الامم ٠

وقد سار على هداه المسلمون الاولون بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم بقيادة الخلفاء الراشدين من بعده ، وقيادة عظماء الاسلام فى عصره الزاهر، امثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص فكانت أسرهم خير لبنات فى المجتمـع الاسـلامى وكان مجتمعهم أفضل مجتمع على وجه الارض بفضل هذا التشريع السماوى الخالد ٠ حتى قال العالـم الانجليزى الكبـير (جونسون) :

(اننا نرى اخواننا المسلمين مولعين بالوقوف على عاداتنا وأحوالنا ، ويسعون فى تقليدنا ، ولكننا نحن الذين يجب علينا أن نأخذ عنهم ، ونتعلم منهـم ، فهم أصحاب التعاليم الحكيمة ، وهـم المقدمون علينا فى الهداية ، وهم أصحاب علم الالهيات ، وعلم التشريع فى العالم المتدين بأسره ، وان لهم الصنيع الجميل على تقدم المدنية الغربية ، ومن الواجب على أهل المملكة الانجليزية ان يقتفوا آثارهم ، ويسعوا فى دفـع الاباطيـل المنتشرة بين عامتنا عن دينهم وعاداتهم منذ القرن الرابع عشر ، وان يراعـوا احترام شريعتهم وكتبهم المقدسة ، ولو أننا تبصرنا من قبل أحوالهم وشرائعهم باخلاص لما وجد بيننا محل للنـزاع فى فضائلهم وآدابهم وسمو تشريعهم) (128)

تأمل جيـدا كلمـة هـذا العالـم المنصف ٠٠٠ انه لم يصدع بها شهـادة للحق واشادة به الا بدافع من الاعجاب بهذا التشريع السماوى الذى طبقـه المسلمون فى مختلف مجالات الحيـاة فارتقوا الى أعلى المستويات اجتماعيـا ، واخلاقيا ، وسياسيا ، واقتصاديا ٠

واذا كان الجهلة من المسلمـين ، وانصاف المتعلمـين منهـم ، وبعض المثقفين الذين درسوا دراسات مدنيـة ولم يأخذوا من الدين بنصيب يزعمون ان الشريعة الاسلامية قد مضى وقتها أو أنها لا تطاوع الحوادث ، ولا تسايـر المدنية ، ولا تجارى الزمان ، فان ذلـك لا ينال من الحقيقة شيئا، فشريعة الاسلام هى المثل الاعلى فى هذا العصر وفى كل عصر من عصور التاريخ لسائر النظـم الفاضلة والمدنيات الصحيحة ، سـواء ادركوا هذا أم لم يدركوه ٠

فان تقلص ظل الشريعة الاسلامية وتخلت عن مكانة الصدارة فى كثير من

البلاد الاسلامية ، فليس ذلك ذنبها ، أو لعيب فيها وانما ذلك لتقصير القائمين بها فى كمال تطبيقها ٠

فلنرفع الرأس عاليا فى اعتزاز ونخوة ٠ ولنقل للدنيا بأسرها ، وبملء أفواهنا :

هذه شريعتنا ، شريعة السماء ، شريعة الله القائمة على العدل والمساواة، والمحبة ، والرحمة ، والمادة ، والروح ٠

ان الفخر كل الفخر لقادة الاسلام السابقين وابطالهم الغابرين الذين احيوا بشريعة القرآن أمة ميتة ونفخوا فيها روحا جديدة فنهضت فى أمد وجيز ، وصنعت تاريخا لم يحلم به الفلاسفة والمصلحون وانها ـ أى الامة الاسلامية ـ لمدعوة الآن ان تعود الى هذه الشريعة التى جربها أوائلها ٠

(ولن يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها) ٠

هـوامـش :

(1) أبو عبيدة ٠
(2) نزهة القارىء ٠
(3) تفسير الالوسي ٠
(4) الراغب ٠
(5) المبرد ٠
(6) الشورى ـ آية 13 ٠
(7) هود ـ آية 118 ـ 119 ٠
(8) المائدة من آية 48 ٠
(9) تفسير المنار ٠
(10) فى ظلال القرآن للسيد قطب ٠
(11) بواء : أى سواء ٠
(12) أنظر الاسلام فى عصر العلم : فريد وجدى ٠
(13) أنظر (نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الاسلامى) ظافر القاسمى ٠
(14) انظر (المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام) للدكتور حواد على ج 5 ص 415
(15) نفس المصدر ، ج 5 ص 474 ٠

(16) الاحزاب ـ آية 19 ٠

(17) البقرة ـ الآيتان 204 ـ 205 ٠

(18) المنافقون ـ آية 4 ٠

(19) ابراهيم ـ آية 46 ٠

(20) الزخرف ـ آية 58 ٠

(21) الطور ـ آية 32 ٠

(22) الفجر ـ آيات 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20 ٠

(23) الحاقة ـ الآيات 33 ـ 37 ٠

(24) المطففين ـ آيات 1 ـ 6 ٠

(25) الزمر من آية 3 ٠

(26) الاسراء ـ آية 49 ٠

(27) الجاثية من آية 24 ٠

(28) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ، ص 56 ٠

(29) المصدر السابق ٠

(30) عن الحركات كأساس للحضارة ٠

(31) آل عمران من آية 110 ٠

(32) البقرة من آية 143 ٠

(33) فى ظل الاسلام ، تحت الطبع لمحمد الصالح الصديق ٠

(34) نوح آية 3 ٠

(35) هـود آية 50 ٠

(36) الصف آيـة 6 ٠

(37) الانبياء 107 ٠

(38) سبا آية 28 ٠

(39) يوسف 48 ٠

(40) الروم الآية 30 ٠

(41) البقرة الآية 138 ٠

(42) رواه البخارى ٠

(43) (الاسلام منهاج وسلوك) أحمد عبد الجواد الدومى ، ص 12 ٠

(44) نفس المصدر ٠
(45) نفس المصدر ٠
(46) البقرة الآية 143 ٠
(47) الرعد آيات 4/3/2 ٠
(48) طـه آية 14 ٠
(49) الاخلاص آيات 4/3/2/1 ٠
(50) الذاريات الآيتان 21/20 ٠
(51) الانبياء الآية 22 ٠
(52) المؤمنون الآية 91 ٠
(53) الروم الآية 21 ٠
(54) البقرة الآية 256 ٠
(55) يونس الآية 99 ٠
(56) الجمعة الآية 10 ٠
(57) الكهف الآية 46 ٠
(58) القصص آية 77 ٠
(59) البقرة آية 267 ٠
(60) الاعراف آية 32 ٠
(61) المائدة من آية 5 ٠
(62) الاعراف من آية 157 ٠
(63) البقرة من آية 222 ٠
(64) حديث شريف ٠
(65) رواه البخارى ومسلم ٠
(66) الاجتهاد والتجديد فى التشريع الاسلامى لجماعة من المؤلفين ص 26 ٠
(67) المائدة آية 6 ٠
(68) الحـج الآية 68 ٠
(69) البقرة من الآية 185 ٠
(70) النساء الآية 28 ٠
(71) الاحزاب ـ الآية 98 ٠

(72) الاعراف من آية 157 ·
(73) الانعام الآية 145 ·
(74) المائـدة الآية 33 ·
(75) المائدة الآية 38 ·
(76) الحجرات الآية 11 ·
(77) البقرة الآية 188 ·
(78) النساء الآية 5 ·
(79) البقرة الآية 282 ·
(80) اخرجه الامام أحمد ومسلم والاربعة من حديث طارق بن منهاب عن أبى سعيد ·
(81) القصص ـ الآية 77 ·
(82) النسـاء ـ الآية 134 ·
(83) المائدة الآية 8 ·
(84) النحل ـ الآية 98 ·
(85) الاسلام منهاج وسلوك ـ أحمد عبد الجواد الدومى ص 67 ·
(86) نفس المرجع · (87) نفس المرجع ص 68 ·
(89) مجلة (المسلمون) ابريل سنة 1958 ·
(90) الحــج الآيتان 78/77 ·
(91) المؤمنون الآيتان 118/117 ·
(92) النمل الآية 64 ·
(93) الانعام الآية 116 ·
(94) يونس الآية 36 ·
(95) الاسراء الآية 37 ·
(96) الحــج الآية 77 ·
(97) البقرة من الآية 257 ·
(98) آل عمران الآية 101 ·
(99) النحل الآية 97 ·
(100) الشمس الآيات 10/9/8/7 ·
(101) الاعلى الآيتان 15/14 ·
(102) العصر ـ الآيات 1 ـ 3 ·

(103) النازعات الآية 41 ·
(104) عن بحث للاستاذ مصطفى أحمد الزرقاء نشر بمجلة (المسلمون) 1957 ·
(105) النساء الآية 41 ·
(106) (107) (الموسوعة فى سماحة الاسلام) للصادق عرجون ج 1 ص 34 ·
(108) نفس المصدر ·
(109) فجر الاسلام ، أحمد أمين ص 228 ·
(110) النحل الآية 44 ·
(111) النساء الآية 105 ·
(112) الحشر الآية 7 ·
(113) انظر الموسوعة فى سماحة الاسلام ج 1 ص 99 ·
(114) انظر الموسوعة والموافقات للشاطبى ·
(115) انظر كتب الاصول ، الموافقات ـ الموسوعة ـ اعلام الموقعين ·
(116) الانعـام الآية 38 ·
(117) التوبة الآية 60 ·
(118) البقرة الآية 215 ·
(119) النساء الآية 59 ·
(120) النحل الآية 91 ·
(121) المائدة الآية 45 ·
(122 الروم الآية 39 ·
(123) البقرة الآية 276 ·
(124) النساء الآيتان 12/11 ·
(125) الحـج الآية 39 ·
(126) الانفال الآيات 61/58 ·
(127) الانفال الآيتان 46/45 ·
(128) عن (حكمة الاسلام) محمد أبو الفيض المنوطى ص 77 ·

ملاحظة : من مراجعنا أيضا فى هذا الموضوع :

البحر لابى حيان ، التفسير الكبير للرازى ، تفسير الطبرى ، صحيـح البخارى ، صحيح مسلم (الموسوعة فى سماحة الاسلام) للصادق عرجون ·

محمد الصالح الصديق

من وحي السماء



الجهـــاد فى القـــرآن

البسيونى قنعان

ـ عدو واحد ، وهدف واحد ، وان تعددت الوجوه والاساليب والمبررات .

ـ الاسلام أول تشريع جعل للمهزوم حقا ، وللقوة ضوابط ومعايير .

ـ العدو الظاهر كثيرا ما يكون مجرد قنـاع أو واجهة لاعـداء مختفين ... كيف عالج القرآن هذا ؟

ـ جميعية أبـى الحسن الشيبانى فى ألمانيا الاتحادية ... لماذا أسست ؟ وما مبادئها ؟

ـ ما ذكر القرآن النصر ، أو حرض عليه ، الا ذكر الصبر ... لماذا ؟

ـ لماذا انتصرنا على الصليبية قديما ، ولم نستطع ذلك حديثا ؟

ان أكثـر أحـلامى جنونـا ـ كمـا يقولون ـ ما كان يصور لى أننى سأرد الى الجزائر المجاهدة بعد تحررها اكتب فى احدى صحفها الدينية باللغة العربية التى ظن الاعداء أنهم قد انتهوا منها ، وأن أتحدث عن الاسـلام والجهـاد فى القـرآن ، رغـم كـل ما فعلـه الاعداء لينتزعوه من القلوب والصدور ، ولكن لماذا لا أقول : ان ما حدث ويحدث على هذه الارض الطيبة من تحرر وازدهار ، ورجوع الى الاصالة والعقيدة هبة مـن هبات الجهاد ، وثمرة من ثمار الاسلام ، بهما تحقق وبدونهما لم يكن ليتحقق أو يكون ، فما اجدرنا أن يكون شعـارنا الدائم ، قول اللـه تعالى : « **ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة** » .

التحـدى الـدائم

فى القـرن الثانى عشر الميـلادى ، حينـما تمكنت القوات الصليبية مـن دخول بيت المقدس ، ذبحوا فى المساجد وغيرها سبعين ألفا من المسلمين ـ فيما يقول الرواة ، أرسل قـائد القوات الى البابا يقول له : « لك أن تفرح يا أبانا ، فان خيولنا تسبح فى بحر مـن دمـاء المسلمين ، أشكر الـرب ، وأطلب لـنا المغفرة » .

وفى العقد الثانى من القرن العشرين وقف الماريشال الانجليزى (اللبنى) قائد الجيوش التى دخلت مدينة القدس ، ليقول فى شماتة وحقد : « الآن انتهت الحروب الصليبية »

وبنفس الشماتة والحقد وضع القائد الفرنسى الذى دخل بجيوشه مدينة دمشق ـ فى نفس الفترة ـ قدمه على قبر صلاح الدين الايوبى قائلا : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » ٠

وفى خريف سنة 1956 حين تجمعت ثلاث دول : انجلترا وفرنسا واسرائيل لتضرب الاسلام والسلام فى مصر ، وقفت والدهشة تكاد تعقد لسانى ، وأنا أرى أن التاريخ يعيد نفسه ، فالعدو هو العدو ، والهدف هو الهدف ، ولم يتغير غير الوجوه، وغير الحجج والمبررات

جحافل البغى : هل ما زلت تبغينا ؟
أبو رسعيد أرى أم أرض حطينا ؟

وحقد (ايدن) يزجيها ، ويدفعها
أم حقد (ريتشارد) يدعوها لتغزونا ؟

(وجى موليه) يغالى فى رعونته
أم ذا (لويس) يسوق الحرب مفتونا ؟

باسم الصليب أتوا بالامس ما خجلوا
وروعوا الشرق من آثامهم حينا

واليوم من يا ترى جاءوا لنصرته ؟
وباسم من يا ترى؟ هل باسم صهيونا؟

انها معارك لا أول لها ولا آخر ، وانه عدو شرس ضار يتربص بنا أبدا ، وانها فتن كقطع الليل المظلم ، ما ان ننقضى فتنة حتى تعقبها فتنة أخرى ، وصدق الله العظيم ! اذ يقول : « **ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة** » نعم ميلة واحدة ، « **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى** » (2) ومهما حاولنا أن نبحث عن حل ، فلن نجد الحل فى غير الجهاد ٠٠ الجهاد أولا ٠٠٠ والجهاد أخيرا ٠٠٠ وهذا كل ما فى الامر ٠

معنى الجهاد

وللجهاد فى الاسلام معنيان : الجهاد بالمعنى العام وهو جهاد النفس ويسمونه الجهاد الاكبر ، وبالمعنى الخاص وهو : القتال وما يكتنفه ويحيط به من اعداد واستعداد ، ولن نستطيع بطبيعة الحال فى هذه المقالة الموجزة الا أن نتناول

---

(1) الآية 102 من سورة النساء ٠
(2) الآية 120 من سورة البقرة ٠

بعض الجوانب الخاصة بالجهاد بمعناه الخاص باختصار ·

اعـداد واستعـداد

ان الحرب لا تكون وليدة الساعة التى تعلن فيها ، أو يشتعل أوارها ، وانما هـى نتيجة اعداد واستعداد سابقين ، قد يكونان أشق من الحرب نفسها وأخطر فعلى قدر الاعداد والاستعداد يكون سير المعـارك ، ونتيجتها ، والاسلام ديـــن الفطرة يعتمد العقل والجهد الانسانى أساسا ، يأمر أتباعه بالاستعداد الدائم والاعداد المستمر ، قال اللـه تعـالى : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بـه عدو اللــه وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللـه يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيـل اللــه يـوف اليـكم وأنتـم لا تظلمون » (1) ·**

وبالتأمل قليلا فى هذه الآية نجد أن اللــه تعـالى أودع فيها من المعانى ما يجعلها وحدها دستورا خالـدا للاعداد المطلوب دائما ، والمفروض دائما ، بأدق عبارة ، وأبلغ بيان ، وقد عبر القرآن بقوله « **ما استطعتم** » ولم يقل مثلا كما يعدون لكم ، لانه لـو قال ذلك لقيـد جهدنا ، فقد نستطيع أكثر مـن ذلك ، واذن فنحـن مطالبـون بـما نستطيع ، وأيضا لو قال ذلك لشق علينا ، فقـد لا نستطيع الاعداد مثله ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وكذلك لو قال كـما يعدون لكم لترك لنا العذر فى الهروب ، وترك الاعداد والحرب اذا كان العـدو يستطيع أكثر ـ كما هـو حالنا هـذه الايام ـ كأن نقول : اذا كنا لا نستطيع الاعداد مثلـه فلماذا المحاولة ؟ ولمـاذا ندخل فى أمر نعلم سلفا أننا لا نستطيعه ولا نقدر عليه ؟ ألا يسعنا قول الشاعر :

اذا لـم تستطـع شيـئا فـــدعه
وجـــاوزه الى مـــا تستــطيـع

ومن هنا فما أبلغ القرآن وأدقه حـين يقول : ما استطعتم ، والله تعالى كفيل بأن يجبر النقص اذا عوضناه بايماننا الذى يفعل المعجزات ·

ثم يقول « من قوة » فيترك القوة نكرة مجهولة الحدود ، ليتـرك للخيـال أن يسبح فى حدودها ، ويترك للزمان أن يصنفها ، فان القـوة تختلف باختـلاف الزمان ، وقد تختلف فى الزمان الواحد باختلاف المكان أيضا ·· ثم يخص رباط الخيل ، فقد كانت الخيول فى عصرها تمثل عصب الجيوش ، وقوتها الضاغطة كالدبابات والمدرعات فى عصرنا الحاضر

---

(1) الآية 60 من سورة الانفال ·

ثم يقول : « **ترهبون بـه عدو اللـه وعدوكم** » فالمطلوب منا أن ندخل الرهبة والرعب فى قلـوب الاعـداء ، بحيـث لا يقدمون على حربنا وهم يعلمون أنهم ذاهبون الى نــزهة ، أو صائرون الى انتصار محقق ، فكلما استطعنا اقنـــاع العـدو بأن اعتـداءه علينا أو محاولته شيء فـوق طاقته ، وخطـر لا يستطيع الخروج منه ، فان هذا فى صف السلام ومن أقوى دعائمه ، فان العدو فى هذه الحالة سوف يـؤثر التريث ، ويتجنب الاندفاع ، ويحضرنى فى هذه المناسبة قول خبـير بريطانى فى الحرب عندما اثيرت فى مجلس العموم البريطانى من سنوات قليلة مسألة انسحاب بريطانيا مـما كـانوا يسمونه « محميات الخليج العربى » اذ قال بعضهم : « لماذا ننسحب وعندنا من القوة ما يكفى لهزيمة الاعداء؟ فتصدى لـه الخبير قائـلا : « ان ذلـك لا يكفى ، وانما المطلوب أن تكون لنا قوة فـوق ذلك ، بحيث لا يفكـر أحـد فى الاقتراب منها ، أو محاولة الاقتراب ٠

ولكن ، أى عدو نعد له ؟ هل هـو عدونا الظاهر ؟ لقد علمتنا الايـام أن العدو الظاهر ليس كل شيء ، وانمـا قد يكون فى كثير من الاحيان مجـــرد واجهة أو قناع لاعداء يختفون خلفـــه ، اشد منه ضراوة ، وأبلغ خطرا ، وعـلى سبيل المثال فان تجاربنا مع عـــدونا الصهيونى تعلمنا أنه مجرد واجهة لاعداء أشد خطرا وأقوى ، والقرآن يعلمنا ان نكون أبعد نظرا ، وأكثر حذرا، فيقول : « **وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللـه يعلمهم** » ٠

ثم يختتم الله الآية بطلب الانفاق : « **وما تنفقوا من شيء فى سبيل اللـه يوف اليكم وأنتم لا تظلمون** » فلابد من الانفاق ، وقد يكون مالا أو جهـدا أو غير ذلك ، ومن هنا قال « **من شيء** » وأى أمر أولى بأن ننفق فيه المال والجهـــد والنفس والنفيس من اعداد نصون به الحرية والعقيدة ، لنعيش كراما أعزاء ٠

الاسلام دين السلام

بديهى أن طلب الاعداد والاستعداد للاعداء لا يعنى أن الاسلام دين حـرب أكثر منه دين سلام ، وأنه يجهز للاعتداء والبغى ، فحاشا لدين الله أن يكـــون كذلك ، فان الاعداء من جانب المؤمنـين ليس فى صالح الحرب ، وانمـا فـى صالح السلام ، فلا شيء يدفع الاعداء الى العدوان ، ويفتح شهيتهم للحرب ، مثل أن يرونا ضعافا يسهل تحدينـا ، وغافلين يسهل اقتلاعنا ، ولقمة سائغة يسهل ابتلاعنا ، نعم كم من اعـــداد واستعداد لحرب منعت الحرب نفسها ،

وقد قرأت لمعلق غربى ساخر، يقول كلاما لا يخلو من سخرية ، وفى نفس الوقت لا يخلو من مغـزى ، ومعنى ، ويقـول المعلق : « ان الدول الضعيفـــة هـى المسؤولة عن الحرب ، لانها هى الـتى تحرك القوى وتطمعه فى حربها » .

ولما كانت دعوات السلام من جانبنا لا تعنى ذلك من جانب الاعداء فمـــن يطالبنا بان نقف مكتوفى الايدى أمام أعداء يجهزون للاجهاز علينا ؟ أو يطالبنا بالغفلة أمام أعداء لا يغفلون ؟

والشر ان تلقه بالخـــير ضقت بـه
ذرعا ، وان تلقـه بالشر ينحســـم

ان الانسان هو الانسان ، مهما ادعى وقال ، تدفعه غرائـــزه الى الحـــرب ، وتدعوه أطماعه الى العدوان ، وها نحن أولاء نعيش عصرا يدعى فيه المدعون ، حتى اننا لو وزنا الكلام عن السلام فى عصرنا هذا لرجحت كفتها كل ما قيل فى جميع العصور السابقة ، ولقد أنشأ المجتمع الدولى هيئة الامم المتحـــــدة ، وقبلها عصبة الامم ، فهل انتهى الاعتداء ؟ وهل انقضت الحرب ؟ فلماذا يراد منا نحن المسلمين ان نقف وحدنا لنشحذ السلام من الاقوياء ، ولنركع فى خضوع أمام بطش الباطشين ، وطمع الطامعـين، والا فنحن متهمون بتعكير صفو العالم ، وقصم ظهر السلام ؟

دعاوى مضللة

وانه لامر يدعو للاسف والسخرية أن يقف أعداء الاسلام والمسلمـــون ــ وبخاصة من المستشرقين الذين تحولوا فى بعض العصور الى خدمة الاستعمار وهدم الاسلام ــ ليقولوا فى خبث : ان الاسلام دين حرب ، وأنه نشر بحـــد السيف، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم على عكس الانبياء السابقين بعث لسفك الدماء ، وقتل الناس ، الى آخر هذه الدعاوى المضللة ، وقد نسى هؤلاء أو تناسوا أن دولهم وليس غيرها هى التى تضرب المسلمين فى أشد الاماكن ايلاما، وأن دولهم وحكوماتهم كانت وما تـزال المتاجرة بالسلام وبالدماء ، وباقـــوات الامم وبحرياتها ، ان هؤلاء الخبثـــاء يريدون أن يخـــدعونا بدعاواهـــم ، ويوهمونا أن الاعداد والاستعداد شيء غير جائز ، وغير حسن ، لنغفل عـــن أسلحتنا ، فتكون نهايتنا .

لقد نسى هؤلاء الخبثاء أن الاسلام فى طريقه الطويل لم يدخل معركـــة الا مضطرا اليها ، ولم يحارب الا دفاعا ، وأن الاسلام الذى فرض الاعداد الدائم، والاستعداد المستمر ، لم يجعل الحرب كذلك ، وليس من قبيل المصادفة أن تلى آيـــة « **واعدوا لهم ما استطعتم** » آية تقول : « **وان جنحوا للسلم فاجنح**

لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » واذن فعلى المؤمن أن يلبى دعوة السلام اذا لم يكن فيها مساس بالحقوق الدينية أو الانسانية ، يقول القرآن هذا الى حد أنه لم يجعل خوفنا من حذر العدو وخداعه ذريعة لرفض السلام ، قال تعالى : **« وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين »** وقد نهانا رسول الاسلام حتى عن تمنى لقاء العدو ، فيقول ـ ما معناه ـ (لا تتمنوا لقاء العدو ، ولكن اذا لقيتموه فاثبتوا) ، والاسلام لم يشرع الحرب لفرض الاسلام على الكافرين ، يقول الله تعالى : **« لا اكراه فى الدين »** ولعمرى اذا لم يكن هناك اكراه فى الدين، فهل نتصور اكراهافىظل الاسلام فى غيره ؟ لقد رسم الاسلام طريق الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

كيف نظر الاسلام الى الحرب ؟

أما الحرب وهى أقسى العنف الانسانى فقد نظر اليها الاسلام على أنها شر تجعله الضرورة أحيانا لابد منه ولا مفر ، ولله در شوقى اذ يقول مخاطبا الرسول (ص) :

الحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

تكون الحرب دفاعا عن دين أو وطن أو مبدأ أو حرية وما الى ذلك من الحقوق الانسانية المشروعة للانسان ، اذا تعرضت لبغى الباغين ، أو اعتداء المعتدين « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها أسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » (1) .**

والحرب بهذا المعنى واجبة على المسلم القادر ، ينال بها رضا الله ، يعيش فى ظلها عزيزا ، أو يموت تحت لوائها كريما مخلدا « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » (2) .**

ولقد نظر الاسلام الى الجهاد على أنه رأس الامر وذروته كما يقول الرسول ،

---

(1) الآيتان 39/40 من سورة الحج .
(2) الآية 170 من سورة آل عمران .

والى المجاهد على أنه من أسمى الناس وأعلاهم قدرا ، والى الشهادة على أنها أعلى وأسمى ما يناله المؤمن ، والى الشهيد على أنه فى قمة درجات الانسانية والطهارة ، وأنه مخلد فى الجنة « **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما** » (1) .

والحرب بهذا المعنى ليست قصرا على الاسلام وحده ، بل هى فى المسيحية واليهودية ، وغيرهما ، ولنستمع الى قوله تعالى : « **ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم**» (2).

الرحمة حتى فى الحرب

فاذا فرضت علينا الحرب ... فأى حرب : وضعها ؟ ان الاسلام لم تزايله نزعته الانسانية فى أعلى صورها ، ورحمته التى لا حد لها حتى فى الحرب، أقصى العنف الانسانى ، فننظر الى الحرب وكأنها عملية جراحية تجرى لصلاح المجتمع الانسانى اذا لم يكن من ذلك بد ، بأقل التكاليف ، وأقل الضحايا ، وفى حدود الضرورة القصوى ، فلا نلجأ الى درجة من العنف اذا صلح الامر بأقل منها ، ولا نبتر عضوا اذا استطعنا اصلاحه وعلاجه ، لا نقتل النساء ، ولا الاطفال ، ولا الشيوخ ، ولا الذى يغلق عليه داره ، ولا الذى لا يتصدى لنا ولا يحاربنا ، فقط لا يحارب الا المحارب ، من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ .

ثم انها حرب من طرف مؤمنين يعرفون أن النصر من عند الله ، وأن الله لا يدرك ما عنده بسخطه ، وأن الاخلاق هى عماد قوة المحارب وعدته، وأن ذنوب الجيش أخطر عليه من عدوه، فلم يحدث فى حرب اسلامية ان أباح المسلمون مدينة بعد فتحها لسلب أو نهب أو هتك عرض ، كما هو شائع الآن وملازم للحروب فى عصر يدعى أبناؤه منتهى التمدين والتحضر .

ولئن كان المسيطر الآن وقبل الآن على قانون الحرب هو القوة ، فالقوى هو الذى يبدأ الحرب،ويسير بها وينهيها

---

(1) الآية 95 من سورة النساء .
(2) الآية 112 من سورة التوبة .

وفق هواه ، وما يراه ، والضعيف لا حق له ، فان الاسلام هو أول تشريع جعل للمهزوم حقا ، وللقوة ضوابط ومعايير، ولم يترك للقوة وحدها أن تعربد وتصول فمن حق الضعيف اذا أدرك نهايته أن يستسلم ، ويرفع راية الامان ، عند ذلك علينا أن نمتنع عن قتاله ، ندخل معه فى قانون ما بعد الحرب ، ولا حق لنا أن نحارب مستسلما ، ولا أن تصور لنا القوة المتطاولة أنه يخدعنا باستسلامه ، ولا أن نتخذ من مسألة الخداع ذريعة نمعن بها فى حرب من يريد انهاء الحرب « **ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلم لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة** » (1) ·

وقد حدث فى الحرب العالمية الثانية حينما دخلت جيوش الحلفاء مدينة (برلين) أن أباحوا المدينة أياما بطولها للقذف الشديد ، والدمار الشامل ، والقتل المروع ، والابادة التى ما بعدها ابادة، رغم أن ألمانيا كانت قد استسلمت ورفعت راية الامان ، ولكن لا مجيب ، وقد روت احدى السيدات عن مأساتها - وقد نجت من الموت بأعجوبة - أنها ظلت أياما بطولها تحت الانقاض ، وقد مات زوجها وأطفالها جميعا ، ورمت جثثهم ، ولا تستطيع أن تخرج بها الى الشارع ، أو أن تجد لقمة ، أو جرعة ماء ، وكان أن قرأ أحد الالمان رسالة لابى الحسن الشيبانى الفقيه المسلم استقاها من الشريعة الاسلامية يقول : « ليس من حق المحارب أن يحارب مستسلما » فأعجب الرجل وغيره من الالمان بهذا القانون الاسلامى الذى يعطى المنهزم حقا ، ولا يترك الامر لعربدة القوة وأحكامها ، فأنشئت جمعية أبى الحسن الشيبانى فى ألمانيا الاتحادية ومن مبادىء هذه الجمعية أن تنشر على العالم هذا المبدأ الرحيم الذى شرعه الاسلام من خمسة عشر قرنا من الزمان·

وما لنا نذهب بعيدا ، ان هذه الارض العربية الاسلامية - الجزائر - رأى أبناؤها من الاستعمار وأهواله وتعذيبه وخوضه فى بحار الدم ما لا عين رأت، ولا خطر على قلب بشر ، فلما انتصرت عاملت المعتدين بسماحة ما كان يظنها حتى المعتدى ·

ورحمة الاسلام المتسامية لا تريد من الحرب أن تكون متنفسا لحقد ، فقد نهى الاسلام عن تعذيب الاحياء ، وعن التمثيل بالموتى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا قتلتم فأحسنوا القتلة)

---

(1) من الآية 94 من سورة النساء ·

ولم يحدث فى تاريخ الاسلام أن مثلنا بجثة أو عذبنا حيا ، فان المسلمين كان شأنهم دائما بعد الانتهاء من المعركة أن يجمعوا جثث أعدائهم ويدفنوها كما يجمعون جثث قتلاهم ، فالرحمة والرحمة دائما هى التى تسيطر على الحرب بدءا وسيرا ونهاية من ناحية المسلمين ، فما ظنك بدين يدخل الرحمة حتى فى الحرب أقصى العنف الانسانى ؟

أســس النصــر

ثم تكون الحرب ... فما الــذى يجب علينا اتباعه حتى نحرز النصر ؟ ان الاسلام لا يتركنا بغير تعاليم تكفل لنا النصر على عدونا بالغا ما بلغ .

ولما كانت الحرب نوعين : الحرب النفسية ، ويسمونها الحرب البـاردة أو حرب الورق فى العصر الحديث، والحرب الفعلية «القتال » ، ولم يهمل القرآن أيا من الحربين ، فكلتاهما ذات تأثير فعال وخطير على النصر .

ولنبدأ بالحرب النفسية ، فقد اعتاد الناس أن يقذفوا فى قلوب أعدائهــم الرهبة والرعب ، وأن يحيطوا أنفسهم بهالة من السطــوة والجبـروت ، وأن يفهموهم أنهــم قوة لا تقهــر ، وأن الانتصار عليهم مستحيـــل ، وبهـــذا يكسبون الحرب قبل أن تبدأ ، والاسلام وضع حلولا جذرية لكــل هــذا ، فاذا تدبرنا أنفسنا : ما الذى يخيفنا مــن الاعداء ؟ ، أن أقصى ما ينالونه منــا حياتنا ، وان الموت لا يخيف المؤمن ، فلكل انسان أجله المحدد ، ان لم يدركه فى الحرب أدركه فى السلم ، قال الله تعالى : « **أينما تكونوا يدرككم المــوت ولو كنتم فى بروج مشيدة** » (1) .

وقال : « **الذيــن قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين**» (2) وقال : « **قل لو كنتم فى بيوتكم لبـرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليــم بــذات الصدور** » وقال : « **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض أو كانوا غـزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلـــوا ليجعل الله ذلــك حسرة فى قلوبهـم والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير** » (3) تلك الحقيقة فى وضوحهــا أدركها حتى الشاعر الجاهلى عنترة :

(1) الآية 78 من سورة النساء .
(2) الآية 156 من سورة آل عمران .
(3) الآية 158 من سورة آل عمران .

بكرت تخوفنى الحتوف ، كأننى
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فاقنى حياءك ، لا أبا لك واعلمى
أنى امرؤ سأموت ان لم أقتل

وكان المسلمون يفكرون فى الموت فى سبيل الله ، وما أعده الله لهم ، ويرون أن صفقة الموت مع ما فيها من ثواب ، اربح من صفقة الحياة مع ما فيها من مغريات . هذه المعادلة كانت تساوى بسالة تقرب من حد الاساطير والخيال ، حتى يخيل اليك أن هؤلاء المحاربين جاءوا من أجل الموت ، ويعملون فعلا لنيله ، بل ان الكثيرين ندموا لانهم رجعوا أحياء ، وأنهم لم ينالوا الشهادة .

عاد عبد الله بن عمر بن الخطاب بعد أن أبلى فى اليمامة أحسن البلاء ، فلما لقيه أبوه قال له : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! (يعنى زيد بن الخطاب اخا عمر ، وعم عبد الله) الا واريت وجهك عنى » فأجاب عبد الله :

« سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق الى فلم أعطها » .

وها هو ذا خالد بن الوليد ـ وقد حضرته الوفاة فى غير ما حرب ولا جهاد ـ متحسرا متألما : « لقد شهدت مائة واقعة أو زهاءها ، وما فى جسدى موضع الا وفيه أثر لضربة سيف ، أو طعنة رمح ، وها آنذا أموت على فراش كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

تلك الحقيقة فى بساطتها ووضوحها كانت وراء كل انتصار يحرزه المسلمون وكانت أكبر تهديد يهددون به أعداءهم، فها هو ذا قائد مسلم يقول ردا على تهديد عدوه حينما أراد أن يخيفه بالعدد والعدة فى جانبه « لقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

تلك الحقيقة فى بساطتها ووضوحها كانت وراء حسم كل بادرة تردد ، أو خاطرة خوف ، تفرض نفسها على الموقف من جراء كثرة الاعداء وقوتهم ، وقف عبد الله بن رواحة فى غزوة مؤتة ليقول بعد أيام من المعركة بدا فيها أن النصر غير دان ، أو غير متحقق « أيها الناس : ان الذى تخافونه هو الذى خرجتم له ، اننا لا نقاتل العدو بقلة ولا بكثرة ، انما نقاتلهم من أجل الدين الذى أكرمنا الله به ، وان هى الا احدى الحسنين : اما النصر أو الشهادة » وبهذا قضى الاسلام على أكبر ثغرة يدخل منها الاعداء ، وينفذ منها الشيطان .

ولما كانت الجيوش تفقد جل حماستها اذا أدركت انها تخوض حربا لا أمل فيها للنصر ، ولا منفذ فيها الى تحقيق

هدف ، فان الاسلام يعلم أبناءه أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، وأن النصر يعطيه الله مكافأة للمؤمن بحقه ، الماضى فى سبيله . قال تعالى : « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » ·

وأن الكثرة فى العدد أو العدة ليست كل شىء « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين** » (1) « **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** » (2)·

ولقد أقدم المسلمون الاوائل على حرب الروم فى معركة اليرموك ، وسمع خالد بن الوليد رجلا يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين !! فغضب خالد حين سمعها وصاح : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الاشقر ـ يعنى فرسه ـ برىء من توجيه ، وأنهم أضعفوا فى العدد » نعم صدق خالد ، فالجندى الشجاع يعتمد على قوته لا على ضعف خصمه ·

تعاليم تكفل النصر

ثم تكون المعركة ··· فهل تركنا القرآن نخوض الحرب بدون تعاليم تكفل لنا النصر ؟ ، استمعوا معى الى قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون · وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين** » (3) ·

وبعد أن نكون قد استكملنا عدتنا المادية والمعنوية ، وبدأت المعركة ، فلا شىء غير الثبات « **اذا لقيتم فئة فاثبتوا** » والفرار ذنب ما بعده ذنب « **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير** » (4) ·

ان الفار من المعركة مأواه جهنم، وان ذنب الفرار لا ذنب يعدله الا الكفر ·

ويعلم الله خالق الانسان والاسلام أن الضعف الانسانى قد يدفع الانسان

(1) الآية 249 من سورة البقرة ·
(2) الآية 173 من سورة آل عمران ·
(3) الآيتان 45 و 46 من سورة الانفال ·
(4) الآيتان 15 و 16 من سورة الانفال ·

الى ما يكره ، ومن ثم فقد أعقب الامر بالثبات أمرا بذكر الله ، وقد يتساءل المرء ... أى علاقة بين الامر بالثبات ، والامر بذكر الله ؟ ونقول : « ان العلاقة أقوى ما تكون ، فلا شيء يجبر الضعف الانسانى مثل أن يذكر قوة خالقه ، ويراه أكبر كل شيء ، وأن أمره هو النافذ ، وأن قوته تجعل كل قوة عداه تتلاشى ، وأن مهابته تجعل كل مهابة لغيره تزول ، فاذا قويت النفوس بذكر الله استهانت بكل خطر ، ورحبت بكل تضحية ، وقوة الانسان أعظم ما تكون فى قلبه وفى روحه ، وأن النفس الخائرة والقلب الجبان يخاف من كل شيء ، ويفر من لا شيء ، مهما كان معه من عدة وعتاد ، وقديما قالوا : « ان سلاح الجبان ملك لعدوه » وقد قال رجل لرجل : « ان سيفى أطول من سيفك » فأجابه : «لن يكون كذلك الا اذا وصلته بقلبى».

وهنا مكمن القوة ، وسر الشجاعة التى لا تخاف الا الله .

فـول الوجـه شطر اللـه وانظـر
تـر الاقـوام أحقـر أن تهـابـا

ثم يقول : « **وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » ولا شيء يضعف القوم مثل ان يتنازعوا ويختلفوا ، فلا نصر بغير اتحاد ، ولا قوة بغير تكتل ، ثم يختتم الآيات « **واصبروا ان الله مع الصابرين** » فالصبر مفتاح النصر ، وأعظم مقومات الشجاعة ، وقديما قالوا : « الشجاعة صبر ساعة » وقد قال رجل لعنترة : « لماذا كنت أشجع العرب ؟ » فقال له عنترة : « مدد يدك » فمد الرجل يده ، فقال له : اضغط على يدى ، واجعلنى أضغط على يدك » ، فجعل كل منهما يضغط على يد الآخر ، فصاح الرجل متألما « آه » فقال له عنترة : « لو صبرت قليلا لقلتها أنا » .

وهكذا يتلاقى الجيشان ، فيلاقى كل منهما من البلاء والشدة ما يلاقى ، ويبقى النصر أخيرا لمن يتحمل أكثر ، ويصبر أكثر ، واستمعوا الى القرآن الكريم اذ يقول : « **ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما** » (1) ، ولا نكاد نرى آية من آيات القرآن ذكرت النصر أو حرضت عليه الا ذكرت الصبر « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا ،**

---

(1) الآية 104 من سورة النساء .

وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القــوم الكافرين » (2) « **يا أيها الذين آمنـوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »** (3) « **بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكــم بخمســة آلاف من الملائكـة مسومين »** (4) •

فــوز محقــق

ثم تكون نهاية المعركة التى لابد أن تكون لصالح الايمان والمؤمنين كائنــة ما كانت النتيجة ، فالمؤمـن اذا انتصر لا يبطر ، ولا يغتر ، ولا يستخفه النصر ويركبه الغرور ، فتكون النهاية الاليمة ، وكم من نصر حمل فى طياته الهزيمة •

ان الغـــرور اذا تملــك أمـــة
كالزهـــر يخــفى المــوت وهو زؤام

وان كانت النتيجة خسارة معركة فلا ييأس ، ولا يتلاشى ، لانه يــدرك أن العاقبة للمتقين ، وكم تساوى معركـــة فى ميزان الزمن ؟ ، ان المؤمن الصابر يعلم أن الزمان سلسلة متصلة الحلقات من المعارك والاهوال ، فيجب ان يتخذ من النصر عدة للنصر ، ومن الهزيمـة معبرا للنصر ، واستمع الى القرآن الكريم « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقـد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايـــام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، واللــه لا يحب الظالمين »** (5) •

وبعـــد :

فهذا ديننا سر قوتنــا وانتصارنا ، والنأى عنه سر هزيمتنا وتلاشينا ، ولقد أعزنا الله بالاسلام ، فمهما طلبنا العزة بغيره فلن يزيدنا الله الا ذلا ، ان ديننا دين القوة ، ودين العزة يأمرنا دائمـا أن نكون أقوياء أعزاء « **ولله العــزة ولرسوله وللمؤمنين** » ولا يجتمع الايمان والذل فى قلب واحد ، ولم يجز لنا ديننا تحـت أى ظـــرف أن نعيش أذلاء أو مستضعفين « **ان الـذيـن توفـاهـم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجـــروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وســاءت مصيرا** » (6) ولقد أدرك أعداؤنا هــذه

---

(2) الآية 249 من سورة البقرة •
(3) الآية 200 من سورة آل عمران •
(4) الآية 125 من سورة آل عمران •
(5) الآية 140 من سورة آل عمران •
(6) الآية 97 من سورة النساء •

الحقيقة ، ورأوها رأى العين ، ولذا فهم دائما يريدون مواجهتنا بعيدا عنها ، لانها سر قوتنا وعزتنا ، نعم لقد أدرك الاعداء أننا فى غيبة الاسلام يسهل اقتلاعنا ، ووعوا التاريخ ، فعرفوا أن الصليبيين مثلا حينما جاءوا يحملون شعار الصليب نبهونا فحملنا المصحف ، ورجعنا الى سر قوتنا فانتصرنا ، وفى هذا العصر جاءنا نفس العدو ، يعمل لنفس الهدف ، ولكنه يحمل شعارات تختلف فى ظاهرها ، فحاربنا أحيانا فى غيبة الاسلام ، وكثيرا ما كانت الهزائم فى جانبنا .

دعونا نع الدرس جيدا ، وننظر الى الامور بعيون مفتوحة ، وقلوب واعية ، ان عدونا الصهيونى جاء تحت لواء دينه وباسمه ، واستطاع أن ينتزع الانتصار، رغم ما فى دينه من تحريف وتزييف ، ما الذى يجمع اليهودى الشرقى مع اليهودى الغربى مع اليهودى الذى عاش حياته فى أرض العرب ؟ وما الذى جعل الجميع يعيشون وسط بحر من الاعداء؟ وما الذى خلق من اليهودى أسطورة الزمان فى الجبن والمادية مهاجرا يترك بلادا ولد فيها وعاش الى بلد مهدد بالحرب فى كل لحظة ؟ أليس الدين مع ما لنا على هذا الدين من ملاحظات وتحفظات ؟

فلنتوحد تحت راية التوحيد ، ولنجتمع تحت لواء الاسلام ، ولنفتح صفحات كتابنا الخالد ، ولنسر على نوره ، نسالم تحت ظلاله ونحارب ، واذا تجمعت علينا الدنيا بأجمعها ، وهاجمنا العالم بأسره ، فلنقل : اننا مسلمون ! اننا مسلمون !

★

مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها

د٠ حامد صادق قنيبي
الكويـــت

النبات فى عالمنا الفسيح لسان من السنة التقديس والسبيح للخالق جـــل جلاله وهو من جملة بدائـــع القـــدرة الالهية فى المخلوقات من حيث ايجـــاد الاشجار والثمار والحبوب ، والبقول ، والازهار ، والتأمل فى كيفية تكوينها ، وجميل صنعها ، مما يقوى فى الانسان عقيدة الايمان برب السماوت والارض وجميع الكائنات ٠

واذا كان عالم النبات صفـحة فى كتاب الله المنظور فاننا نشهد فيه صورة الحياة فى حركتها وانتقالـــهـا ، وفى مراحلها وأطوارها ، وفى جمالها المونق البديع الالوان والاشكال ٠ قال تعالى : « **ألم تر أن الله أنزل من السماء مـاء فسلكه ينابيع فى الارض ، ثم يخـرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ، ان فى ذلـك لذكرى لاولى الالباب** » (I) وقال ايضا : « **امن خلق السموات والارض وانـــزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائـق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون** »٠(2)

ها هو ذا القرآن يلفت البصائـــر والابصار الى سر الحياة ومنشأ النبات وتعدده كما يحدثنا أن الزرع والنبات والشجر انما ينشأ نتيجة تفاعل المـاء والتراب والبذور ٠ قال تعالى : « **سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى** » (3) ٠ فالله هو الذى خلق عالمنا كله فسواه تسوية تامة كاملة لا عـوج

(I) سورة الزمر : 2I
(2) سورة النمـل : 60
(3) سورة الاعلى : I — 5

فيها ولا اضطراب ولا نقص ولا زيادة بل كل شيء فيه فى وضعه الصحيح يؤدى الغرض الذى من أجله خلق ، فهو الذى قدر فهدى أي قدر لكل حي ما يصلحه مدة بقائه وهداه اليه ، وعرفه وجه الانتفاع بما فيه من منفعة له ·
« والذى أخرج المرعى » أي انبت النبات جميعه · وما من نبت ينبت الا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان ما · ثم بعد ذلك أنبت النبات (فجعله غثاء أحوى) والغثاء هو الهشيم ، أو الهالك البالى ، والاحوى الذى يميل لونه الى لون السواد · (4)

والذى أخرج المرعى فجعله غثاء احوى ··· مثال على كمال الخلق والتسوية والهداية ، والغثاء الاحوى انما هو الفناء والاماتة ازالة الحياة فكيف ذلك ؟ وهنا نقف وقفة قصيرة مع العلم الحديث لننظر ماذا قال هنا :

(فجعله غثاء أحوى) أي « جعله بعد خضرته يابسا أسود · وهل هناك نبات اذا جف صار يابسا أسود ؟ لا يوجد فيما نعلم نبات هكذا ؟ اذن فكيف أخرج الله تبارك وتعالى المرعى ثم جعله يابسا أسود ؟ كيف ومتى ؟ ألا ينطبق هذا كل الانطباق على الفحم الحجرى الذى تكون معظمه فى حقب الحياة القديمة حينما ظهر النبات غير المزهر والسرخسيات بكثرة عظيمة ثم تراكمت فوقها فى بعض الجهات رواسب أخرى فتحولت الى فحم حجرى مع طول الزمن وارتفاع الضغط والحرارة ! نعم هذا هو الغثاء الاحوى الذى تكلم عنه القرآن الكريم وعلله فأصاب وأوجز · قال وأصاب فى وقت كانت فيه مثل هذه الحقائق غريبة على عقول البشر · قال هذا فسبق العلم بقرون عدة · أفليس هذا اعجازا ؟ · بلى والله انه نعم الاعجاز » · (5)

ونعلم أن أول النبات كانت الاعشاب والمراعى وما من نبات الا وهو صالح لخلق من خلق الله · فهي هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا · فالله خلق هذه الارض وقدر فيها أقواتها لكل حي يدب فوق ظهرها أو يختبىء فى جوفها ، أو يطير فى جوها ·

والمرعى يخرج فى أول أمره خضرا ، ثم يذوى فاذا هو غثاء ، أميل الى السواد فهو أحوى · وهو فى كل حالاته صالح لامر من أمر هذه الحياة بتقدير الذى خلق فسوى وقدر فهدى ···

ثم يقفنا التوجيه القرآنى على أمس الاشياء الى الانسان ، وهو طعامه ، وطعام أنعامه ، وما وراء ذلك من تدبير الله وتقديره له :

(4) تفسير جزء عم ص 52 بتصرف · جاء فى لسان العرب أن الغثاء هو اليابس والاحوى من الحوة وهي سواد الى الخضرة أو حمرة الى السواد وقد كثر فى كلام العرب حتى سموا كل أسود أحوى ·

(5) القرآن والعلم ـ أحمد محمود سليمان ـ ص 66 ـ 67 ـ دار العودة بيروت، الطبعة الثانية 1973 ·

« فلينظر الانسان الى طعامه • انا صببنا الماء صبا • ثم شققنا الارض شقا • فانبتنا فيها حبا • وعنبا وقضبا • (*) وزيتونا ونخلا • وحدائق غلبا (**) • وفاكهة وابا (***) • متاعا لكم ولانعامكم » • (6)

جاء فى الكشاف « والحب : كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما • والقضب : الرطبة ، والمقضاب ارضه ، وسمى بمصدر قضبه اذا قطعه لانه يقضب مرة بعد مرة (وحدائق غلبا) يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء فيزيد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها كما تقول حديقة ضخمة ، وأن يجعل شجرها غلبا : أي عظاما غلاظا • والاب : المرعى لانه يؤب : أي يؤم وينتجع ، والاب والام اخوان •• » (7)

فالآيات السابقة بيان لقدرة الله وعظمته فى الابانة عن منشأ النبات وتعدده ، والارتباط الوثيق بين الحيوان والنبات ، فالكائن الحي لا يتغذى الا من أصله الذى تكون منه ، ولذا أمر الانسان أن يتدبر قصة طعامه ، آلذى هو ألصق شيء به • وسيجد أنه من الطين والماء •

ان الله صب الماء من السماء صبا ثم شق الارض بجذر النبات ، شقه شقا فأنبت فيها حبا وعنبا وقضبا •

وصب الماء فى صورة المطر حقيقة يعرفها كل انسان فى كل بيئة ، وفى أي درجة كان من درجات المعرفة والتجربة • والله الذى لا شريك له هو الذى صب الماء ، وهو الذى قدر أن يكون الماء العامل الاول فى خلق كل نبات ، ولنا عود لهذا الموضوع بعد قليل •

ثم تاتى المرحلة التالية لصب الماء ، وهي شق الارض شقا بجذر النبات لتتكون الجذور الممتدة خلال التربة ، أو أن يشق النبت تربة الارض شقا بقدرة الله الخالق ، وينمو على وجهها ، ويمتد فى الهواء فوقها ، وربما شقت النبتة الصفراء الملتوية الهشة الارض الصلبة الجافة ، أو الصخرة العاتية نافذة الى أعلى مكونة الساق والاوراق •

اذن على الانسان أن ينظر الى طعامه الذى به قوامه ، كيف تفضل الله به عليه فصار فى أشد الحاجة اليه ، وكيف حول الله له بعض عناصر الارض طعاما هنيا فى شكل جميل ولون جذاب ، وطعم مستساغ حلو المذاق •

وجعل الله هذا الاصل الواحد أزواجا وأشكالا من حيث هو مأكول كالقمح والذرة والفول ، وغيرها من البقول ، أو هو فاكهة لذيذة كالعنب والنخيل ، وغير هذا كثير مما يؤكل قضبا كالقثاء

(*) القضب : الرطب أو الثمار الغضة التى يتكرر قطف أشجارها أو العلف على اختلاف الاقوال •

(**) غلبا : كثيفة الشجر •

(***) الاب : المرعى على أوجه الاقوال •

(6) سورة عبس : 24 — 32

(7) تفسير الزمخشرى 4 — 220 طبعة اللحبى ، القاهرة ، 1966 م •

والتفاح ، وهذه الحدائق الفيح الملتفة الاغصان ، وهذه السهول الخضر ·· كلها متاع للانسان والانعام ·

والنبات انما ينشأ من تراب وماء ، والله هو الذى أوجد الماء ، وأنزله من السماء بنظام وقدر موزون· وقد تكرر ذكر الماء كثيرا فى القرآن الكريم فى صدد الحياة والانبات قال تعالى :

« وهو الذى ارسل الرياح نشرا بين يدي رحمته · حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون · والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا · كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » · (8)

- « وهو الذى أرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا · لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقناه انعاما واناسى كثيراً » · (9)

-« والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فاحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور » · (10)

- « الذى جعل لكم الارض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى · كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى » · (11)

- « وهو الذى انزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شىء فاخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من اعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه · انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه · ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » · (12)

- « هو الذى انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » · (13)

- « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الارض وانا على ذهاب به لقادرون · فانشانا لكم به جنات من نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تاكلون ، وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين» · (14)

---

(8) سورة الاعراف : 57 ـ 58
(9) سورة الفرقان : 48 ـ 49
(10) سورة فاطر : 9
(11) سورة طـه : 53ـ 55
(12) سورة الانعـام : 99
(13) سورة النحل : 10 ـ 11
(14) سورة المؤمنون : 18 ـ 20

ـ « **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير** » · (15)

ان الله هو الذى يرسل الرياح مبشرات برحمته · والرياح تهب حاملة للسحاب وفق النواميس الكونية التى أودعها الله هذا الكون ··· يصيب بها من يشاء من عباده ويصرفها عمن يشاء من عباده ، فاذا أنزل الماء منها على بلد ميت أحياها بأمره جل جلاله وأخرج الله به من كل الثمرات رزقا لكم ، ومتاعا الى حين ···

« ودور الماء الظاهر فى انبات كل شىء دور واضح يعلمه البدائى والمتحضر ويعرفه الجاهل والعالم ··· ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يخاطب به القرآن الناس عامة · فقد شارك الماء ابتداء ـ بتقدير الله ـ فى جعل تربة الارض السطحية صالحة للانبات (اذا صحت النظريات التى تفترض أن سطح الارض كان فى فترة ملتهبا ، ثم صلبا لا توجد فيه التربة التى تنبت الزرع ، ثم يتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها الى تربة لينة) (*) ثم ظل الماء يشارك فى اخصاب هذه التربة ، وذلك باسقاط « النتروجين ـ الازوت » من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية التى تقع فى الجو ، النتروجين الصالح للذوبان فى الماء ويسقط مع المطر ، ليعيد الخصوبة الى الارض ·· وهو السماد الذى قلد الانسان القوانين الكونية فى صنعه الآن بنفس الطريقة ! وهو المادة التى يخلو وجه الارض من النبات لو نفذت من التربة ! » · (16)

والآيات الكريمة السابقة من سور طه والانعام والزمر والنحل والمؤمنون ··· وغيرها تشير الى كثير من خصائص النبات فالآية الكريمة من سورة الانعام توضح معنى علميا · (وهو أن الماء ينبت البذور فتخرج أجنة النبات من دور الركود وتخصص أجزاء منه للاوراق فى انتاج المادة الخضراء وهي اللازمة لتكوين المادة الغذائية داخل عروق فتتكون البذور والثمار) · (17)

والنبات كما بينا يبدأ حياته فى الغالب بذرة أو نواة توضع فى الارض وتسقى بالماء ، ثم تنفلق ويخرج منها جذير يمتد الى أسفل وسويق يمتد الى أعلى ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله : « **ثم شققنا الارض شقا** » (18) وهذا الدور من حياة النبات يمكن أن

---

(15) سورة الحج : 23

(*) انظر العلم يدعو للايمان ص 76 ، أ· كريسى موريسون ، ترجمة محمود الفلكى ، النهضة المصرية بالقاهرة ط 6 ، 1971 م ·

(16) فى ظلال القرآن 3 ـ 324

(17) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص 189 طبعة القاهرة ، 1975 م ·

(18) سورة عبس : 26

يسمى دور الانبات وفيه تنشق الارض عن النبتة الصغيرة ذات الورقتين الخضراوين ، وفيه لا تأخذ البذرة أو النواة من خارج الارض الا الماء والاكسجين ، أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق والورقتين فتستمد مما أودعه الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الاعضاء • وعلى الجذير والورقتين يتوقف غذاء النبات بعد ذلك • فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة فى الارض ، والوريقات الخضر تقوم بعمليتى التنفس والتمثيل الخضرى • (19)

« وتعرف هذه العملية (بالتمثيل الكربونى) • يدخل ثانى أكسيد الكربون من الجو الى النبات عن طريق الثغور، فيقابل المادة الخضراء والماء ، وتتكون من الكربون مواد الغذاء بفعل الحرارة والضوء ، أما طريقة تكوين هذه المواد من غاز ثانى أكسيد الكربون ، فهي عملية كيماوية معقدة ، لم يقل العلم عنها الا أن وجود المادة الخضراء والماء والحرارة ، ينتج عنها تغييرات تنتهى بتكوين المواد الغذائية ، ولا يتم الا فى الضوء ، ولذا فهي تسمى أيضا « بالتمثيل الضوئى » • ويقرر العلم ان هذه العملية هي أصعب وأعجب عملية تقوم بها الحياة ولا يمكن لأي تركيبات أو أجهزة أن تقوم بمثل ما تقوم به ورقة خضراء فى أى نبات » • (20)

والمادة الخضراء التى ورد ذكرها فى الشرح الآنف الذكر هي ما أشارت اليه الآية الكريمة بكلمة « **خضرا** » واخراج هذا (الخضر) أى المادة الخضراء يأتى بعد اخراج النبات من الماء ، واذا تابعنا عملية خلق النبات حسب تسلسلها فى آية الانعام — 99 وجدناها موضحة بعوامل خلق ثلاثة ، وهي كما يأتى :

1 — عامل الخلق الاول لكل النبات هو الماء :

(وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء)

2 — عامل الخلق الثانى : هو المادة الخضراء التى تشير اليها الآية بكلمة (خضرا) (فأخرجنا منه خضرا) •

3 — عامل الخلق الثالث : وهو اخراج الحب والثمر المتباين والمختلف حجما وشكلا ، بين قمح ورمان وزيتون •• الخ قال تعالى : « **نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه**» (21)

(19) الاسلام فى عصر العلم ص 356 — 357 بتصرف — محمد أحمد الغمراوى ، ط 1 ، القاهرة ، دار الانسان ، 1973 م •

(20) الله والعلم الحديث ص 754 ، عبد الرزاق نوفل ، الناشرون العرب ، القاهرة ، 1971 م •

(21) سورة الانعام : 99

والحب المتراكم كالسنابل وأمثالها ، والقنوان جمع قنوة وهو الفرع الصغير وفى النخلة هو العذق الذى يحمل الثمر ٠ ولفظة (قنوان) ووصفها (دانية) يشتركان فى القاء ظل لطيف أليف ٠ وظل المشهد كله ظل وديع حبيب ٠٠ « وجنات من أعناب » ٠٠ « والزيتون والرمان » ٠٠ هذا النبات كله بفصائله وسلالاته ــ (مشتبها وغير متشابه) ــ أي (مشتبها فى الخلق مختلفا فى الطعام) (22) أو (بعضه متشابها وبعضه غير متشابه فى القدر واللون والطعم) (23) « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه » ٠٠٠ انظروا بالحس البصير ، والقلب اليقظ ٠٠ انظروا اليه فى ازدهاره ، وازدهائه عند كمال نضجه ٠ انظروا اليه واستمتعوا بجماله ٠٠ لا يقول هنا ، كلوا من ثمره اذا أثمر ، ولكن يقول : « انظروا الى ثمره وينعه » ، لان المجال هنا جمال ومتاع ، كما انه مجال تدبر فى آيات الله ، وبدائع صنعته فى مجال الحياة ٠ (24)

والآية الكريمة من سورة الزمر (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فسلكه ٠٠٠ الآية (2) ــ توجه الانظار للتأمل والتدبر ، فى ظاهرة تتكرر فى أنحاء الارض، حتى لتذهب بجدتها وما فيها من عجائب فى كل خطوة من خطواتها ٠٠٠ فهذا الماء النازل من السماء ٠٠٠ ما هو وكيف نزل ؟ اننا نمر بهذه الخارقة سراعا لطول الالفة وطول التكرار ٠ ان خلق الماء فى ذاته خارقة ٠ ومهما عرفنا أنه ينشأ من اتاحد ذرتى ايدروجين بذرة أكسوجين تحت ظروف معينة ، فان هذه المعرفة خليقة أن توقظ قلوبنا الى رؤية يد الله التى صاغت هذا الكون بحيث يوجد الايدروجين ويوجد الاكسوجين وتوجد الظروف التى تسمح باتحادهما ، وبوجود الماء من هذا الاتحاد ، ومن ثم وجود الحياة فى هذه الارض ٠٠ ولولا الماء لما وجدت حياة ٠ انها سلسلة من التدبير حتى نصل الى وجود الماء ووجود الحياة ٠ والله من وراء هذا التدبير ، كله مما صنعت يداه ٠٠ ثم نزول هذا الماء بعد وجوده وهو الآخر خارقة جديدة ، ناشئة من قيام الارض والكون وفق نواميس قدرها الله فى هذا الكون، ودبر حركتها ، ونتائجها ، فسمح بتكون الماء ونزوله ٠ (25)

ثم تجىء الخطوة التالية لانزال الماء :

« **فسلكه ينابيع فى الارض** »

---

(22) تفسير الطبرى : 11 ــ 578 تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف ٠
(23) تفسير الزمخشرى : 2 ــ 40
(24) انظر منهج الفن الاسلامى محمد قطب ص 218 ــ دار القلم ٠
(25) انظر فى ظلال القرآن 7 ــ 135 وما بعدها ٠

سواء فى ذلك الانهار الجارية على سطح الارض ، والانهار الجارية تحت طباقها مما يتسرب من المياه السطحية، ثم يتفجر بعد ذلك ينابيع وعيونا ، أو يتكشف آبارا • ويد الله تمسكه فلا يذهب فى الاغوار البعيدة التى لا يظهر منها أبدا !

« ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه »

والحياة النباتية التى تعقب نزول المطر وتنشأ عنه ، خارقة يقف امامها جهد الانسان حسيرا • ورؤية النبتة الصغيرة وهي تشق حجاب الارض عنها ، وتزيح اثقال الركام من فوقها ، وتتطلع الى الفضاء والنور والحرية ، وهي تصعد فى الفضاء رويدا رويدا ••• هذه الرؤية كفيلة بان تملأ القلب المفتوح ذكرى ، وأن تثير فيه الاحساس بالله الخالق المبدع الذىأعطى كلشىء خلقه ثم هدى • والزرع المختلف الالوان – فى البقعة الواحدة ، أو النبتة الواحدة ، أو الزهرة الواحدة – ان هو الا معرض لابداع القدرة ، يشعر الانسان بالعجز المطلق عن الاتيان بشىء منه أصلا !

وفى ضوء هذا يتبين لنا بعض أسرار تكرار القرآن الكريم لحديث الماء ونزوله، وما يترتب عليه من اثر عميق فى الحياة بما ينبت من الزروع والحدائق ، المختلفة الانواع والاشكال • (26)

ومن مشاهد الارض أننا نراها ساكنة لا حركة فيها ولا حياة ، فاذا نزل عليها الماء اهتزت وانتفخت ، وانبتت من كل زوج بهيج قال تعالى :

« وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » • (27)

وقال أيضا : **« ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى احياها لمحيى الموتى انه على كل شىء قدير »** • (28)

واهتزاز الارض تحركها بالنبات ، واحياؤها بعد موتها ، ومعنى ربت أى ارتفعت لما سكن فيها من الثرى ثم أخرجت من جميع الوان الزروع والثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح والاشكال والمنافع • (29)

(والخشوع : التذلل والتقاصر ، فاستعير لحال الارض اذا كانت قحطة لا نبات فيها كما وصفها بالهمود فى قوله تعالى – وترى الارض هامدة – وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ اذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كانها بمنزلة المختال فى زيه ، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال فى الاطمار الرثة • وقرىء وربات : أي ارتفعت لان النبت اذا هم أن يظهر ارتفعت له الارض) • (30)

---

(26) انظر فى هذا البحث ص 5 •
(27) سورة الحج : 5
(28) سورة فصلت : 39
(29) انظر تفسير ابن كثير 3 – 208 و 4 – 102 •
(30) تفسير الزمخشرى 3 – 454

وهكذا وصف الله تعالى الارض بأنها ميتة ، وأنه يحييها بالماء الذى يجعلها تهتز وتربو ٠ أى تتحرك وتنمو ، وهذه الحركة العجيبة سجلها القرآن الكريم قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الاعوام ، فالتربة الجافة حين يـنزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تحيا بما تنبت من كل زوج بهيج ٠ وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد السكون ، وتنتفض بعد الهمود ٠

وهكذا نجد ان القرآن قد عبر عن الارض قبل نزول الماء ، وقبل تفتحها بالنبات ، مرة بأنها (هامدة) ومرة بانها (خاشعة) والتعبيران يوحيان بالسكون الذى ما يلبث أن يهتز ويتحرك اذا ابتلت الارض بالماء ، وبذلك ترتسم لنا معالم الصورة ، ويبدو لنا ما خفى عن ادراكنا للحركة الدائبة تحت سطح الارض ، فنعلم أن كل المراعى الخضر الزاهرة الوادعة فى مظهرها ، انما تخفى تحتها حياة وحركة ونموا بما يمتد فى باطن الارض من جذور وبما ينبت فوقها من نبات يتغذى منها ويعلو ويثمر ، قال تعالى : « **وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ٠ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ٠ ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون** » ٠ (31)

وقال تعالى : « **يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون** » ٠ (32)

فالماء حين يصيب الارض ، يبعث فيها الخصب ، وتموج صفحتها بالحياة المنبثقة النامية ٠٠ ورؤية الزرع النامى ، وتفتح الزهر ، ونضج الثمر اليانع ، وتزين الارض بمختلف الالوان مشاهد تلفت العين والقلب الى القدرة المبدعة ففى كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج الى وجه الحياة ، وفى كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها فتتحول الى هشيم أو حطام ٠ ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والانبات ، ويوجد الغاز الذى ينطلق فى الجو أو تتغذى به التربة ، وتستعد للاخصاب ٠ وفى كل لحظة تدب الحياة فى نبات أو حيوان ، ويتم التحول من خاصية الى أخرى (33) وانها لمعجزة لا يدرى سرها أحد ، ولا يملك صنعها الا خالق الاكوان ، ولذا حرص القرآن على توجيه القلب البشرى لهذا المشهد المتكرر : « **ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ٠ ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟** » ٠ (34)

---

(31) سورة يس : 33 — 35
(32) سورة الروم : 19
(33) انظر فى ظلال القرآن 6 — 446 وما بعدها ٠
(34) سورة الانعام : 95 ٠

فهذا اثبات قاطع أن الارض الميتة تخرج النبات الحي يتغذى وينمو ويثمر ويموت · جاء فى الكشاف : « يخرج الحي من الميت » : أي الحيوان والنامى من النطف والبيض والحب والنوى « ومخرج » هذه الاشياء الميتة من الحيوان والنامى · فان قلت ، كيف قال مخرج الميت من الحي بلفظ اسم الفاعل بعد قوله يخرج الحي من الميت ؟ قلت : عطفه على فالق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس اخراج الحي من الميت لان النامى فى حكم الحيوان ، ألا ترى الى قوله ـ يحيى الارض بعد موتها ـ « ذلكم الله » أي ذلكم المحيى والمميت هو الله الذى تحق له الربوبية » · (35)

فالحب الساكن ، والنوى الهامد وهو يفلق باطن الارض ليخرج منه نبات حي، مشهد يتكرر فى كل لحظة ··· وفى الشجرة الصاعدة والنبتة النامية تعبير عن معجزة الحياة نشأة وحركة ، وطي لسر مكنون لا يعلم حقيقته الا الله ··· وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الأشياء وأشكالها ، وبعد ما درست من خصائصها وأطوارها ··· تقف أمام السر المغيب كما وقف الانسان الاول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية فى طريقها · والمعجزة تقع فى كل لحظة !! ·

ولعل فى تنويع نسق التعبير بين (يخرج) و (مخرج) ايقاظا للحس حتى يلتفت للقدرة الباهرة وهو يعرض آيات الله فى الكون ·

☆ ☆ ☆

قال تعالى وهو أصدق القائلين : **« وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرآت جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون · وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »** · (36)

الآيات الكريمة هنا تطوف بالقلب البشرى فى مجالات وآفاق متعددة ، وتعرض من مشاهد الكون : الارض المدودة ، وما فيها من رواس ثابتة ، وأنهار جارية ، والليل اذ يغشاه النهار، والجنات والزرع والنخيل فى مختلف الاشكال والطعوم والالوان ، ينبت فى قطع من الارض متجاورات ويسقى بماء واحد ·

وأول المشاهد المعروضة هذه الارض المبسوطة على امتداد البصر · ولا يهم ما يكون شكلها الكلى فى حقيقته اذ أن مد الارض وبسطها ليس دليلا على عدم كرويتها اذ هي مبسوطة ممدودة فى

---

(35) تفسير الزمخشرى 2 ـ 37 ·
(36) سورة الرعد : 3 ـ 4

نظرنا لنعيش عليها ، ويقابل مد الارض ارساء الجبال مع تحركها ودورانها ·

وعلى هذه الارض معارض مختلفة ، تتفاوت فيها أنظار الناظرين : بين النظرة العابرة التى لا ترى الا الآفاق الفسيحة الممتدة ، والنظرة المتأملة التى تنفذ الى تدبر عظمة الخالق ، وجلال علمه ، وروعة حكمته ، مما يملأ القلب خشوعا وولاء ، وحمدا للخلاق العظيم ·· رب العالمين ··

وقوله (جعل فيها زوجين اثنين) أي : « خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين حين مدها ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت · وقيل أراد بالزوجين الاسود والابيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما أشبه ذلك من الاصناف المختلفة » · (37)

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن المقصود بالزوج فى مثل قوله تعالى : « **وأنبتت من كل زوج بهيج** » (38) وقوله : « **أو لم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم** » (39) — الزوج هو النوع ، أي أنبتت من كل نوع بهيج أو كريم ، وعندما يكون الغرض من الزوج ، الذكر والانثى يقول تعالى (زوجين) لان الزوجين هما النوعان ، نوع الذكر ونوع الانثى ، ومثله قوله تعالى : « **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** » · (40)

وقد دل علم الحياة على أن الكائنات الحية تنقسم الى ذكر وأنثى سواء فى الحيوان والنبات ، وقد يكون الذكر والانثى فى الزهرة الواحدة ، أو الشجرة الواحدة أو فى شجيرات ويتم التلقيح اما بالريح أو الطير ، وسبحان الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ·

وخلق الازواج ظاهرة مطردة فى الاحياء كلها ، النبات فيها كالانسان · ومثل ذلك غيرهما ·· قال تعالى : « **سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » · (41)

فنعم الخالق العظيم الذى خلق الازواج من كل شىء ··· من أنفسنا كبشر ، ومن الحيوان والطير والنبات ··· ومن الاشياء التى تحيط بنا من ماء وهواء وسحاب ومن الذرات التى لا نراها بالعين المجردة ··· وانها لوحدة تشى بوحدة اليد المبدعة · التى توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الاشكال والاحجام والانواع والاجناس ، والخصائص والسمات ، فى هذه الاحياء التى لا يعلم علمها الا الله · وقد أصبح معلوما أن

(37) تفسير الزمخشرى 2 — 349
(38) سورة الحج : 5
(39) سورة الشعراء : 7
(40) سورة الذاريات : 49
(41) سورة يس : 36

الهواء مكون من التزاوج بين الاكسجين وأكسيد الكربون · وان الماء مكون من التزاوج بين الهدروجين والاكسجين · وان دم الانسان مكون من التزاوج بين الكريات الحمر والكريات البيض ··· وان الذرة ـ أصغر ما عرف من أجزاء المادة ـ مؤلفة من زوجين مختلفين من الاشعاع الكهربى ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان ! كذلك شوهدت الوف من الثنائيات النجمية · تتألف من نجمين مرتبطين يشد كلاهما الآخر ، ويدوران فى مدار واحد كانما يوقعان على نغمة رتيبة · (42)

فالتزاوج بين كل شىء أعلنه عنه القرآن قبل أن تبرهن عنه القرائن العلمية الحديثة بقرون بعيدة ·

وكثيرا ما يتساءل الانسان عن السبب الذى من أجله خلق الله حشرات غريبة، وعن فوائدها ·· الا أنه سيقف مشدوها كما وقف أحد العلماء عندما عرف دور هذه الحشرات فى نقل بذور اللقاح لاتمام عملية التزاوج فى النبات فاقر بأن هذا العمل من معجزات الله · (43)

وقوله (وفى الارض قطع متجاورات ···) أي (بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيبة الى سبخة ، وكريمة الى زهيدة ، وصلبة الى رخوة وصالحة للزرع لا للشجر الى أخرى عكسها ، مع انتظامها جميعا فى جنس الارضية ، وذلك دليل على قادر مريد موقع لافعاله على وجه دون وجه وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة فى هذه القطع مختلفة الاجناس والانواع وهى تسقى بماء واحد ، وتراها متغايرة الثمر فى الاشكال والالوان والطعوم والروائح ، متفاضلة فيها · (44)

فهذه المشاهد الارضية معارض متعددة ، تثير فى الانسان رغبة التطلع اليها بحواسه جميعا ··· برغم تأكيد النص على وجوب التطلع فى ملكوت الله ، والتفكير فيما أبدع وصور ، ولن يخطىء العقل طريقه الى الله اذا هو وقف متجردا بين يدى تلك الآيات ··· ففى الارض قطع متجاورات ، ولكنها غير متماثلة ·· منها الطيب الخصب ومنها السبخ النكد · ومنها المقفر الجدب ، ومنها الصلد ، وكل واحد من هذه وتلك أنواع وصنوف وألوان ودرجات · منها العامر والغامر ، ومنها المزروع الحى والمهمل الميت·ومنها الريان والعطشان · ومنها ومنها ومنها ··· وهي كلها فى الارض متجاورات · ولكنها ليست متساوية فى الخصب

---

(42) انظر : مع الله فى السماء ص 174 · أحمد زكي ، دار الهلال ، القاهرة ·
(43) انظر : الله والعلم الحديث ص 99
(44) تفسير الزمخشرى 2 ـ 349

او الخواص ·· ثم قال تعالى : (وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد · ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) · ولقد شاءت قدرة الله أن تقلح هذه القطع من الارض وتزرع وتعمر بوساطة الانسان، حتى يتالف منها ثلاثة أنواع من النبات : الكرم المتسلق من العنب [illegible] شاكلته [illegible] والزرع من نخيل [illegible] متشابهة وغير متشابهة ، حيث تكون كلها مجتمعة حدائق كالجنات بما فيها من نبات يسبح باسم الله العلي القدير · وذلك النخيل : صنوان وغير صنوان ، منه ما هو عود واحد ، منه ما هو عودان او اكثر فى أصل واحد ، وكله (يسقى بماء احد) والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم والاحجام ، والالوان، والخواص الاخرى ، ومنها ما هو مختلف كل الاختلاف فى نواح عديدة وصفات متعددة ، وهنا تتجلى عظمة الخالق فى جعل حبة الحنظل اذا وضعت فى جوف الارض تطلب من معادنها ما ينمى مرارتها ، وجعل حبة البطيخ تأخذ من بين عناصر الارض ما ينمى حلاوتها · وكلتاهما من رتبة واحدة وهما تسقيان بماء واحد · (45)

هذه الجولة فى مشاهد الكون تعرض مشاهد عدة تشكل لوحة فنية رائعة ، تصور أرضا مبسوطة ، وجبالا راسية، وأنهارا جارية ، وأزواجا من الثمرات، وقطعا من الارض متجاورات ومتباينات، ونخيلا صنوانا وغير صنوان ، وثمارا مختلفة الطعوم والزروع والنخيل والاعناب ·· كلها توقظ القلب ، وتنبه العقل ، وتؤكد روعة التدبير ، وقدرة الخالق سبحانه ، الذى أخرج كل نبت فى هذه الارض ، وفى خلقه دقة واحكام وتقدير لا يزيد أو ينقص ، وقد وصفه القرآن بانه (موزون) ، وفيه دليل على التناسق فى الخلق الدال على الحكمة الالهية البالغة ، والقدرة العجيبة ، التى تعين كل شىء بمقدار ، وتزن كل موجود بميزان ، بحيث تتحقق فيه المنفعة التى ارادها الله لعباده · قال تعالى :

« والارض مددناها والقينا فى رواسي وأنبتنا فيها من كل شىء موزون · وجعلنا لكم فيها معايش من لستم له برازقين » · (46)

وقوله « موزون » وزن بميزان الحكمة، وقدر بمقدار يقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان ، (47) ولذلك اتبعه بقوله : « وجعلنا لكم فيها معايش » ، لان ذلك يحسب بحسب الانتفاع بعينه ·

---

(45) أنظر آيات الله فى الآفاق ص 73 وما بعدها ·
(46) سورة الحجر : 19 ـ 20
(47) تفسير الزمخشرى 2 ـ 389

وقال الراغب الاصفهاني : « وقيل بل ذلك اشارة الى كل ما أوجده الله تعالى ، وأنه خلقه باعتدال ، كما قال « **انا كل شيء خلقناه بقدر** » (48) .

والحقيقة هي أننا نجد قرينة دالة على معنى التقدير بمقدار معلوم فى كلمة « موزون » هذه القرينة نفهمها من سياق الآيات الكريمة بعد ذلك وهي قوله « **وان من شيء الا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم** » (49) فالآية ظاهرة الدلالة على أن ما يتفضل الله به انما هو وليد الحكمة فى الخلق والتقدير والاتزان ، فليس من شيء ينزل جزافا وليس من شيء يتم اعتباطا .

☆ ☆ ☆

ولعلنا بعد هذه الجولة فى دنيا النبات ومملكته ، نقف عاجزين عن الاحاطة بمشاهده المتعددة ، ومروجه الخضر ، التى تأخذ بالقلوب والابصار لجمالها ... انه عالم مترامى الاطراف ، غني بشتى أنواع النبات والاشجار وفصائل النبات والازهار ووافر الثمرات والغلات ، التى يتغذى عليها الملايين من ذرية آدم وحواء وما لا ينحصر من المخلوقات المتنوعة التى تعيش وتدب فى الارض أو تسبح فى الفضاء أو تغوص فى قاع الماء .

رأينا الحب والنوى يحفظ الحياة داخل البذرة ، ثم ينقل هذه الحياة الى جذيرها وسويقها .

ورأينا فى عملية الانبات تلك العشب والشعيرات الهينة اللينة تخترق الارض الصلبة وتشق طريقها الصعب الوعر باحثة عن غذائها وعامل نمائها ، فتعطى الثمر الكبير الجحم والوزن المتفاوت والثمر المختلف شكلا وملمسا ولونا ورائحة وطعما ومذاقا ، كلها بديع التنسيق التكوين ، وهي تسقى بماء واحد وتتغذى من تربة واحدة « **وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون** » . (50)

ورأينا فى النبت الموزون مع الآختلاف والتعدد دقة الخلق واحكام التقدير « **والارض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** » . (51)

نعم لقد رأينا جملة النبات تتفاوت فى تركيبها ، وقدراتها ، غير أننا قد رأينا فيها جميعا قدرة الخالق ، فسبحان من أوجد الوجود ونظمه ، وخلق كل شيء وألهمه ، وهدى كل حي وعلمه ! .

---

(48) معجم مفردات ألفاظ القرآن مادة وزن .
(49) سورة الحجر : 21 .
(50) سورة النمل) 60
(51) سورة الحجر : 19

مميــزات التربيــة الاسلاميــة

الاستاذ محمد ناصر بوحجار

بسم الله الرحمـن الرحيـم

يقول الشيخ ابو الحسن الندوى :
« التربية وسيلة مهذبة راقية لدعـم العقيدة ، ونقلها سليمة الى الاجيال القادمة ، وأفضل تفسير لنظام التربية : انها السعي الحثيث المتواصل من قبل الآباء والمربين لتنشئة أبنائهم على الايمان والعقيدة التى يؤمنون بها ، والنظرة التى ينظرون الى الحياة والكون من خلالها ، ليكونوا ورثة صالحين للتراث الذى ورثه هؤلاء الآباء عن الاجداد ، مع الصلاحية الكافية للنهوض والتطور والتقدم » . (1)

ويقول الاستاذ سليمان الشواشى :
« ان النظام التربوى لاى أمة من الامم مـرآة عاكسة للاهـداف التى تسعى لتحقيقها ، والقيم التى تؤمـن بهـا ، والمثل العليا التى تصبو اليها ، وبالتالى فمناهج التربية فى أي بلد من البلدان تعطينا فكرة واضحة عن حياة الامة ، وأسلوب عيشها . وهي فى النهاية تبرز لنا بوضوح مقومات حضارتنا وخصائصها التى انفردت بها » . (2)

ان التربية .هي وسيلة راقية لغرس العقيدة فى النفوس وتثبيت الايمان فى القلوب ، وامتلاك زمام الامور ، وهي السبيل الوحيد لفرض الوجود، وانتقال التجارب وضمان الاستمرارية .

والتربية ووسائلـها هي المفاتيـح التى تفتح بها القلوب والنفوس ، مـن أمتلك هذه المفاتيح استطاع أن ينتصر، وتمكن من نشر أفكاره ، وبث وعيه .

(1) مجلة منار الاسلام العدد الثانى ، السنة الثالثة . ص 93 .
(2) مجلة العلم والتعليم العدد 23 ، السنة الثالثة . ص 24 .

وأن النظام التربوى لأي أمة هو الذى يعكس آمالها والاهداف التى تبغى الوصول اليها ، والتربية تجعل الفرد ينظر الى الكون والاشياء من حوله النظرة التى تتفق والمبادىء التى يصدر عنها ٠

اذا كانت التربية تحمل هذه المفاهيم، وتعنى هذه الدلالات التى أشار اليهــا بعض المفكرين ، فلنحاول أن نتعرف على خصائص ومميزات التربية الاسلامية ٠ هذه التربية التى انتجت رجالا ، وأنشأت حضارة ، وأنارت الدروب للسالكين ، وبينت النهج القويم الذى يضمن النجــاة والسلامة بعدما ساد العالم ظلم واستعباد وفــوضى ٠

هذه التربية التى استطاعت أن تكون الانسان الصالح بدل المواطن الصالح – كما يقول الاستاذ محمد قطب – بعد ما ثبتت فيه دعائم الايمان ، وأوجدت فيه ارادة صلبة متماسكة بها يستطيــع الصمود أمام الاعاصير المهلكة والتيارات الجارفة ٠ وبعد ما حملته على التحلى بالاخلاق الفاضلة ٠ هذه التربية التى انشأت مجتمعا متضامنــا متعاونــــا متآزرا ، يسود فيه العدل والانصاف ، وتغشاه الفضيلة وحب الخير ٠٠٠

نحاول ان نتعرف على مميـــزات التربية الاسلامية حتى نعــرف ما اذا كانت التربية التى نمارسها فى مدارسنا وبيوتنا وفى المؤسسات ، وعلى مستوى أجهزة الاعلام ، ودور النشر وغيرها ، تتطابق مع هذه الخصائص أم تخالفها ، حتى تضمن السير فى النهج الــذى يوصلنا الى الهدف المنشود ٠٠٠

وأريد أن أشير منذ البداية ، الى أن هذه الخصائص التى سأذكرها ، ليست هي كل الخصائص التى تمتاز بهــا التربية الاسلامية ، وهذه المميزات هي ما أشار اليها بعض المفكرين ، وليس لنا فيها سوى فضل الجمع والتنسيق فقــط ٠

مميزات التربية الاسلامية :

1) عنيت بطاقة الانسان الروحية ، ففجرتها ، فمنحت بذلك الفرصة للانسان المسلم ، كي يتصل بربه خالق الكون ويتعرف على حقيقة الخلود الابدى فى الآخرة ، ويعي حقيقة الوجود الازلي ، وجعلته يسيطر على نفسه ، وعلى ما خلق الله وساعدته على التحرر من قيود المادة ٠ هذه الطاقة المتفجرة أثبتت وجوده الانسانى فى هذه الحياة رغــم كل الضغوط ، وكما قال أحد المربين ، لقد استطاعت التربــية الاسلامــية أن تفجر طاقة الانسان الروحية ، وهــذا أهم وأخطر من تفجير الطاقة المادية ٠ (3)

2) عنيت بطاقة الانسان العقلية ، فحررت عقل الانسان المسلم من السحــر والخرافة والشعوذة ، وهذا ما لمسناه فى بداية الدعوة الاسلامية من تحريــم

(3) مجلة منار الاسلام ، العدد الثانى ، السنة الثالثة ٠ ص 94 ٠

عبادة الاصنام والاوثان والاستقسام بالازلام ، وزجر الطير ، والاستماع الى هراء السحرة وتعاويذهم ٠

ذهبت التربية الاسلامية الى ابعد من ذلك حين أطلقت العنان للعقل البشرى كي يتدبر في ايات الله ومخلوقاته ليستخرج مكنونات أسرار الخلق ، ويقف على حكم الله الكثيرة في خلقه ، وتردد مثل هذا في القرآن كثيرا ، لعلكم تعقلون ، لعلكم تفقهون ، لعلكم تتفكرون ، « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا ٠٠٠ » (4)

3) عنيت بالتربية الجسمية ، فالمسلم القوي خير وأحب الى الله من المسلم الضعيف ٠

هكذا اقبل المسلمون منذ أول عهدهم على تدريب أولادهم على السباحة والرماية ، وركوب الخيل ورفع الاثقال، وعلى تحمل المشاق ، والتعود على خشونة العيش ، كما كانت التربية الاسلامية تلزم المسلمين باتباع قواعد النظافة والنظام في الطعام والملبس والمنام الخ ٠٠٠

بهذا التوجيه السديد استطاع المسلمون أن يبزوا غيرهم في صناعة الاجسام ، واستطاعوا بعدها أن يقهروا العتاة ، وينتصروا على أعدائهم في أغلب المعارك التي خاضوها مع قلة عددهم وعدتهم حتى وقف أعداؤهم مندهشين متسائلين عن مصدر هذه القوة وهذا البأس ، لكن سرعان ما زالت حيرتهم ودهشتهم حين عرفوا انها التربية الاسلامية احسنت واكملت بناء وتنشئة الانسان السوي والانسان سعد الدين ٠

4) عنيت التربية الاسلامية بالتوازن في تكوين الانسان المسلم ، هادفة الى تربية متكاملة ، لا يطغى فيها جانب على آخر ٠ حاولت تربية الجسم والروح معا ٠

وازنت بين متطلبات الانسان الدنيوية والأخروية في آن واحد « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » ٠ (5)

وازنت بين خوفه ورجائه « يرجون رحمته ويخافون عذابه » ٠ (6)

وازنت بين خوفه ورجائه «يرجون هونا ما عسى ان يكون بغضك يوما ما ،

---

(4) سورة آل عمران ، آية 191 ٠
(5) سورة القصص ، آية 77 ٠
(6) سورة الاسراء ٠ آية 57 ٠

وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » .

وازنت بين فرحه وحزنه : « **لكيلا لا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** » . (7)

يقول الاستاذ عدنان سعد الدين : « هذا التوازن الدقيق الذى تهدف التربية الاسلامية الى ملاحظته ومراعاته فى التعليم والتوجيه ، وتكوين الشخصية المسلمة السوية ، بحيث ينتفى هذا الخلل الذى ينتاب كثيرا من الناس فى طغيان جانب فى حياتهم على حساب الجانب الآخر » . (8)

5) عنيت التربية الاسلامية بتنمية الملكات والفضائل ، يقول الشيخ البشير الابراهيمى : « يعتبر المسلم تلميذا ملازما فى مدرسة الحياة ، دائما فيها، دائبا عليها ، يتلقى ما تقتضيه طبيعته من نقص وكمال ، وما تقتضيه طبيعتها من خير وشر ، ومن ثم فان الاسلام يأخذه أخذ المربى فى مزيج من الرفق لا يخرج من امتحان فيها الا ليدخل فى امتحان آخر وفى هذه الامتحانات من الفوائد ما لا يوجد فى الامتحانات المعروفة ... » . (9)

هذه الامتحانات تظهر فى الشعائر التى فرضها الله على عبده ، وفى التكاليف التى يظنها الجاهل لحكمة الخالق ضروبا من التعبد الفارغ الذى لا طائل وراءه ، ولكنها فى حقيقة أمرها وسائل لتنمية ملكة الاقدام على الخير والرحمة والاقلاع عن الشر وترويض النفس على الفضائل الشاقة لتتعود على الصبر والثبات والعزم والحزم والنظام والتحرر من استعباد الشهوات الحيوانية . ولناخذ كمثال على ذلك فريضة الصيام .

يقول الشيخ البشير الابراهيمى : « صوم رمضان محك للارادات النفسية، وقمع للشهوات الجسمية ورمز للتعبد فى صورته العليا ، ورياضة شاقة على هجر اللذائذ والطيبات ، وتدريب منظم على حمل المكروه من جوع وعطش ، وسكوت ، ودرس مفيد فى سياسة المرء لنفسه ، وتحكمه فى أهوائها وضبطه بالجهد لنوازع الهزل، والعبث فيها ، وتربية عملية لخلق الرحمة بالعاجز المعدم ، فلولا الصوم لما ذاق الاغنياء الواجدون ألم الجوع ، ولما تصوروا ما يفعله الجوع بالجائعين ... فلو أن جائعا ظل وبات على الطوى خمسا ووقف خمسا أخرى يصور للاغنياء ما فعل الجوع بأمعائه وأعصابه ، وكانت حاله أبلغ فى التعبير من مقاله ، ما بلغ فى التاثير ما تبلغه جوعة واحدة فى نفس غني مترف ، لذلك كان نبينا امام الانبياء وسيد الحكماء أجود ما يكون فى رمضان» (10) .

---

(7) سورة الحديد ، آية 22 .
(8) مجلة منار الاسلام ، العدد الثانى ، السنة الثالثة ، ص 97 .
(9) جريدة الشعب ، عدد 1459 .
(10) جريدة الشعب ، عدد 1459 .

العالم الاسلامى
بين
مواجهة التحدى والخلق الحضارى

عبد اللطيف عبادة

من قوانين العمران العزيزة على ابن خلدون « ان المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده» وساد هذا المنطق الجدلى العالم الاسلامى مدة طويلة من تاريخه المعاصر فتشبه بالغرب فى كيفيات التفكير وكيفيات العمل وفى النظم السياسية . غير أن تعمق الوعي السياسى والايديولوجى جعل العالم الاسلامى يواجه التحدى الغربى الذى لا يجده على الصعيد المادى والسياسى فحسب بل يجده على الصعيد العقائدى . واذا اقتضت المواجهة شيئا فانما تقتضى خلق وابداع كيفيات تفكير وكيفيات عمل نوعية نابعة من شخصيته وأصالته. ذلك أن حركة المواجهة ليست حركة سلبية بحتة ترفض ما يرد الى العالم الاسلامى من الغرب بل هي تفاعل أخذ وعطاء ونقد بناء يمهد السبيل الى ايجاد أسلوب حياتى نابع من الشخصية والتاريخ الخاصين بالعالم الاسلامى وهي بالاضافة الى ذلك نقد ذاتى اذ البناء يقتضى تقوية الامكانيات الذاتية وصقلها وتنقيتها من الشوائب وابرازها من حالة الكمون الى حالة الفعل .

بدأ العالم الاسلامى فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى منذ بزوغ حركة النهضة فى رقعته . وكانت بداية المواجهة فى شكل نقد ذاتى اذ تقتضى حكمة الله العلي القدير أنه « لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وكان منطلق المواجهة أيضا من التشخيص الحقيقى للداء العضال الذى يعانى منه العالم الاسلامى والذى ينخر جسمه فيصيبه الوهن والضعف .

وأحرى بنا أن نقارن العالم الاسلامى فى بداية نهضته ببوادر النهضة فى العالم المسيحى خلال العصور الوسطى على ألا يعزب عن بالنا أثناء اجرائنا لهذه المقارنة الابعاد الحالية للتحدى

التى لا يمكن أن نقول عنها الا أنها عملاقة ، والصفات المميزة لكل من الايديولوجية المسيحية والعقيدة الاسلامية ·

كما انه يجدر بنا أن نعترف بوجود فوارق بين مختلف الاقطار الاسلامية أن فى ميدان النقد الذاتى أو فى ميدان تشخيص الداء ووصف أعراضه أو فى ميدان مواجهة التحدى أو فى ميدان الخلق الحضارى · فحركة النهضة فى باكستان تختلف عن حركة النهضة فى المغرب الاسلامى · واختلافهما ناتج عن اختلاف الظروف والمشاكل · غير أن هذه الفوارق ليست جوهرية الى حد يجعلنا نتكلم عن الاسلام الافريقى والاسلام الايرانى والاسلام الآسيوى كما يحلو لبعض الانثروبولوجيين من المستشرقين · فالعالم الاسلامى واحد بماضيه وبمشاعره وبآماله وهو واحد فوق كل ذلك بوحدة الكتاب الذى لم يلحقه تحريف · وان اختلفت التأويلات فستبقى مجرد تأويلات قد تصمد أمام التاريخ والاجيال أو لا تصمد ·

وكان على العالم الاسلامى أن يواجه التحدى على جميع الجبهات والاصعدة وعلى وجه التحديد كان عليه أن يقف بحزم ضد الغزو العسكرى والهيمنة الاقتصادية والغزو الفكرى وضد تسرب العادات والتقاليد الغربية الى المجتمع الاسلامى ، وكذا الانحلال الاخلاقى وتفسخ الاواصر العائلية · كما كان لزاما عليه مواجهة مصيره بعزم لا يلين بمواجهة التخلف الاقتصادى والجهل والمرض ·

وقد كان الغرب آنذاك يدافع عن فلسفة عرقية ورجعية مفادها أن العالم صنفان : بدائى ومتحضر ، ديكارتى الاستدلال وخاضع لذهنية ما قبل المنطق ، متحرر من ربقة التقاليد والخرافات ومتشبث بها · وهم لا يقفون عند هذا الحد بل يكادون يعتقدون أن هذه الصفات جبلية لا تزول بمفعول جدلية التطور · وينيطون بانفسهم مهمة تحضر هذه الاقوام « المتوحشة » ·

والتحضير فى نظرهم غاية نبيلة ومهمة أخلاقية تبرر جميع الوسائل اللاأخلاقية التى تبذل لاجل تحقيقه سواء تمثلت فى احتلال الوطن بالقوة أو فى نهب الخيرات أو فى تقويض مقومات شخصية العالم الاسلامى وهويته ·

فى حين أن العالم الاسلامى انقسم فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى شيعا وأحزابا : فمنهم دعاة التغريب ومنهم الجموديون الوثوقيون ومنهم دعاة الاصلاح وقادة الثورات · والحق يقال ان كلا من دعاة التغريب والجموديين الوثوقيين يمثلون مواقف سلبية · فدعاة التغريب يرفضون الاعتراف للاسلام ومبادئه بقدرة التلاؤم مع عصرنا الحالى لذلك ينسلخون منها ويتنكرون لها ويتبنون مواقف مستوردة من المادية الجدلية أو من البراجمانية أو

من العلمانية أو من شتى الفلسفات التى لا تنسجم وتراثنا الحضارى ، ويرون أن طريق الخلاص هو طريق التقليد الاعمى للغرب وأنه أحرى بالبلدان الاسلامية أن تشارك الغرب حلو الحياة ومرها . أما الجموديون الوثوقيون فقد تشبثوا بالماضى ورفضوا التكيف مع متطلبات العصر . غير أن المشبثين بالخرافات والاساطير هم أخطر أصناف الجموديين . ذلك أن الجموديين الخلص يقضـــون بالضرورة وفى يوم من الايام الى خلق كيفيات تفكير وعمل أصيلة ووفيـــة لمبادىء الاسلام الحنيفة .

وأما دعاة الاصلاح وقادة الثورات فقد عمدوا الى تغيير الواقع بطـــرق مختلفة . ففى حين عمد دعاة الاصلاح الى تعليم الجماهير الاسلامية روح الشريعة الاسلامية والى تزويدها بفكر نقدى يجعلها تنفض عنها غبار الجمود والخمول والتواكل والركون الى الحلول السهلة والخرافات . وعملوا أيضـــا على تعميق الوعي السياسى والاجتماعى والاخلاقى لدى الجماهير الاسلامية . وأزاحوا الشبهات التى أثارتها أقلام أجنبية أو اسلامية حول الرسول ـ ص ـ وصحابته وحول التاريـــخ والفكـــر الاسلاميين . وتصدوا بشجاعة لحملات التنصير والمسخ الثقافى ولحظر تعليم الاسلام واللغة التى جاء بها . غير أن الاصلاح بدوره اتخذ أشكالا وصورا اصطبغت بصبغة العصر والمصر الـذى ظهر فيه . ومجمل القول ان دعـــاة الاصلاح ركزوا حركاتهم على التربية والتعليم والتوعية والوعظ والارشـــاد وكان لذلك أثره البالغ فى تنبيه الجماهير الاسلامية من غفوتها .

أما قادة الثورات فقد قاموا بما عجز عنه رجال الاصلاح والدعوة فحققوا دعوتهم فى جزء كبير منها اذ عملوا على تحقيق الاستقلال السياسى واقبلوا على انجاز برامج ومخططات ترمى الى الاستقـــلال الاقتصـــادى والـــرقى الاجتماعى . غير أن المشكلة المطروحة على الثورات التى ظهرت فى العالـــم الاسلامى تتمثـل فى مـدى تشبثهـــا بأصالتها الاسلامية وقيمها الروحية . وقد تاهت بعض النظم السياسـية فى معضلة شائكة تتمثل فى التوفيق بيـــن النظم السياسية الوضعيـة وركائـــز السياسة الاسلامية المنصوص عليهـــا فى القرآن والسنة النبوية على غرار حركة التوفيق بين الحكمة والشريعـة التى كانت محور تفكير بعض اتبـــاع أرسطو من فلاسفة الاسلام . وقـــد ادعت نظم أخرى الصفة الاسلامية غير أنها لا تعدو أن تكون سوى خليـط بيـــن الليبيرالية والاقطاعية يرتاد قادتهـــا كباريهات الغرب ويشترون عماراتـــه ويودعون أموالهم الخاصة فى بنوكه . ولقد أثبتت التجربة فعالية الاسلام فى المجال السياسى والاقتصادى والاجتماعى فراح الكثير من المنظرين الليبيراليـــين والماركسيين يراجعون نظرياتهم ويعترفون للاسلام بثوريته ونجاعته .

فجـارودى Garaudi مفكــر شيوعى يعترف للاسلام كعامـل ذاتى بمفعوله الكبيـر فى تفجيـر الثـورات ويستشهد لذلك بالثورات الجزائريــة والليبية والايرانية ٠ ذلك أن الثورة بدون عقيدة دينية فى نظره هي ثورة تفتقر الى طابع انسانى ٠ « **فطرة الله الـتى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** » ٠ واضطر من وراء ذلك الى تصحيــح الادعاء الذى صرح به بعض الماركسيين اقتداء بأبى الشيوعية ومؤسسها الاول والقائل بأن الدين عفيون الشعوب ٠ فقال بأن الدين قد يستغل من طرف بعض الحكام لاخضاع الرعية غير أنــه فى صميمه صرخة المستضعفين ضد قوى الظلم والطغيان ٠ ولا أدل على ذلــك فى نظره من حركـة طوماس منـــزر (Thomas Munzer)

هنا بالذات نرى أنه من الضــرورى أن نقف وقفة قصيرة عند أشكـــال التحدى التى واجهها العالم الاسلامى ٠ لقد اكتست الهجومات ضد الاســلام أشكالا متنوعة متراوحة بين الاحتـلال العسكرى للبلدان الاسلامية والغــزو الفكرى والايديولوجى : فالاستعمـــار والامبريالية والصهيونية والصليبيــة والشيوعية والفرنكفونية والانجلوفونيــة والبرجماتية والاستشراق والتبشير كلها حاولت أن تحد من عظمة ألمد الثــورى الاسلامى وأن تطفىء نوره **والله متم نوره ولو كره الكافرون**٠ وهكذا بقى المصلحون والثوار فى جميع أنحاء العالم الاسلامى يرفعون لواء الدعوة والجهاد من أجـل تصحيح الاوضاع فى العالم الاسلامى ٠ وان معظم الحركـات التحريريـة التى قامت فى العالم الاسلامى رفعت شعارات اسلامية بحتة وحركتها العقيدة الاسلامية السمحة ، ذلك أن الاسلام لا يـرضى بالعبودية لغير الله ٠ ألم يفضل الاسلام المؤمن القوي على المؤمن الضعيـف ؟ بل ، ألم يحرض المسلمين على اعـــداد ما استطاعوا من قوة لاعدائهم ؟

ان الغزو الفكرى هو الذى أغـــرق العالم الاسلامى الحديث فى مشاكـــل زائفة ومارس ضغوطا قمعية على طاقاته الابداعية ومبادراته الخلاقة التى يمكن أن تجد حلولا مناسبة للظروف المناسبة من المنظور الاسلامى النقي ٠ وتخبـط العالم الاسلامى فى معضلات وهميـة أهمهـــا :

ـ هل تحرير المرأة أمر مشـــروع دينيا ؟ وهل تساوى المرأة الرجل ؟ ٠

ـ هل يتنافى الغاء الملكية مع ما ورد فى القرآن والسنة من تعاليم ٠

ـ هل يساير الدين روح العصر ؟٠ وهل يتفق مع العلم ومع هذا النظـــام السياسى أو ذاك ومع هذه القوانين أو تلـــك ٠

هل شرع ديننا الحنيف الحــدود لعصر ومصر معينين أم شرعها لكـــل عصر ومصر ؟

هل للمحرمات الاسلامية أساس علمى ؟ وهل يسمح تطبيقها بمواكبة ركب العالم المعاصر ؟

هل يمكن للعالم الاسلامى أن يحل النقائض بين الانتاج الاقتصادى والذهنية الدينية ، بين الحياة الصناعية وممارسة العبادات ٠

وهذه أسئله كما نرى تندرج فى الاطار التقليدى الذى ابتدعه المشاؤون المسلمون وهو التوفيق بين الحكمة والشريعة ، ويمكن أن نطلق عليه فى الوقت الحالى اسم التوفيق بين الاسلام والنظم الوضعية الحديثة ٠ وكان الاجدر بنا نحن المسلمين أن نفهم مقاصد الاسلام فى كل مجال من المجالات قبل أن نتحدث عن التوفيق ذلك أن النظم الوضعية متناقضة بالضرورة : فهذا يقول بالغاء الملكية وذاك يقول بحمايتها وتقديسها ، وهذا يقول بالحرية المطلقة للفرد وذلك يقول بضرورة توجيه الطليعة الثورية للجماهير الواسعة من الشعب ٠ وكان الاحرى بنا أن نعمق المفاهيم الاسلامية قبل أن نحكم عليها أو لها ٠

وكان ينبغى على المفكرين المسلمين فى نظر الاستاذ مالك بن نبى ألا يقلدوا كما يفعل العوام ٠ ولا ينبغى أن يشل حركة تفكيرهم ايمانهم وتصديقهم بانه ليس فى الامكان فى ميدان الفكر الاقتصادى الاتيان بأبدع مما كان ، فالمفكرون السابقون ما هم الا بشر مثلنا لهم محاسنهم ونقائصهم ، وعلينا اذن أن نتحذر من الوقوع فى نقائصهم على أنها شر لابد منه كما يقول البعض ٠ فلا يجوز لنا أن نقلد الرأسمالية فى اباحيتها ولا المادية الجدلية فى الحادها ٠ المهم أن تتوفر الارادة : ارادة التعبير والثقة بالنفس ومعهما تذلل جميع الصعوبات بدون استثناء ٠

وكأنى ببعض دعاة التغريب يريدون أن يتنصلوا من المبادىء الاسلامية فيهرعون الى النظم الوضعية ويأخذون منها ما يأخذون دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تعميق فهمهم للمفاهيم الاسلامية ٠٠ وبعد ذلك فقط بدافع من عاطفة الشعور بالذنب أو خوف من الجماهير الاسلامية يلجأون الى « أكذوبة التوفيق » ، أما المشاؤون القدامى فقد كانوا يخافون من التفكير والرمي بالزندقة ٠

والحل الصحيح يكمن فى الخلق الحضارى أعنى فى ابداع حلول أصيلة تتماشى وروح الشريعة الاسلامية وتستجيب والاوضاع الجديدة للعالم الاسلامى – اذ من الضرورى ابداع حلول لمشاكل الاقتصاد والانتاج والاكتفاء الذاتى من منظور اسلامى ٠

اذ النظم الوضعية تتحمس وتنسى ٠ فأين نحن يا ترى من نداء ماركس بالغاء الملكية والدولة والجيش مع حلول الشيوعية ؟ ! لم يعد هذا النداء سوى عبارة عن نظرة طوبوية لا أساس لها من الواقع بعد أن رفضتها كل المجتمعات الشيوعية المعاصرة ٠ وأين نحن من

مقولة ماركس « الدين عفيون الشعوب» بعد قول جارودى عن العقيدة الحقة بانها « ليست عفيونا كلا ! بل هي خميرة لتغيير العالم • وكل ضربة توجه ضد هذه العقيدة هي ضربة موجهة ضد الثورة ذاتها » • وأين نحن من أوهام تحرير المرأة فى العالم المعاصر بعد أن أصبحت مجرد بضاعة تعرض زينتها على القاصى والدانى • والاسلام ينص « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » « و للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » • « و لا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او ••• » •

لقد آن للعالم الاسلامى آن يتحد ويتكتل من أجل بناء الحضارة لاننا فى عصر الاتحاد والتكتل ! والعبرة بالبلدان المتقدمة (أمريكا وروسيا والصين والبلدان الغربية التى تسعى بكل الوسائل لتحقيق وحدتها • لماذا نطالب بالوحدة والتكتل ؟ اننا لا نطالب بذلك من أجل الاعتداء بل من أجل ابداع حلول لصالح شعوب العالم الاسلامى ومن أجل الانتصار فى معركة الانتاج ومن أجل تحقيق الاكتفاء الذاتى ومن أجل ضمان عدالة فى المبادلات التجارية وارساء قواعد اقتصاد عالمى جديد • وفى هذا الصدد يقول الاستاذ المرحوم مالك ابن نبى « على المسلمين أن يتخلصوا من الاسباب التى تجعلهم اقل فعالية فى أوجز مدة ممكنة ، بالطرق التى يفرضها عصر تسريع التاريخ ، وهذا يعنى ، فى مجال الاقتصاد ، أن يوحدوا امكانياتهم وحاجاتهم حتى يحققوا فى اسرع ما يمكن شروط الاكتفاء الذاتى أي الحلقة الاقتصادية التى تستطيع الانغلاق على نفسها ، اذا ما اقتضت الضرورات الداخلية والخارجية ذلك » •

وأملنا أن يكون مطلع القرن الخامس عشر فاتحة عهد جديد فى ميدان الخلق الحضارى والانتفاضة ضد الحلول الجاهزة التى لا تتلاءم وطبيعة المجتمع الاسلامى ومطامحه • ويحتاج المفكرون المسلمون بهذا الصدد وكذا القادة السياسيون الى شجاعة فكرية هائلة وقوة عزيمة خارقة وثقة بالنفس • « وان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » •

ان المبادرة التى شرع العالم الاسلامى فيها هامة وخطيرة فى نفس الآن ذلك أنها تهدف الى بناء حياة جديدة فى مستهل القرن الخامس عشر وفى العقدين الاخيرين من القرن العشرين • وانها مهمة عسيرة ونحن نحس اكثر من غيرنا بالمجهودات الجبارة (من الناحية المادية البحتة) التى يتطلبها اللحاق بركب الحضارة واجتياز الهوة التى تفصلنا عن العالم المتطور تكنولوجيا وعلميا عندما يتعلق الامر ببناء السدود وتنظيم المجتمعات الصناعية وارساء المؤسسات التقنية وتعميم العلاج والتعليم • غير أننا نحس أقل بالمهمة التى لا تقل خطورة ولا صعوبة عن

سابقتها وتنحصر فى المجالين الدينى والايديولوجى • وليس بالامر الهين تعويض خسارة بضعة قرون فى هذين المجالين ، اذ يبقى على كاهل المسلمين ان يصيغوا دلالة الدين فى عالم جديد يحتوى على مدود ومجمعات صناعية ومؤسسات علمية ومؤسسات تضمن التعليم والعلاج للجميع مع ما يتطلبه كل ذلك من مسؤولية • وقد تبدو هاته المهمة عديمة الاهمية بالنسبة لاناس يعزلون الدين عن الحياة غير أن الاسلام كما يدركه ذلك الجميع يهدف الى تطبيق الاوامر الاخلاقية على الحياة اليومية ويربط بين الدين والدنيا برباط لا تنفصم عراه •

الوقف ومكانته فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالجزائر

أواخر العهد العثمانى وأوائل الاحتلال الفرنسى (*)

1 ـ تعريف الوقف وتحديد أحكامه :

ظلت الاوقاف ، أو الاحباس كما تعرف فى أقطار المغرب العربى باعتبارها **تقليدا اسلاميا عريقا تشكل احدى مظاهر** الحضارة العربية الاسلامية **التى تميز بها العهد العثمانى** بالجزائر **وتاثرت بها أوضاع البلاد** الجزائرية اثر تعرضها للغزو الفرنسى عام 1830 م ، بحيث **لا يمكن لاى مؤرخ أو باحث التقليل من أهمية قضايا الوقف أو اهمال النتائج المترتبة عليه ؛ وهذا ما دفعنى الى تناول مكانة الوقف فى الجزائر كما شجعنى على التعرف على آثاره فى مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية أو الثقافية وحتى السياسية** منها ، وحتى ناخذ فكرة واضحة على أوضاع الوقف بالجزائر أواخر العهد العثمانى وأوائل الاحتلال الفرنسى يجدر بنا أن نشير فى مستهل هذا البحث الى طبيعة الاحكام الشرعية للوقف وما تميزت به من أحكام خاصة ومعاملات محددة . **فالوقف باعتباره عقد لعمل خيرى ذى صبغة دينية** (1) ، يقوم على توفر **الواقف** الذى له أهلية التبرع (2) بما يملك من ذات **أو منفعة** ، وعلى وجود **الموقوف** ، وهو المنفعة التى تصرف على سبيل الحبس ، فضلا على توفر **الموقوف عليه** ، وهو المستحق لصرف تلك الذات أو المنفعة ولو كان مصلحة عامة كالمسجد والمدرسة والزاوية وغيرها ، هذا مع اشتراط **صيغة الوقف** ولو كانت بكتابة على مسجد أو مؤسسة خيرية .

فبفضل هذه الاسس والاركان كما تعرف فقهيا يأخذ الوقف مفهومه الشرعى ويصنف حسب الفرص من صرف المنافع المترتبة عليه ، **فمنه ما هو وقف عام** يعود أساسا على المصلحة العامة التى حبس من أجلها **ومنه ما هو وقف خاص** لا يتحول صرف منفعته على المصلحة العامة التى حبس على أساسها الا بعد انقراض العقب أو انقطاع نسل صاحب الحبس اى الواقف ، وهذا

(*) قدم هذا البحث فى مؤتمر تاريخ الحضارة العربية الاسلامية المنعقد بجامعة دمشق فى شهر أفريل 1981 بمناسبة الاحتفال بحلول القرن الخامس عشر الهجرى

الصنف الاخير من الوقف يعرف بالوقف الذرى أو العائلى أو الاهلى وهو الشائع فى أغلب أقاليم الامبراطورية العثمانية ومن ضمنها الايالة الجزائرية وهو عكس الوقف الخيرى الذى سبقت الاشارة اليه . وقد نتج عن هذا التنوع فى الوقف تباين نظرة كل من المذهب الحنفى والمذهب المالكى الى الهدف والغاية من صرف الحبس ، فالمذهب المالكى الذى يتمسك به غالبية الجزائريين كان يرى ضرورة صرف الحبس على المصلحة العامة التى حبس من أجلها مباشرة بدون قيد أو ارجاء أو تردد بينما المذهب الحنفى الذى كانت تتميز به الطائفة التركية وجماعة الكراغلة وبعض الحضر بالمدن الكبرى فى الجزائر كان يسمح بجواز انتفاع الموقوف وعقبه بما حبسه من وقف بحيث لا يعود الوقف الى الغاية التى حبس من أجلها الا بعد انقراض الورثة المنصوص عليهم فى وثيقة الحبس . وعلى كل فان التسهيلات التى يقرها المذهب الحنفى دفعت غالبية الجزائريين الى تحبيس أملاكهم حسب أحكام المذهب الحنفى حتى يتمكنوا من الانتفاع بها هم وعقبهم من بعدهم مع كونهم من اتباع المذهب المالكى وهذا ما تؤكده أغلب الوثائق الشرعية الخاصة بالوقف التى تعود الى العهد العثمانى (3) . والتى نجد فى بعضها فتاوى شرعية تشير الى موقف كل من المذهب المالكى والحنفى من قضية الوقف ، قبل الاخذ برأى أبى يوسف الحنفى يجيز الوقف الاهلى (4) . هذا ما دفع حمدان خوجة الى القول فى كتابه المرآة : أن الفقهاء بالجزائر قد أجمعوا على العمل بمقتضى المذهب الحنفى الذى يجيز حبس الهبات المشروطة وذلك ليكثروا من مردود الهدايا لصالح الفقراء (5) .

اما كيفية الانتفاع بالحبس واستغلاله لفائدة العقب اذا كان وقفا أهليا أو لمصلحة الغرض الذى حبس من أجله فى حالة ما اذا كان الوقف خيريا فتراعى فيه الاحكام الشرعية التى ترى فى صيغة الوقف صفة اللزوم والديمومة Inaliénabilité بحيث لا يمكن التراجع فيه أو الغاؤه أو تحويله الى منفعة أخرى غير التى حبس من أجلها فلهذا تجيز الاحكام الشرعية بيعه أو اعارته أو رهنه وقد نص على ذلك أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد وعامة العلماء (6) بان الوقف عقد مؤيد لا يمكن تحويله من الغرض المحبس عليه أو هذا ما نص عليه ابن عرفة بقوله : « الحبس اعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازما بقاؤه فى ملك معطييه ولو تقديرا » (7) . وقد

استثنى العلماء عند الضرورة كـراء الحبس أو استبداله ، فيسمح استبدال الحبس فى حالة توقع فساده أو ضياعه أو انقطاع مردوده أو عجز مستغله عن اصلاحه وترميمه ما لم يكن مسجدا ، وقد أشار الى ذلك صاحب التنوير بأنه : « يجـوز شرط الاستبدال بـه أرضـا أخرى ... فاذا فعل صارت الثانية كالاولى فى شرائطها وان لم يذكرها » (8) كما يسمح بكرائه كراء مؤبدا لضمان مردوده والمحافظة عليه ، وفى هذه الحالة يصبح كل ما يستخدمه متولى الكراء من بناء وفرس ملكا شخصيا له شريطة أن يلتزم بخدمته وصيانته ، وبذلك تراعى مصالح متولى الكراء ويحافظ فى نفس الوقت عن رغبة الواقف ويحترم وصية صاحب الحبس والغرض الذى حبس من أجله . وهذا ما يسمح لنا أن نصـف الوقف بانه ملكية انتفاع وليس امتلاك حيث أن المحبس ليس له سوى حـق التمتع بفوائد الحبس وتعرف عمليـة كراء الحبس التى قد تكون مـؤبد أو محدد بعدد من السنين قد بلغ فى كثير من الاحيان التسعين سنة (9) ، بالعناء لدى اهالى الجزائر وبالانزال فى ايـالة تـونس أو التنكير فى اقاليم المشرق العربى . ومما يلاحظ استبدال الحبس أو كرائه لا يمكن أن تتم الا بعد تزكيتها من وكيل الوقف اذا كان الوقف خيريا أو متولى الوقف اذا كان الوقف اهليـا وبعد استشارة أهل الرأى والمشورة فى البلد وبعد اقـرار صريح مـن المجلس العلمى الذى كان ينعقد فى الجامع الكبير فى كل الحواضر الكبرى مرة كل أسبوع هذا ولا يسجل عقد الكراء او الاستبدال الا بعد وضع الحبس فى المزاد العلنى لتقدير مقدار العنـاء (الكراء) المتوجب عليـه . وذلك حتى لا تتخـذ عمليـة الاستبدال أو الكراء مطية لابطال الحبس أو الغـائه أو تحـويله عـن غرضه ، لا سيما وأن كثيرا من الاحباس تحولت عن اغراضها بعامل الزمن الى ملكيـات خاصة . وهذا ما تفطن له الفقهاء اذ اشار شارح الدر المنتقى الى ذلـك بقـوله : « ونحن لا نفتى بـه وقـد شاهدنا فى الاستبدال مـن الفساد ما لا يعـد ولا يحصى ، فان ظلمة القضاء جعلوه حيلة الى أبطال اكثر أوقاف المسلمين » (10) ومما يلاحظ أن متولى الحبس لا يلـزم الا بدفع نصف الكراء اذا تعهد باصلاح الحبس وترميمه . بينما نصف الكـراء المتبقى عليه يسدد به نفقات الاصلاح ، ولهذا بعد أن يستوفى صاحب العنـاء ما صرفه عن الحبس يصبح بعد ذلـك ملزما بدفـع الكراء كامـلا . والجدير بالذكر أن هذه العملية لا تتم الا بعد أن

يحقق وكيل الحبس من ضرورة هذا الترميم ويقر فائدته يستشير عادة شيخ البنائين في ذلك ، أما اذا تهدم الحبس ولم يعد بناؤه أو أهمل تماما فان الارض التي كان مقاما عليها تعتبر حبسا لاتباع ولا تشرى وانما يحدد لها عناء مؤبد محافظة على أحكام الوقف واحتراما لطبيعته .

2 ـ وضعية الحبس بالجزائر أواخر العهد العثماني :

بعد هذه النبذة المقتضبة عن أحكام الوقف الشرعية ننطرق الى وضعية الوقف بالجزائر أواخر العهد العثماني وأوائل الفترة الاستعمارية . هذه الوضعية التي اتصفت بأوضاع خاصة وأحوال مميزة نجملها في النقاط التالية :

1 ـ يعتبر **الوقف في حد ذاته ظاهرة اجتماعية اسلامية عرفتها الجزائر في الفترة الاسلامية** التي سبقت مجيء الاتراك واستحواذهم على مقاليد الامور ، غير **اننا لا نملك الآن الا النزر القليل من الوثائق التي تعود الى تلك الفترة .** خاصة تلك التي تهم القطاع القسنطيني أواخر العهد الحفصي والجهات الغربية من الجزائر تحت حكم **الزيانيين** وهي في أغلبها تعود الى القرن الخامس عشر مثل الوثيقة التي تسجل **أوقاف مسجد ومدرسة سيدي أبي مدين بتلمسان والتي يرجع تاريخها الى عام 906 هـ 1500** م والتي توزع أوقاف أبي مدين على الوجه التالي : 9 بساتين و 4 مزارع وقطعتا أرض وطاحونتان (2) وحمام واحد داخل تلمسان ونصف الحمام القديم بالمنصورة وبالاضافة الى نصف بستان وقطعة أرض للحراثة تقدر مساحتها بعشر زويجات (100 هكتار) وأراض صالحة للزراعة تقدر مساحتها بعشرين زويجة (200 هكتار) (12) ، **كما أن أقدم وثائق أوقاف الجامع الاعظم بالجزائر العاصمة لا تتجاوز عام 947/1540 (12) .**

2) ـ **تميزت الفترة العثمانية بالجزائر بتكاثر الاوقاف وانتشارها في مختلف أنحاء البلاد وذلك بفعل الظروف** التي عرفتها الجزائر **منذ أواخر القرن 15 وحتى مستهل القرن 19** ، والتي **اتصفت** أساسا **بازدياد نفوذ الطرق والزوايا وتعمق الروح الدينية لدى السكان** الذين وجدوا فيها أحسن وسيلة وخير **عزاء أمام مظالم الحاكم وانعدام الامن وهجمات الاساطيل الاوروبية على السواحل وتكرر الكوارث الطبيعية ،** فضلا على أن **الحكام الاتراك الذين رأوا في الرابطة الدينية عاملا قويا**

مكنهم من بسط نفوذهم وتدعيم مكانتهم لدى الاهالى ، الامر الذى دفعهم فى كثير من الاحيان الى تحبيس أملاكهم اظهارا للورع والتقوى وتقربا للمرابطين واكتسابا لتأييد رجال الدين ، فعلى سبيل المثال نذكر أن الباى حسين بن صالح عام 1221 (1807) • عندما خرج فى احدى حملاته العسكرية أخذ على نفسه نذرا يتعهد فيه « ببناء دار الولى سيدى على العريان والسيد محمد بن سيدى سعيد واصلاح مسجده ، وتحبيس أوقاف يستعين بها على رعاية الطلبة والغرباء وأبناء السبيل » (13) ، **وذلك حتى يكسب تأييد السكان المحليين ويضمن معاضدتهم له فى حملته العسكرية على الجهات الشرقية من بايليك قسنطينة** ومما يلاحظ أن الاوقاف ما لبثت أن **تزايدت فى أواخر العهد العثمانى حتى أصبحت تشكل نسبة كثيرة من الممتلكات الزراعية الحضرية منذ أواخر القرن 18م** وهذا ما تؤكده لنا سجلات الاوقاف ووثائق الاحكام الشرعية وأحسن دليل على هذا التطور الذى عرفته الاوقاف فى الجزائر العثمانية نستخلصه من وضوح **أوقاف سيدى عبد الرحمن الثعالبى** التى لم تتجاوز منذ أواخر القرن 15 وحتى بداية القرن 18 هـ **احد عشر وقفا** ثم ما لبثت أن تزايدت بعد أن اكتسب صاحبها شعبية وصيتا فى أوساط الاهالى منذ أواخر القرن 18 م حتى أصبحت **عشية الاحتلال** الفرنسى يناهز عدد أوقافها على **82 وقفا** (14) ، ونفس التطور عرفته كثير من أوقاف المؤسسات الدينية مثل أوقاف **الجامع الاعظم** بالجزائر العاصمة التى لم تتجاوز **150 عقدا خلال 210 سنة** (1540 1750) ، ثم ما لبثت أن تزايدت منذ **نصف القرن 18 حتى أصبحت سنة 543/1841 أى بزيادة 384 عقدا** خلال الفترة الممتدة من 1752/1842 م (15) **أصبح الوقف بالجزائر بعد انتشاره وتكاثره فى أواخر العهد العثمانى مؤثرا على مختلف أوجه الحياة** بحيث أصبحت الاوقاف تشتمل على الاملاك **العقارية** والاراضى **الزراعية** وتضم العديد من **الدكاكين والفنادق وأفران الخبز والعيون والسواقى والحنايا والصهاريج والطواحين وأفران معالجة الجير** ، هذا بالاضافة الى الكثير من الضيعات والمزارع والبساتين والحدائق حتى أن أحد القنصل الفرنسى فاليير الذى تعرف على الجزائر عام 1781 اكد على « أن مؤسسة أوقاف الحرمين الشرفين تمتلك جل مساكن مدينة الجزائر وأغلب البساتين المجاورة لها » (16) ولم يقتصر أمر انتشار الحبس على مدينة الجزائر

وضواحيها بل شعلت أغلب جهات البلاد الجزائرية ، بحيث اشتهرت كثير مـــن المدن والفحوص بكثرة أوقافها مثـــل مازونـة وتلمسان ومعسكـر وقسنطينة وعنابة وبجاية والمدية ومليانة والبليـدة والقليعة. ففي مدينة قسنطينة وضواحيها كان عدد الأملاك المحبسة تـزيد عـلى : 17 وقفا منها 10 رحي واقعة على وادي الرمال، 3 ابار، املاك مختلفة وبساتين واراضي زراعية (17).

4) ـ لم تعرف الاوقاف بالجزائر العثمانية تنظيما محكما واشرافا فعالا الا في فترة متأخرة نسبيا تعود الى أوائل القرن 18 ، وهذا ما تؤكده كثير مـن الاشارات الواردة ضمن وثائق الوقف مثل الوثيقة التي تسجل الاوقاف بمدينة قسـنطينة وتتعرض للاوضاع المتـردية التي كانت عليها والمبادرة التي قام بها صالح بـاي من اجل ضبطها وتسجيل مردودها في عـدة دفـاتر توزع بـين الموظفين والمكلفين برعايتها وهم ناظر بيت المال وشيوخ البلد والقاضي الحنفي والقاضي المالكي . وحسب ما يفهم مـن هذه الوثيقة المؤرخة في أواسط ربيع الاول عام 1190 افريل عـام 1776 م . أن الهدف مـن هـذه التنظيمات التي خضعت لها الاوقاف كان الغرض منـه وضع حد للتهاون والتحايل على الاوقاف وان العملية انتهت الى وضع احصـــاء دقيق وضبط محكم وهذا ما تنص عليـه الوثيقة في الفقرات التالية : « الحمـد لله ولما وقع التقصير من وكلاء مساجد قسنطينة ولم يكن لهم اعتنـــاء بشـأن الاوقاف وفرطوا في ذلك غاية التفريط وضاع الكثير منها ... وبلغ أمر ذلك الحضرة المعظم الاسعد المنصور سيدنا صالح باي أيده الله تعالى ... فألهمه الله الى احياء ما اندرس من المساجد والاوقاف ... أمـــر حينئذ قضـاته والمفتيين ان يبحثوا على أوقاف المساجد وعلى المساجد التي دثرت ويثبتوا ذلك باربع سجلات متماثلة فامتثلوا أمـــره وبذلوا جهدهم في البحث عـن أوقاف المساجد وعن المساجد التي دثرت » (18)

5) ـ اتخذت تنظيمات الاوقاف شكل ادارة محلية مميزة وجهاز اداري مستقل محدد الصلاحيات يتميز بمهارة المشرفين عليه وكفاءة القائمين به (19) فرغم أن العـديد مـن موظفي الاوقاف كانـوا يخضعون مباشرة للسلطة الحاكمة بعد ان يعينوا بأمر من الباشا (الحاكم) او باقرار منه بعد تزكيتهم من طرف أعضاء الديوان وكبـار المـوظفين (20) الا أن التصرف في شـؤون الاوقاف واتخـاذ الاجراءات العملية المتعلقة بها كانـــت

تعود الى المجلس العلمى الذى ينعقد للبث فيها عادة كل يوم خميس من كل أسبوع فى الجامع الكبير بحضور المفتى المالكى والحنفى والقاضى المالكى والحنفى وبعض الموظفين الآخرين كوكيل بيت المال وشيخ البلد · وللمجلس العلمى صلاحيات مطلقة فى التصرف فى شؤون الاوقاف ومراقبة الموظفين القائمين عليه كالشيخ الناظر وجماعة الوكلاء والكتاب (الخوجات) والاعوان والشواش والحزابة (21) (الطلبة الذين يقرأون القرآن بالمسجد) ·

ويعتبر الشيخ الناظر او المتولى او الوكيل العام كما تعرفه بعض المصادر (22) يعتبر الموظف الرئيسى بمصلحة الاوقاف فهو يكلف بالاشراف على أوجه الانفاق وحفظ مصادر الاوقاف ومراقبة دفاتر الحسابات الخاصة بالمؤسسة التى تقع تحت رعايته مباشرة ويأتى فى درجة ثانية من حيث السلم الادارى لموظفى الاوقاف وكلاء المدن الكبرى والاحياء الرئيسية بمدينة الجزائر فهم مكلفون بجمع المحاصيل وقبض المداخيل وصرف المرتبات وصيانة الحبس وتقديم حساب مفصل عن ذلك لناظر الاوقاف كل ستة أشهر على ما تحت أيديهم من أملاك محبسة كما كانوا ملزمين ايضا بضبط حسابات كل سنة وتسجيلها فى الدفاتر الرسمية بعد طرح مصاريف شؤون الصيانة والخدمات المختلفة (23) ·

وقد جرت العادة على أن يقدم هؤلاء الوكلاء عرضا عن خدماتهم بمحضر وكيل بيت المال وشيخ البلد حتى يمكن ان يطلع عليه المجلس العلمى بعد أن يتكلف الشيخ الناظر بتقديمه له ونظرا لطبيعة عمل موظفى الاوقاف وتزايد أهميتهم اضطر الشيخ الناظر الى توظيف كاتب خاص يعرف بالسايجى أو الخوجة لضبط حسابات الاوقاف التى يشرف عليها كما اضطر الوكلاء الى الاستعانة بجماعة العدول الذين يعينون من طرف القضاة وذلك لاداء مهامهم المختلفة ، ويلحق بهؤلاء الموظفين جماعة الشواش والقييمين المكلفين بأمور الحراسة والقيام بالخدمات الضرورية ·

والجدير بالذكر أن انتشار الاوقاف وتزايد أهميتها جعل بعض الموظفين الآخرين يتولون الاشراف عليها مثل شيخ البلد والمزوار وبيت المالجى (24) ، فشيخ بلد قسنطينة توسعت صلاحيته فى أواخر العهد العثمانى فاصبح يشرف على الاوقاف بالجامع الكبير بقسنطينة ، كما أصبح يتصرف بأوقاف الحرمين الشريفين بنفس المدينة الامر الذى سمح له أن يحتكر عوائد ومغارم قبيلتي أولاد جبارة وبنى وافطين حتى يتمكن من

الانفاق على الاوقاف التى وضعت تحت رعايته بينما خصصت منح سنوية لباقى موظفى الاوقاف فكل من الوكيل أو الناظر كان يخصص له عطاء سنوى لا يزيد على 40 ريالا (25) مما اضطر كثيرا من النظار **ووكلاء الوقف الى البحث عن مصادر أخرى قد تكون فى أغلب الاحيان على حساب مردود أوقاف المؤسسة** التى يقومون بخدمتها وهذا ما لاحظه موظفو الادارة الفرنسية اثر الاحتلال مباشرة (26) كما كان سببا رئيسيا فى تحول كثير من الاوقاف عن الغرض الذى حبست عليه لتصبح من الاملاك الخاصة تحت حجج مختلفة واعتبارات متباينة وأساليب ملتوية ٠

ج) ـ المؤسسات الدينية التى تتوزع عليها الاوقاف الجزائرية ٠

بعد هذه المميزات التى اتصفت بها أوضاع الاوقاف بالجزائر العثمانية ، نذكر أن الاوقاف الجزائرية كانت تتوزع على عدة مؤسسات خيرية ذات طابع دينى وشخصية قانونية ووضع ادارى خاص ، وهى حسب كثرتها تصنف حسب الترتيب التالى :

1) ـ أوقاف الحرمين الشريفين : كانت تشكل أغلب **الاوقاف الخيرية أو الاهلية** وذلك للمكانة السامية والمنزلة الرفيعة التى خص بها سكان الجزائر البقاع المقدسة بالحجاز وقد كانت هذه الاوقاف من الكثرة اذ كانت تبلغ نسبتها فى أواخر العهد العثمانى ثلاثة أرباع الاوقاف الموجودة آنذاك (27) بحيث كان عدد أوقاف الحرمين بمدينة الجزائر وضواحيها عشية الاحتلال الفرنسى يتراوح ما بين 1357 و 1558 ملكية عقارية تبعا للمصادر المختلفة (28) التى نرجح منها احصاء دوقو (29) التى أعتمد فيه على سجلات الاوقاف والذى ذكر فيه نوع الحبس ومردوده السنوى كما يلى :

ـ 840 منزلا مردودها السنوى 26653,80 ف ٠

ـ 258 دكانا مردودها السنوى 4278,60 ف ٠

ـ 33 مخزنا مردودها السنوى 449,70 ف ٠

ـ 11 فرنا للخبز مردودها السنوى 102,60 ف ٠

ـ 06 طاحونات مردوها السنوى 97,50 ف ٠

ـ 06 فندق مردودها السنوى 185,70 ف ٠

ـ 04 مقاهى مردوها السنوى 161,70 ف٠

ـ 82 غرفـة مـردودها السنـوى 846,65 ف ٠

ـ 57 بستانا مـردودها السنـوى 1257،45 ف ٠

ـ 62 ضيعـة مـردودها السنـوى 1830,45 ف ٠

ـ 03 افران جير مردوها السنـوى 200,45 ف ٠

فيكون المجموع : 1357 ملكا عقاريا مردوده السنوى 36013،45 ٠ يضاف لها كراء (عناء) 201 وقفا آخـرا يقـدر محصوله بـ 7209،25 بحيث يصبح عدد الاملاك المحلية عـلى الحرمين الشريفين 1558 ومردودها السنوى 43222,70 ف٠

والجدير بالذكر ان جزءا ضئيلا من عوائـد أوقاف الحرمين كان يتجـاوز 15,000 ف٠ سنويا (30) يرسـل الى البقاع المقدسة بواسطة أمـير ركـب الحجاز أو يسلم لمبعوث شريف مكة عند زيارته للجزائر بينما ينفق الباقى على المحتاجين المقيمين بالجزائـر وأبنـاء السبيل أو يعطى كاعانـة للمنتسبين الى الحرمين الشريفين المقيمين بالجزائر أو الوافدين عليها من الحجاز كما يساهـم فى بعض الاحيان بجزء من عوائد أوقاف الحرمين فى عتق المسلمين الذين وقعوا فى الاسر ومما يلاحظ أن أوجه صرف عوائد أوقاف الحرمين التى سبقـت الاشارة اليها لا تتم فى الغالب الا بعد تسديد نفقات الصيانة وأجور الموظفين اذ كانت مؤسسة الحرمين ملزمة بصرف منحة سنوية للموظفين القائمين بهـا وبالانفاق على ثلاثة مساجد حنفية بمدينة الجزائر (31) وصيانتها ٠

2) ـ أوقاف الجامع الاعظم وبقيـة المساجد المالكية الاخرى : وهى من حيث كثرة عددها ووفـرة مردودها تحتـل الدرجة الثانية بعـد أوقاف الحرمـين ولعل هذا يعود أساسا الى الدور الذى كان يلعبه الجامع الاعظم فى الحيـاة الثقافية والدينية ولكثرة عدد المساجـد المالكية فى الحواضر الجزائرية الكبرى ففى مدينة الجزائر مثلا كان عدد المساجد المالكية يبلغ 92 مسجدا (32) كل مسجد خصصت له أوقاف تنفق عليه وكان فى طليعة هذه الاوقاف الخاصة بالمساجـد الحنفية أوقاف المسجـد الاعظم الـتى بلغت من الكثرة والضخامة بحيث كانت تناهز 550 وقفا كانت تشتمل على المنازل والحوانيـت والبساتـين والمـزارع والضيعات وغيرها ويعود التصرف فيها للمفتى المالكى الذين يوكل أمر تسيير شؤونها الى الوكيل العام الذى يعاضده وكلان أحدهما متكلف بأوقاف المؤذنين وآخر يهتم بأوقاف الحزابين ٠

3) أوقاف سبل الخيرات :

أسست حسب بعض المصادر عام 999 هـ 1584 م ، على يد شعبان خوجة (33) وهي مخصصة للانفاق على المساجد الحنفية الواقعة بمدينة الجزائر والبالغ عددها ثمانية مساجد (الجامع الجديد وجامع سفير وزاويته وجامع دار القاضي وجامع كشاوة وجامع الحاج شعبان خوجة وجامع الشبارلية ومسجد حسين داي ومسجد علي خوجة الواقعين بحصن القصبة) .

ويعود أمر التصرف في أوقاف سبل الخيرات الى المفتي الحنفي الذي يقوم بالصلاة ويتولى الافتاء بالجامع الجديد (المسجد الرئيسي لاتباع المذهب الحنفي بالجزائر) الذي اسس مكان مدرسة المولى أبي عنان سنة 1070 هـ/1660م .

وتعود أهمية أوقاف سبل الخيرات رغم قلة عدد المساجد الحنفية وكون غالبية الجزائريين من اتباع المذهب المالكي ، الى غنى الطائفة التركية وجماعة الكراغلة وبعض العائلات الحضرية المنتسبة للمذهب الحنفي وهذا ما جعل عدد أوقاف سبل الخيرات يناهز 331 وقفا منها 119 ملكية عقارية 212 عناء توفر مدخولا سنويا يقدر بـ180000 ف وذلك قبل ان تتعرض الى ضغط الادارة الاستعمارية فتتضاءل الى 175 وقفا في السنوات الاولى للغزو الفرنسي(34) .

4) أوقاف الاولياء والاشراف واهل الاندلس :

حظي أغلب الاولياء (المرابطين) بأوقاف خصصت للانفاق على أضرحتهم ، ففي مدينة الجزائر كانت تتوزع أوقاف الاولياء على 9 أضرحة 8 منها تقع داخل مدينة الجزائر بينما واحد وهو ضريح سيدي عبد الرحمن يقع خارجها بنواحي جرجرة . وتاتي في مقدمة أوقاف الاولياء أوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي كانت تقدر في السنوات الاولى للاحتلال الفرنسي بـ 69 وقفا مردودها السنوي 6000 فرنك تنفق على القائمين على الضريح ويوزع قسم منها على فقراء المدينة كل يوم خميس بنسبة فرنك الى ثلاثة فرنكات لكل فرد (35) .

أما الاشراف الذين كانت تنتسب الى جماعتهم 200 الى 300 أسرة (36) فقد يحظون بتقدير العامة ورعاية الحكام الذين خصصوا بعض الاوقاف لرعايتهم مثل الداي محمد بقطاش الذي اسس لفائدتهم زاوية عام 1121 هـ/1709 م وقد عرفت هذه الزاوية بزاوية الاشراف التي خصصت لها اوقاف كثيرة قبل ان تتعرض للتصفية من قبل الادارة الفرنسية عام 1832 م .

ولا تقل أوقاف أهل الاندلس عن اوقاف الاولياء والاشراف وذلك لاستقرار كثير من مهاجري الاندلس بالبلاد الجزائرية وامتلاكهم لثروات ضخمة نتيجة أعمال القرصنة والاشتغال بالزراعة ، وقد خص كثير منهم جامع الاندلس والزاوية الملحقة به الذي اسس في النصف الاول من السادس عشر بكثير من الهبات والاوقاف بلغت 40 ملكية و 61 [illegible] وكيل الاندلس (87)

5) اوقاف الجند والثكنات والمرافق العامة :

خصصت كثير من الاوقاف للانفاق على المعوزين من الجند وصيانة بعض الثكنات والحصون والابراج فضلا عن العديد من المرافق العسكرية الاخرى كالعيون والسواقي والحنايا والصهاريج والآبار ، وقد خصص لكل مصلحة من هذه المرافق العامة وكيل خاص يرعى اوقافها ويتعهد شؤونها مثل وكيل العيون والسواقي الذي كان مدخوله السنوى من الاوقاف التي يشرف عليها يبلغ 150,000 ف في السنوات الاولى للاحتلال (88) ٠

ولكي ناخذ فكرة واضحة عن مختلف اوقاف المؤسسات الدينية ونتعرف على مدى أهمية نفقاتها والفوائد التي توفرها نثبت الجدولين التاليين اعتمادا على المعلومات المتخلصة من الموظفين الفرنسيين الذين أوكل اليهم الاشراف على الاوقاف اثر الاحتلال وهما رغم كونهما تعودان الى السنوات الاولى من الاحتلال الا أنهما يعكسان واقع الاوقاف في الفترة التي سبقت الاحتلال مباشرة :

أ) ـ جدول عام لمصاريف أوقاف بعض المؤسسات الدينية حسب تقرير المدير المالي للادارة الفرنسية بالجزائر بتاريخ 30 سبتمبر 1842 مقدر بالفرنكات :

السنة	أوقاف الحرمين الشريفين	أوقاف سبل الخيرات	أوقاف أهل الاندلس
1836 ـ	105701,15	9750,40	ـ
1837 ـ	109895,99	13341,27	3870،80
1838 ـ	109937،25	13903،70	3973
1839 ـ	143068،62	12192,709	4141,24
1840 ـ	166495,25	12712	3384,20
1841 ـ	177268,91	10615,55	2775،20
المجموع	812367،17	72515،61	18734،20

جدول عام نتائض مردود أوقاف بعض المؤسسات الدينية من 1836 الى 1841 مقدر بالفرنكات :

السنة	الحرمين الشريفين	سبل الخيرات	أهل الاندلس
1836 ـ	107462,96	10019،33	92،22
1837 ـ	111038,46	13408,04	3988،50
1838 ـ	127895،65	13989,25	4098,54
1839 ـ	131941،13	14393،78	4063،98
1840 ـ	167585,44	15715،66	4017,85
1841 ـ	178815،19	14447,19	2823،10
المجموع	824788،83	81973,25	19879،19

د) تأثير الوقف على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر أواخر العهد العثماني •

وكان للوقف تأثير مباشر على النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية يمكن أن نلخصها فى النقاط التالية :

1) ـ النفقة على رجال العلم والمدرسين والطلبة فبفضل مردود الاوقاف والمداخيل التى يوفرها تمكن حكام الاتراك بالجزائر من ايجاد وسيلة ملائمة لتسيير بعض المصالح التعليمية والخدمات الثقافية التى لم تر الدولة ضرورة لرعايتها ولم تكن الخزينة العامة تهتم بالانفاق عليها مثل منح الطلاب وأجور المدرسين وجرايات القائمين على شؤون العبادة بالمدارس والزوايا والمساجد والاضرحة مثل الخطيب والامام والحزاب وقيم المكتب والمؤذن وصاحب تربة والند والشعال •

فباستثناء الجهات النائية والمناطق الجبلية التى كانت القبائل فيها تتكفل بالانفاق على أماكن العبادة والتعليم بها فان مردود الاوقاف كان يشكل المصدر الوحيد لرعاية الخدمات الثقافية والدينية بأغلب البوادى والحواضر الجزائرية ، التى كانت تزخر بالمساجد والمدارس ، فمدينة الجزائر مثلا كانت تتوفر على 106 مساجد أهمها الجامع الاعظم الذى يقوم بخدمته 19 مدرسا و 18 مؤذنا و 8 حزابين و 13 قيما (40) ، بالاضافة الى ثلاثة وكلاء يسهرون على تنظيم الاعمال به ، أما مدينة قسنطينة فكان عدد أماكن العبادة والتعليم بها ينيف عن 100 ، منها 35 مسجدا و 169 زاوية و 7 مدارس رئيسية 600 تلميذ منهم 150 من الارياف ، وكلهم يتقاضون منحة سنوية من وكيل الاوقاف تقدر بـ 36 ف للطالب (41) ، مع اعانة نصف سنوية تتألف من كمية من الزيت والشموع والبخور والسجاجيد (42) •

والجدير بالذكر أن فائض مردود الاوقاف كثيرا ما يستغل فى انشاء أماكن جديدة للعبادة والتعليم ، مثل زاوية الجامع الاعظم بالجزائر التى بنيت بفضل مردود الاوقاف عام 1639 هـ/29 ـ 1630 م ، وأصبحت تضم طابقين من الغرف خصصت للمدرسين وطلبة العلم مما جعل مدينة الجزائر تتوفر على ست زوايا مخصصة لاقامة الطلبة ، ثلاثة منها لطلبة الجهات الغربية واثنتان لطلبة النواحى الشرقية ، وواحدة افردت لطلبة مدينة الجزائر (43) ، وهذا ما ساعد على انتشار العلم والمعرفة فى أوساط السكان ، حتى أن احد الكتاب الفرنسيين وهو راينال الذى تعرف على الجزائر اثر الاحتلال كتب ما يلى : «كان

يوجد بمدينة الجزائر عدد كبير من المدارس التى تتميز بانتهاج طرق تعليمية تشابه كثيرا نظم التعليم بفرنسا ... ولا أظن انى مبالغ حين أؤكد أن التعليم الابتدائى كان أكثر انتشارا فى الجزائر منه فى فرنسا» (44)

2) ـ الاحسان الى الفقراء والتخفيف من شقاء المعوزين : يتكفل وكلاء الاوقاف بتقديم مبالغ مالية ومساعدات عينية للفقراء والمحتاجين ، فى شكل اعانات وصدقات تقدم فى أيام محددة ، ومواسم معينة مثل صدقة وكيل بيت المال التى توزع على 200 فقير كل يوم خميس (45) واعانة وكيل أوقاف سيدى عبد الرحمن الثعالبى التى يحظى بها عادة زوار الضريح من الفقراء وأبناء السبيل ، وتكفل وكيل الاوقاف بقسنطينة بتقديم نصيب من الزلابية لموظفى المساجد والطلبة فى منتصف شهر رمضان بعد أن يقتطع 300 ف من مدخول الاوقاف التى يشرف عليها لهذا الغرض (46) .

3) ـ الحد من المظالم والاحكام التعسفية للحكام : كان الوقف يوفر وسيلة فعالة للمحافظة على الثروات والاملاك والاراضى الموقوفة ، لكونها لا تباع ولا تشترى ولا يمكن حيازتها بتصرف أو استحواذ أو مصادرة ، وبالتالى لم يعد فى استطاعة الحكام وذوى النفوذ مد أيديهم الى الاملاك المحبسة ، فرغم الظروف الصعبة التى عرفتها الجزائر أواخر العهد العثمانى والتى دفعت كثيرا من الحكام الى اصدار قرارات العزل والمصادرة والتغريم فان جل الاملاك الموقفة ظلت فى مأمن من تعسفاتهم وتجاوزاتهم نظرا للاحكام الشرعية الصريحة فى شأنها والتى لم يجسر أحد على انتهاكها او التحايل عليها .

4) ـ تمكين العجزة والقصر من تسيير واستغلال مصادر رزقهم : وذلك لكون الحبس الاهلى يسمح لصاحبه بكرائه مقابل عناء محدد يقره المجلس العلمى بعد وضعه فى المزاد العنى ، مما مكن فئات من المجتمع من المحافظة على مصادر دخل قارة ومضمونة ، كالنساء المطلقات والارامل غير الراشدات وبعض المعوقين ، ولهذا السبب بالذات نلاحظ كثرة النساء اللاتى كن يحبسن أملاكهن فعلى سبيل المثال نذكر أن هناك اثنين وعشرين امراة وضعن أملاكهن وقفا على الجامع الاعظم بالجزائر (47) ، كما سمحت طريقة استغلال الحبس الاهلى استغلالا غير مباشر لبعض الجماعات من الموظفين المشتغلين بمهام وأعمال لا تسمح لهم بالتفرغ لاستغلال املاكهم كالمنخرطين فى

الجيش والمتولين لبعض الوظائف الخاصة ، من الانتفاع من ملكياتهم ، وهذا ما يؤكده توارد أسماء العديد من الموظفين والجند فى وثائق الحبس الاهلى (48) ·

5) ـ العمل على تماسك الاسرة الجزائرية وحفظ حقوق الورثة : فأحكام الوقف الاهلى تقر لصالح الحبس أن ينتفع هو وعقبه بالحبس حسب الوصية التى يسجلها فى وثيقة الوقف فلا يصرف الحبس على الغاية التى وقف من أجلها الا بعد انقراض العقب وانتفاء الورثة وهذا ما مكن الاسرة الجزائرية من المحافظة على تماسكها وحال دون اقتسام الاملاك أو بيعها أو رهنها من طرف الورثة ·

6) ـ رعاية وصيانة المرافق العامة :

ساهمت الاوقاف فى المحافظة على بعض المرافق العامة مثل العيون والسواقى والآبار والطرق والمسالك التى خصت بأوقاف عديدة كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وهذا ما وفر للسكان خدمات أساسية وأوجد وسائل ضرورية للحياة لم تكن الدولة تهتم بها ولم يكن الحكام يحرصون على توفيرها ، ففى مدينة قسنطينة كان وكيل أوقاف العيون يصرف حوالى 500 ف لنقل الماء الى الاحواض السبعة المنتشرة وسط المدينة بنسبة حمولتين لكل حوض يوميا تكلف حمولة الفل الواحد 0,25 ف (49) ، وفى مدينة الجزائر ساهمت الاوقاف فى احداث كثير من العيون حتى بلغ عددها مائة بالمدينة وضواحيها فى منتصف القرن 18 م (50)

7) ـ انشاء وترميم الثكنات والتحصينات المختلفة :

كان لعائدات الاوقاف الفضل فى تشييد العديد من الثكنات والحصون والابراج والاسوار والبطاريات قصد الدفاع عن البلاد ضد الهجمات البحرية الاوروبية وغارات القبائل داخل البلاد وكان أكثرها يتركز بمدينة الجزائر والجهات القريبة منها ، ففى وسط المدينة كانت الثكنات السبع تنال نصيبا وافرا من عائدات الاوقاف تنفقه على رعاية الجند وصيانة المرافق بها · وفى الجهات القريبة منها كانت الحصون المختلفة تنتفع بما يخصص لها من أوقاف مثل حصن تافورة (باب عزون) وحصن مولاى الحسن (الامبراطور) وبرج الزوبية (البرج الجديد) وحصن سيدى تقليلالت (حصن الانكليز) وبرج العتار (المرسى) وبرج قامة الفول (حصن الانكليز) الذى نقتبس من وثيقة الحبس الخاصة به نصا (51)

على سبيل المثال نتعرف من خلالها عن نوعية هذه الاوقاف الخاصة بالحصون ، وقد جاء في هذه الوثيقة ما يلي : « وبعد ان كان المكرم مصطفى باشا في التاريخ ابن المرحوم ابراهيم أحدث بقامة الفول خارج الوادي برجا معدا لمحاربة الكفار وكان مما رامه السيد مصطفى باشا من الحسنات استجلاب الماء للبرج من عين ماء جنته الكائنة بفحص زفارة المعروفة بجنة السناجي لمرور الماء ان يبتاع من الجنة الى أسفل جنته بتاريخ أوائل محرم 1195 هـ ... وقد انفق لتحبيس الماء على حصنه مقدار من المال قدر بـ 148 دينار ذهبا مقسطه على أماكن مرور ماء الساقية الى الحوض » .

هـ) ـ موقف الفرنسيين من الوقف في الجزائر : نظرت سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر الى الوقف على أنه أحد المشاكل العويصة والقضايا الصعبة التي تحد من سياسة الاستعمار وتتنافس مع المبادىء الاقتصادية التي يقوم عليها ، وذلك لكون الوقف كان في حد ذاته جهازا اداريا ووسيلة اقتصادية فعالة تحول دون المساس بالمقومات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية للجزائريين ، وهذا ما دفع قادة الجيش الفرنسي للعمل على مراقبة المؤسسات الدينية وتصفيتها والاستيلاء على الاحباس التابعة لها باعتبارها أحد العوائق التي كانت تحول دون تطور الاستعمار الفرنسي وتحول دون نجاحه وهذا ما دفع أحد الكتاب الفرنسيين الى القول : « بأن الاوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتنافى مع المبادىء الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر (52) ، ولهذا السبب بالذات عملت الادارة الفرنسية جاهدة لاصدار قرارات ومراسيم تنص على نزع صفة المناعة والحصانة عن الاملاك المحبسة ، هذه الحصانة التي لم يتردد أحد الكتاب الفرنسيين من وصفها بأنها تشكل أحد العوائق التي لا يمكن التغلب عليها والتي تحول دون الاصلاحات الكبرى التي هي وحدها القادرة على تطوير الاقليم الذي اخضعته أسلحتنا وتحويله الى مستعمرة حقيقية » (53) .

« l'inaliénabilité des biens habous ou engagés est un obstacle invincible aux grandes amélioration qui seules peuvent transformer une véritable colonie, les territoires conquis par nos armes ».

كان الهدف من تلك القرارات والمراسيم ادخال الاوقاف في نطاق التعامل التجاري والتبادل العقاري حتى يسهل للاوروبيين امتلاكها بعد أن وضع الجيش الفرنسي بالجزائر العاصمة في السنوات الخمس الاولى للاحتلال يده

على 27 مسجدا و 11 زاوية ومصلى (54) وكان أول قرار فرنسي يتعلق بالاوقاف قد صدر فى 8 سبتمبر 1830 وتضمن بنودا تنص على أن للسلطات العسكرية الفرنسية الحق فى الاستحواذ على أملاك موظفى الادارة التركية السابقة وبعض الاعيان من الكراغلة والحضر بالاضافة لبعض الاوقاف التابعة لمؤسسة أوقاف الحرمين وهذا ما أثار سخط واستنكار رجال الدين والعلماء واعيان مدينة الجزائر الذين رأوا فى هذا القرار انتهاكا صريحا للبند الخامس من معاهدة تسليم الجزائر (4 جويلية 1830) وكان فى طليعة المحتجين المفتى ابن العنابى ، مما حال دون مصادرة أوقاف الحرمين ٠

ثم تلا هذا القرار مرسوم فى 7 ديسمبر 1830 يخول للاوروبيين امتلاك الاوقاف ، عملا بتوصية كل من فوجرو ونلاندان الموظفين بمصلحة الاملاك العامة . والرامية الى وضع الاوقاف تحت مراقبة المدير العام لمصلحة الاملاك العامة السيد جيراردان ، مع ابقاء المشرفين عليها من الوكلاء ، وهذا ما اعتبره رجال الدين وبعض الاعيان مخالفا للاحكام الشرعية ومنافيا للاتفاقيات المنصوص عليها فى معاهدة التسليم السابقة الذكر وكان فى طليعتهم المفتى محمد بن محمود ابن العنابى وابن الكبابطى وحمدان خوجة وبوضربة الذين اتضح لهم مدى خطورة هذا المرسوم بعد ان استولى المدير المدنى بيشون على 81 وقفا منها و 55 وقفا تابعة للحرمين و 11 وقفا تخص الجامع الاعظم مع بعض الاوقاف المخصصة للمرافق العامة كالطرق والعيون (55) ، لكن المرسوم اصطدم بصعوبات جمة حالت دون تنفيذ بنوده فبغض النظر عن رجال الدين والاعيان ، فان هذا المرسوم يفتقر الى خطة محكمة ودراسة وافية ، كما أنه لم يجد التأييد المطلوب من طرف الحاكم الفرنسى الجديد برتوزان الذى خلف كلوزال فى حكم الجزائر ، والذى فكر جديا اثر الصعوبات التى اعترضت تطبيق هذا المرسوم فى ارجاع الاوقاف المصادرة لمستحقيها رغم معارضة الوكيل المدنى بيشون لهذا الاجراء ، وهذا ما يجعلنا ننظر الى هذا المرسوم على أنه بداية خطة تكتيكية وفاتحة مرحلة انتقالية لتصفية الاوقاف استمرت 5 سنوات وانتهت بسيطرة الادارة الفرنسية على كل الاوقاف الجزائرية ٠ وقد بدأت هذه الخطة بالفعل فى 25 أكتوبر 1832 حين تقدم المدير العام لاملاك الدولة (الدومين) السيد جيراردان بمخطط عام لتنظيم الاوقاف الى المقتصد المدنى l'intendant

وقد حظى هذا المخطط بتاييد جانتى دوبوسى Genty de Bussy الامر الذى دفع السيد بلاندال Blondel بقبوله وتصويره ليتخذ شكل تقرير مفصل حول المؤسسات الدينية فى نهاية سنة 1834 ، وتقدم به الى اللجنة الافريقية الملكية المكلفة بالتعرف على أوضاع الجزائر فى مستهل سنة 1835 (56) ٠

وبذلك امكن للسلطات الفرنسية بالجزائر فرض رقابتها الفعلية على الاوقاف وتشكيل لجنة لتسييرها تتالف من الوكلاء المسلمين برئاسة المقتصد المدنى الفرنسى الذى أصبح يتصرف بكل حرية فى ألفى وقف (2000) موزعة على مائتى (200) مؤسسة ومصلحة خيرية حسبما جاء فى التقرير العام عن الاوقاف بتاريخ 10 ديسمبر 1835م (57)

وبمقتضى هذا الاشراف الفعلى على الاوقاف امكن للادارة الفرنسية بالجزائر ان تصدر قرارا آخر Ordonnance فى أول أكتوبر 1844 ينص بصريح العبارة على أن الوقف لم بعد يتمتع بصفة المناعة وأنه بفعل هذا القرار أصبح يخضع لاحكام المعاملات المتعلقة بالاملاك العقارية والامر الذى سمح للاوروبيين بالاستيلاء على كثير من أراضى الوقف التى كانت تشكل نصف الاراضى الزراعية الواقعة بضواحى المدن الجزائرية الكبرى (58) وبذلك تناقصت الاوقاف وشحت مواردها فلم تعد تتجاوز 293 وقفا منها 125 منزلا و 39 دكانا و 3 أفران و 19 بستانا و 107 عاء عام 1843 (59) وكانت قبل الاحتلال تقدر بـ 550 وقفا ٠

ثم جاءت الخطوة التالية المتمثلة فى مرسوم le décret 30 أكتوبر 1858 الذى وسع صلاحيات القرار السابق واخضع الاوقاف لقوانين الملكية العقارية المطبقة فى فرنسا وسمح لليهود وبعض المسلمين بامتلاكها وتوارثها (60) ٠ واعقب هذا الاجراء القرار الاخير الذى عرف بقانون 1873 والذى استهدف تصفية أوقاف المؤسسات الدينية لصالح التوسع الاستطانى الاوروبى فى الجزائر وبذلك فقد الجزائريون احدى الوسائل المادية والروحية والثقافية للوقوف على وجه مطامع الاستعمار ومخططاته الرامية الى القضاء على المقومات الاقتصادية والاسس الاجتماعية للشعب الجزائرى المسلم ، ومما تجدر ملاحظته فى ختام هذا البحث ان الوقف رغم الفوائد المباشرة وانعكاساته الايجابية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية الا أنه لا يخلو من سلبيات على النشاط الاقتصادى والعلاقات الاجتماعية ، فهو

قد ساعد على تمايز الطوائف السكانية تبعا لمختلف المؤسسات الدينية والاوقاف التابعة لها مما حافظ على هيكل كل جماعة على حدة من اشراف واندلسيين وأتراك ومنتسبين الى الحرمين الشريفين زيادة على أن الاوقاف كانت احدى العوامل التى ساهمت فى تجميد الملكية الفردية والحيلولة دون انتقال الدورة العقارية تبعا للنشاط الاقتصادى واحرام الوراثة ومعاملات البيع والشراء مما تسبب فى الانكماش الاقتصادى والجمود الاجتماعى قبل الاحتلال . ومع ذلك فاننا نرى أن الوقف باعتباره عاملا اجتماعيا وحافزا ثقافيا وجهازا اداريا ووسيلة اقتصادية له فضل كبير على تماسك المجتمع الجزائرى وتوفير الخدمات الضرورية لافراده والحيلولة دون تنفيذ المخططات الاستعمارية فى الفترة الاولى من الاحتلال ، فلم يستطع الفرنسيون تصفيته الا بعد الاستيلاء على العديد من المساجد والزوايا والمدارس التى نثبتها فى القائمة الدينية التالية (61) ، حتى نتعرف على مدى خطورة الاستعمار الفرنسى على الاوقاف ومؤسساته .

قائمة بالمساجد والزوايا التى استولى عليها الفرنسيون
بمدينة الجزائر فى العامين الاولين للاحتلال

- مسجد الشواش .
- مسجد الشماين .
- مسجد الجنائز .
- مسجد المرسى .
- مسجد سيدى حدى .
- مسجد باب الجزيرة .
- مسجد الكشاش القديم .
- مسجدخضير باشا .
- مسجد عبدى باشا .
- مسجد سوق اللوح .
- مسجد قاع السور .
- مسجد سوق الكتان .
- مسجد العين الحمراء .
- مسجد ضباط الحوت .
- مسجد على باشا .
- مسجد بيدى عامر الشنى .
- مسجد على خوجة .
- مسجد حسين بالقصبة .
- مسجد القصبة .
- مسجد فرن القثور .
- مسجد ستى مريم .
- مسجد على بتشنى .
- مسجد على خوجة .
- مسجد كتشاوة .

- مسجد سيدى الرجى .
- مسجد سيدى سعدى .
- مسجد سيدى جامعى .
- زاوية سيد الصيد .
- زاوية سيدى بتكتة .
- زاوية كتشاوة .
- زاوية الكشاش بالمرسى .
- زاوية الانكشارية بالقصبة .
- زاوية تشيكتون .
- زاوية الانكشارية القديمة .
- زاوية محمد ميزومورقو .
- زاوية الولى سيدى الغبريني بالمرسى.
- مصلى الانكشارية القديم بالقصبة .
- مصلى الانكشارية الجديد بالقصبة .
- مصلى سيدى عبد الرحمن .

الهـوامش والتعليقـات :

(1) Mercier (E.) : *Le Habous ou Oukaf*. Alger. Jourdan 1895, p. 51.

(2) كما هو معروف اهلية التبرع بالحبس يشترط فيها البلوغ وصحة الملكية وأحقية التصرف فيها .

(3) راجع دراستنا حول وضعية الاوقاف العقارية بفحص مدينة الجزائر أواخر العهد العثمانى ، التى قدمت فى ندوة المؤسسات الدينية بالمغرب العربى المنعقدة بجامعة برلين الحرة فى شهر مارس 1980 ، وهى فى طريق النشر باللغتين العربية والفرنسية .

(4) الارشيف الوطنى الجزائر ، الوثائق الشرعية ، علبة 106 رقم 208 ـ 53 .

(5) حمدان بن عثمان خوجة ، كتاب المرآة ، ترجمة وتقديم محمد بن عبد الكريم ، بيروت 1972 ، ص 237 .

(6) الشيخ عبد العزيز خياط ، أوقاف القدس عن تاريخ الدر المنتقى ، مع العلم بان ابى يوسف اشترط لصورة الوقف ان يسلم للمتولى وان يكون مفرزا ومؤيدا وغير مشترط .

(7) Mercier (E.) : *Le Code du Habous*. Constantine 1899, p. 10.

(8) Idem, p. 34,

(9) Robe (E.) : *Origine et formation et état actuel de propriété immobilière en Algérie*. Paris, Challamed 1885, p. 58.

(10) الشيخ عبد العزيز خياط ، نفس المصدر ، اعتمادا على تاريخ الدر المنتقى .

(11) Brossard : *Les inscriptions religieuses de Tlemcen.* In Revue Africaine 1859, p. 413.

(12) التميمى ، عبد الجليل ، من أجل كتابة تاريخ الجامع الاعظم بمدينة الجزائر المجلة التاريخية المغربية ، جويلية 1980 عدد 19 ـ 12 ، ص 160 ·

(13) Férand (L.) : *Un vœu d'Hussein Bey de Constantine,* 1807, in Revue Africaine 1863, pp. 91 - 92.

(14) Tableau de la situation des établissements français en Algérie. Année 1837.

(15) التميمى ، نفس المصدر ، ص 165 ·

(16) Vallière (Ch.) : Mémoire, l'Algérie en 1781. Publiés par L. Chaillon. Toulon S.D., L 31.

(17) Archives du Ministère de la Guerre de Vincennes à Paris (A.M.G.) H 226.

(18) Féraud (L.) : *Les anciens établissements religieux musulmans de Constantine.* in Revue Africaine 12 - 1868, pp. 125 - 126.

(19) صالح خرفى ، الجزائر والاصالة الثورية ، اعتمادا على مقال ينسب الى الصفحى الجزائرى ابن قدور نشر بجريدة اللواء عدد 2153 بتاريخ 7 أكتوبر 1906 ·

(20) مما يلاحظ أن بعض المدن الكبرى كانت تتميز بتنظيماتها الخاصة لشؤون الاوقاف مثل مدينة قسنطينة التى كان يتولى بها قائد الدار مهام ناظر الاوقاف ويعين مباشرة من طرف الباى ، وليس للمفتى المالكى سلطة أو مراقبة عليه ، راجع وثائق الارشيف الفرنسى السابق الذكر : ص 226 ·

(22) مثل فاتور دو بارادى الذى يطلق عليه لقب المتولى ، راجع :
Venture de Paradis, Alger au XVIII[e] siècle, in Revue Africaine N° 219 - 1895, p. 275.

(23) Féraud : *Les anciens,* pp. 130 - 131.

(24) نور الدين عبد القادر ، صفحات فى تاريخ مدينة الجزائر ، نشر كلية الآداب الجزائر ، ص 76 ·

(25) Féraud : *Les anciens,* pp. 130 - 131.

(26) Yacon (X.) : *La régence d'Alger en* 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834. In Revue d'Occident musulman et de la Méditerranée N° 1/1966.

(27) Busson de Jenssen (S.) : *Contribution à l'étude des herbons publics algériens.* Thèse, Alger 1950, p. 27.

(28) يختلف عدد اوقاف الحرمين باختلاف المصادر ، فهى حسب تقرير مدير الاملاك العامة «جيراردان» 1400 وقفا بمدينة الجزائر وضواحيها · وفى جدول المؤسسات الفرنسية فى الجزائر 1419 ، وفى تقرير اول سبتمبر 1837 ـ 1414 ، وعند جانتى بوسى تقدر بـ : 1417 ·

(29) Devouls, notice, pp. 14 - 15.

(30) Yver (G.) : *Mémoire de Bouderbah*. In Revue Africaine 57 - 1913, p. 240.

(31) Aumerat (F.) : *La propriété urbaine et le bureau de bien faisance musulman d'Alger*. In Revue Africaine 41 - 1897, p. 323.

(32) ذكر بانانتى ان مدينة الجزائر تضم 50 مسجدا صغيرا و 9 مساجد كبرى ، و 3 مدارس فى وقت كان فيه عدد سكانها يناهز 120 الف نسمة • كما ذكر لـوجى دوتاسى (1725) ان مدينة الجزائر بها 10 مساجد كبرى و 50 مسجدا صغـيرا ، بالاضافة الى ثلاث مدارس ، وحسب احصاء دوفو ان عدد مساجد الجزائر 122 مسجدا منها 109 مساجد صغيرة و 13 مسجدا كبيرا • كما ذكر ابن حرة آوميرا ان عـــدد المساجد بالجزائر عام 1830 كان يبلغ 103 منها 89 مسجدا مالكيا و 14 حنفيـــا ، بينما تقرير أول سبتمبر 1837 الذى وضعته السلطات الفرنسية يحدد عـــددها بـ 107 مسجدا وزاوية • ولا يختلف عن هذا التقرير كثير المعلومات التى أدلى بها بوضربة الذى قدرها بـ 106 مساجد منها 92 خاصة بالمذهب المالكى و 14 تابعـــة المذهب الحنـفى •

(33) Devouls (A.) : *Les édifices religieux de l'ancien Alger*. In Revue Africaine 1867, pp. 383 et 385.

(34) اعتمادا على مقارنة العديد من المصادر ووثائق الارشيفات ، راجع الارشيف الوطنى الفرنسى لما وراء البحار فـ 80 ـ 1632 ، تقرير اول سبتمبر 1837 وكذلك الارشيف الوطنى الجزائرى ، عليه 35 سجل 354 •

(35) Aumerat, op. cit., p. 329.
Emerit (M.) : *L'état intellectuel et moral de l'Algérie en* 1830. In Revue d'histoire moderne et contemporaine 1954, p. 200.

(36) Archives Nationale d'Outre-Mer à Aix-en-Provence, France (A.O.M.) F 80 - 1632. Rapport du 1° septembre 1842.

(37) Tableau, op. cit., année 1837.

(38) Idem, p. 287.

(39) A.O.M. F 80 - 1932 - 2 corporations. Réponse aux questions de M. le Directeur des Finances, 30 septembre 1842.

(40) Devoulx : *Les édifices*, pp. 377 - 381.

(41) Emerit. Op. cit., p. 203, d'après Rapport Resseau en 1847.

(42) A.M.G. H. 226, p. 46.

(43) Emerit. Op. cit., p. 203.

(44) Raymand : *De la domination française en Afrique*. Paris 1832, p. 28.
Aumerat. Op. cit., pp. 7 - 8.

(45) Aumerat. Op. cit., pp. 7 - 8.

(46) A.M.G. H. 226, p. 46.

(47) التميمى نفس المصدر .

(48) حسبما يستخلص من وثائق المحاكم الشرعية الجزائرية التى تعود للفترة العثمانية .

(49) A.M.G. H. 226, pp. 50 - 51.

(50) Lespes (R.) : Alger, Esquisse de géographie urbaine. Paris 1930, p. -75 - 176.

(52) Zeys, cité par Terras. Essai sur les biens habous en Algérie et Tunisie. Lyon 1899 p. 68.

(53) Blanqui : *L'Algérie, rapport sur la situation économique de nos possessions dans le nord de l'Afrique*. Paris 1840, 228.

(54) راجع القائمة الملحقة بآخر البحث والمتضمنة اسماء المساجد والروايا التى استولى عليها الفرنسيون فى مدينة الجزائر ما بين 1830 ـ 1832 .

(55) A.O.M. F. 80 - 1673.

(56) A.O.M. F. 80 - 1632. 2e réponse aux questions.

(57) A.O.M. F. 80 - 1632. 2, 30 septembre 1842.

(58) Berthaul : *La propriété rurale en Afrique du Nord*. in Revue l'Afrique Française N° 4, 1936, p. 211.

(59) A.O.M. F. 80 - 1632. Etat daté 1843.

(60) Terras. Op. cit., p. 7.

(61) Klein (H.) : *Les fenillets d'El-Djazaïr*, Alger. Fontana 1937, p. 1.

الرياضيـات عند العـرب

د· عبد القادر حليمى

الحضارة سلسلة وللعرب فيها حلقة قيمة

ربما ظهر هذا العنوان مزيلا لـدى بعض القراء مـن الذيـن يقولـون ان المعارف القديمة لا تهمنا ، لاننا فى عصر الذرة ، والعقول الالكترونية التى سلكت شوطا بعيدا عن كل ما هو بال وعتيق ، ثم ان القدماء سواء اكانوا عربا أم غيرهم لم تكن آراؤهم صائبة فى نواحى شتى من المعارف · ومن هنا كانـت الفائدة فى البحث عن الرياضيات عند العرب محدودة للغاية ، اللهم الا مــن ناحية التاريخ والتسلية بالماضى عــن الحاضر ، أو قل من الوجهة الاثريـة يمكن أن يدخل هذا الموضوع ، مثلـه مثل البقايا فى المتاحف ·

والواقع ان هؤلاء الذين يقولون بهذا الرأي قد غلطوا ويغلطون كل المغالطـة ما داموا يهملون جانبا مهما من أسس الاختراع ويغضون الطرف عن اصالة طبيعية المعرفة · ولنا فى هذا أدلـــة كثيرة ، منها ان العلم بمفهومه الواسع قديم بقدم الانسان · وان التراث الذى خلفه الاقدمون والتطورات التى تعاقبت منذ الاجيال القديمة هي التى أوصلـت الانسان الى ما وصل اليه حاليا · ولا يمكن أن نتصور عالما أو مثقفا دون أن يسبق له تعليم والاخذ عن غيره ، والا لكانت المعجزة التى يقتصرها الخالق على من يريد ، اذ هو الذى يؤتى الحكـ من يشاء ، ثم ان التعمق فى البحـ والوصول الى معرفة أصل الشيء هـو أساس الاكتشافات · لهذا نقول فلولا جهود العرب فى تطوير الرياضيـــات واصلاحها واضافة عدة أشياء لها لبدأت النهضة الحديثة الاوروبية من حيث بـدأ العرب ، ولتأخرت النهضة الحديثة بمدة زمانية تساوى على الاقـل المـدة الـتى

طور فيها العرب تلك العلوم العتيقة . فالعلم سلسلة ذات حلقات متصلة وان كل جيل له حلقته الخاصة فيها بحيث لا يمكن أن تستقيم هذه السلسلة دون هذه الحلقة . ذلك أن آثار الفكر البشرى يجب أن ينظر اليها ككائن ينمو ويتطور . وان كل فكرة أو اختراع ما هو فى الواقع الا دور من أدوار أو مرحلة من المراحل الحضارية مهيئة لمرحلة تالية لها ومبنية على مرحلة سابقة لها . ومعنى هذا انه لا يمكن معرفة الحاضر الا بالرجوع الى الماضى . فمثلا لولا محمد بن موسى الخوارزمى المتوفى سنة 232 هـ الموافق لسنة 837 م . وابن الهيثم وهو الحسن بن الحسن بن الهيثم أبو على المهندس البصرى نزيل مصر والمتوفى سنة 430 هـ الموافق لسنة 1038 م لما ظهر جاليلى الايطالى المتوفى سنة 1642 م ولما اشتهر السير اسحاق نيوتن الانجليزى المتوفى سنة 1727 م بنظرياته فى علم الطبيعة والفلك . ولولا ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ فى بحثه حيث بدأ ابن الهيثم . ولو لم يظهر جابر بن حيان لبدأ جاليلى من حيث بدأ جابر . وبايجاز فلولا النهضة العربية والحضارة الاسلامية لما بدأت النهضة الاوروبية فى القرن الرابع عشر للميلاد بل لبدأت فى القرن الثامن للميلاد وبذلك لتاخرت نهضتنا بستة قرون تقريبا ، فالماضى هو مفتاح الحاضر . هذا ولا نريد فى الاشادة بأمجادنا أن نقول : « أقعد فانت الطاعم الكاسى » ، ولا نريد ترديد القائل : « كان أبى » لكن نقصد : ما نحن الا كالامم التى نعاصرها لا نقل عنها مستوا فى الذكاء والقدرة على بناء سرح الحضارة ، وان تقدمت عنا أشواطا ، واننا للمجد لبانين ، وللركب لزاحفين ، وللمستقبل لمتطلعين .

بعض التقويمات الحضارية

فالحضارة العربية ظاهرة طبيعية مثلها مثل الحضارات السابقة عنها واللاحقة لها ، وان كان البعض يريد الحط من قيمتها عمدا أو جهلا بقوله : لم يزد العرب عن نقلهم للتراث القديم . بل نقول ان العرب نقلوا واضافوا الى العلم لبنات ، ففى نقلهم روح وحياة ، وابتكار وتصويب لمفاهم خاطئة ظلت مدة طويلة من الزمن تقف حجر عثرة أمام تطور العلوم . وربما هذه الانطلاقة العربية تعود فى أصلها الى الدين الحنيف الذى يحث على المعرفة ، ويأمر بنشرها، على عكس ما كانت تتمسك به بعض الفلسفات القديمة ، مثل الفلسفة الاغريقية فى بعض مراحلها حيث يطالعنا التاريخ ان اتباع فيتاغورس كانوا يحرمون الافشاء بأسرار الارقام، وانهم قتلوا أحد زملائهم غرقا اسمه هبا سوس فى القرن الرابع قبل الميلاد لانه أفشى للعامة بسر الرياضيات ، كما احتفظ الكهنة المصريون فى عهد الفراعنة بأسرار كهنوتهم ، ومعانى

طلاسيمهم حتى لم يعرف لحد الآن عملية التحنيط لديهم ·

والرياضيات من العلوم التى نالت الشيء الكثير من اهتمام العرب وعنايتهم · لقد برعوا فيها واضافوا لها اضافات كثيرة وقيمة ، اعجبت غير المتعصبين من علماء الغرب وادهشت المنصفين لهم ، لذلك اعترف لهم أولو الالباب بالبراعة والاختراع ، والفضل الكبير الذى لا يمكن أن يستهان به · ويكفيهم فخرا انهم جمعوا العلوم القديمة المتنوعة من كل الحضارات العريقة : بابلية ، فرعونية ، يونانية ، هندية ، وبعد مزجها وتنخيلها خرجوا بخلاصة ظل معمول بها حتى الوقت الحاضر ·

فالفوا الكتب الكثيرة فى علم الحساب، وكان لهم أسلوب خاص فى اجراء العمليات الحسابية ، وهم الاولون فى وضع الجداول المتنوعة · وكانوا يوردون طرقا عديدة لكل عملية ، مما يدل على سعة ادراكهم ، من هذه الطرق ما كانت خاصة بالمبتدئين ومنهم ما كانت خاصة بالباحثين ، هذا فى الفترة التى كانت فيها أوروبا يخيم عليها الجهل والظلام لسيطرة الكنيسة عليها وتعصبهم للمسيحية الخاطئة ، وتحريم رجال الكنيسة على العوام تعاطى الحضارة الاسلامية ومنع المجتمع المسيحى عن الاتصال بالاسلام والمسلمين خشية الكفر والضلال كما يزعمون أو خشية رؤية نور المعرفة القيمة ، على القول الصحيح · لذلك لم تدخل الارقام العربية الى أوروبا حتى القرن 12 للميلاد ، حيث تطالعنا أول قطعة نقدية كتبت عليها الارقام العربية فى صقلية تعود الى سنة 1134 · أما بقية ايطاليا فقد ظلت فيها الارقام العربية مجهولة حتى منتصف القرن الرابع عشر · بسبب تعصب الكنيسة التى حرمت بقرار سنة 1259 استعمال أرقام الكفار (أي المسلمين فى زعمهم) · بل ذهبت جامعة بادو فى ايطاليا سنة 1348 الى اصدار أمر الى أمناء مكتباتها باستبدال الارقام بالحروف خشية تسرب الارقام العربية الى البلاد المسيحية · لكن هذا التشدد لم يمنع بعض المغامرين من رجال الكنيسة وهم من أولئك الذين كانوا يدعون الى التجديد ، من السفر خفية الى اسبانيا والاتصال بالمسلمين والاخذ عنهم بالدراسة فى جامعاتهم ، والاطلاع على سر تقدمهم · ومن هؤلاء المغامرين يذكر لنا التاريخ أدلرد دى باث الذى تزي بزي المسلمين سنة 1120 وذهب الى بلاد الاندلس واستطاع أن يدرس مدة زمنية بجامعة قرطبة باللغة العربية على علماء مسلمين ، ثم رجع الى بلاده حاملا نظريات الخوارزمى ومؤلفات عديدة باللغة العربية منها ما ترجمه العرب لاقليدس ، ثم ترجم ادلرد هذه الكتب الى اللغة اللاتينية · ومن المغامرين المسيحيين يذكر أيضا لنا التاريخ جيرارد دى كريمون الذى ذهب فى نفس الفترة الى جامعة طليطلة ، وأخذ فيها

المعرفة عن أساتذة مسلمين ، ثم رجع الى بلاده حاملا معه ما يزيد عن 90 مصنفا عربيا ، ترجمه الى اللغة اللتينية، منها كتاب الماجسطى لبطليموس الذى ترجمه وصلحه العرب فى العهد العباسى الاول • ولعل أشهر المغامرين فى هذا المجال ليونارد فيبوناسى الذى تعلم العربية فى بلاد الاندلس عن اساتذة مسلمين كما أخذ عنهم معارف شتى وهو يظهر الاسلام ويخفى الكفر ثم رجع الى بلاده فى ايطاليا حوالى سنة 1228 حاملا معه ذخائر العلم باللغة العربية منها كتبا فى الرياضيات وأخرى فى علم الفلك والهندسة ، وما وصل اليه البحث فى ذلك الزمن لدى المسلمين ، وكان لهذا القسيس شأن بعيد فى نشر النور الاسلامى والمعارف العربية على طلاب جامعات صقلية ، خاصة جامعة سالرم التى درس بها عدة سنوات ، فى الفترة التى ظل فيها شمال أوروبا يحرم الاتصال والاحتكاك بالمسلمين ، اذ لو اتيحت الفرصة لديدرو الفرنسى المشهور بالفلسفة والمؤسس لدائرة المعارف (1751) ، ان يتعلم ولو قليلا لما جاء به المسلمون فى العلوم الحسابية، لما وقف صامتا أمام ايلير الرياضى القيصرى الروسى البسيط ، عندما تجادلا أمام الجمهور وفى قصر قيصر روسيا عن وجود الاله • فالقصة تروى لنا ان ديدرو كان ثائرا على الديانة المسيحية وغير معترف بوجود الاله وانه من الماديين ، وبينما هو نزيل قيصر روسيا أثناء الثورة الفرنسية قيل له ان هناك عالما فى الحساب قد اثبت وجود الاله بمعادلة رياضية،فنكر ديدرو هذا الادعاء ، لكن القيصر استدعى كلا من ديدرو وايلير لحضور احتفال عظيم فيه يتناقش العالمان لاثبات من هو على حق ومن هو على ظلال •

وعندما اجتمع الرجلان بادر ايلير الرياضى ديدرو الفيلسوف بقوله : ان $\frac{أ+ب^{ن}}{ن} = س$ اذن فالله موجود • فدهش ديدرو لهذا الكلام الغريب ، وظن ان هذه الحروف عبارة عن طلاسيم اذ انه لم يسمع بها من قبل ولم يعرف ان هذه الحروف ما هي الا هي رموز لارقام ، ولو عرف ان الجبر هو اللغة التى نستعمل فيها الحروف بدل الاشياء لسأل ايلير عن معنى هذه الرموز ، ولفهم ان صاحبه يقصد بكلامه ان العدد س يمكن الحصول عليه باضافة الى الحرف (أ) العدد (ب) مضروبا فى نفسه ن مرات ثم قسمة الحاصل على العدد (ن) نفسه • وبلغة الارقام مثلا العدد 3 يمكن الحصول عليه بجمع العدد 1 الى العدد 2 مضروب فى نفسه 3 مرات ثم قسمة الناتج على 3 •

لكن ديدرو خشي من هذه الطلاسيم وانسحب من المجلس واجلا من لغة الرياضيات بعد أن تعالت أصوات الجماهير بالضحك ، ومن ذلك الحين لزم ديدرو غرفته يفكر فى هذه الفضيحة التى نزلت به ، ثم طلب من القيصر رخصة الرجوع الى بلاده • ولو كان ديدرو أحد

طلاب الجامعات العربية فى الاندلس أو فى بغداد أو فى القاهرة أو فى المغرب أو فى بجاية أو فى تونس لسأل ايلير أن يفصح عن كلامه وعندئذ لاتضح لدى الجمهور ان المعادلة التى جاء بها ايلير ما هي الا معادلة بسيطة للغاية ، ولضحك الناس من كلام ايلير بدلا من ضحكهم على ديدرو ، لكن هذه هي عاقبة الجهل والتعصب وما كانت تدعو اليه الكنيسة المسيحية التى ظلت مدة طويلة من الزمن تحول دون انتشار نور المعرفة العربية خشية دخول الاوروبيين فى الدين الحنيف ٠

نشأة الحساب والاعداد :

ان المتتبع لتاريخ الآثار البشرية يلاحظ ان الحساب فى حد ذاته يمثل مرحلة من مراحل تطور التفكير البشرى ٠ ذلك ان انسان العصر الحجرى القديم الذى كان يأخذ من الطبيعة ما جادت به عليه لم تدفعه الحاجة الى التفكير فى الحساب : بل ان فكرة الحساب ربما ظهرت لاول مرة لدى الانسان عندما بلغ مرحلة الحضارة الزراعية وتربية الماشية والمبادلات ٠ ففى هذه المرحلة بالذات فكر الانسان فى ثروته ، كتفكيره فى عدد أغنامه ، وما يجمعه من حبوب وفواكه او ما يخزنه لوقت الحاجة وتوالى الفصول الزراعية ، وفيما يقبضه مقابل ما يدفعه ٠ فهذه الاستعمالات للعقل البشرى تعد المرحلة البدئية لنشأة الحساب التى تلت مرحلة نشأة الارقام ثم مرحلة الرياضة ٠ ولا شك ان الانسان فى بداية حساباته كان يستعمل ما يجده حوله لتعبير عن الوحدات القياس ، نيستعمل مثلا أصابعه للدلالة على الارقام ، كاستعمال أصابع احدى اليدين للدلالة على الخمسة وأصابع الايدين الاثنين للدلالة على العشرة وبهذا يظهر ان عده كان محدودا للغاية ٠ وربما لم يزد عن عدد اصابعه ٠ اذ هناك قبائل بدائية كانت تعيش حتى زمن قريب لا تعرف من العدد أكثر من خمسة ٠ ولقد أثبتت التحريات الحديثة ان العلوم الرياضية ميدان اشتركت فيه قرائح عديدة وحضارات متنوعة ، وشعوب كثيرة ٠ فالمصريون مثلا عرفوا الحساب منذ آلاف السنين ، واستعملوه فى حضاراتهم القديمة ، ويتجلى هذا فى اهراماتهم ومسلاتهم وهياكلهم ، وأحسن دليل على درايتهم بعلم الاحصاء ما نفهمه مما جاء فى القرآن الكريم عن قصة يوسف عليه السلام : « **وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يا أيها الملأ افتونى فى رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون** » ٠ كما تحقق لدى الكثير من علماء الآثار ان المصريين استعملوا المعادلات ذات الدرجة الاولى، واتوا فى حلولها بطرق صحيحة ٠ ولم يكن البابليون أقل دراية فى الرياضيات من المصريين حيث استعملوا النظام الستينى ، وعرفوا مربعات الاعداد ومكعباتها ٠ وقسموا محيط الدائرة الى

ستة أقسام متساوية ثم الى 360 قسمـا متسـاويا • وعرفوا اشـكالا هندسية كثيرة منها المربع والمثلث • أما الهنود فقد اخترعوا النظام العشرى وبذلـك قدموا خدمات جليلة للحضارة الحديثة، وقد برزوا فى الحساب والجبر براعة لم يسبق لها مثيل ، وعنهم أخذ العرب الكثير، منها سلسلة الارقام ، وحـل بعض المعادلات • وفى الهندسة عـرف الهنود المربعات والمستطيلات والعلاقـة بين الاقطار والاضلاع ، وربما سبقوا فيثاغرس فى نظرية التناسب • وبينوا ان نسبة طول الدائرة الى قطرها ثابتة، وقدروها بجدر عشرة كمان جاء عـن أريابهاتا الذى اشتـغـل بالمعـادلات وحلولها • واعتنى اليونانيون ، الـذى كانت لهم اتصالات وثيقة بجيرانهم من المصريين والبابليـن والفينيقيـيـن ، بالرياضيات والهندسة • وقد نقلوا عن هذه الامم المجاورة لهم الكثير مـن نظرياتهم المعمول بها حتى الآن ، فطاليس مثلا الذى كان يعيش فى القرن السادس قبل الميلاد (640 ـ 548 ق م) والمشهور بنظرياته الهندسية والرياضية قد زار مصر وشاهد اهراماتها قبل أن يضـع نظرياتـه الهندسيـة • وفيتـا غورس المولود بساموس حوالى سنة 570 ق م المشهور بالرياضيات وعلم الفلك خالط المصريين قبل البرهنة على ان مربـع الوتر فى المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مربع الضلعيـن الباقيـيـن • فاليونانيون أخذوا عن المصريين العلوم دون الديانة مثلهم فى ذلك مثل الاتحاد السوفييتى مع الولايات المتحدة حيث ان الروس فى الوقت الحالى يحاربـون النظام الرأسمالى ويستعملون المهندسين الامريـكان فى مشاريعهم الاقتصـادية وتطوراتهم التقنية • ولسنا بحاجة الى القول بأن كتاب اقليدس فى الهندسـة هو أهم الكتب التى وضعت فى هـذا العلم ، بل هو المنبع الذى استقى منه علماء الغرب والشرق على السواء ، والمنهل الذى لا يزال ينهل منه علماء الهندسة ويرجع اليه الاساتذة والمعلمون وكان أستاذا يونانيا بجامعة الاسكندرية (300 ق م) •

فعلم الحساب ظهر عندما ظهـرت حاجة الانسان اليه ، فاليونانيون الذين ألفوا فيه كتبا عديدة كانوا يعيشون فى عالم رأوا فيه المعابد ترفع بعد رسمها على الرمل ، وقياس ابعاد زوايا النجوم، وتحديد الارتفاع بقياس الظل ، ورسم الاشكال على الطين الخ • وعلى أي حال يكون من الخطأ التصور فى أن علـم الحساب نشأة صدفة أو بعيدا عـن الاستعمال ، أو اخترعته طبقة من طبقات المجتمع البشرى دون ان تـكون لهـا اتصالات بالعالم الواقعى •

كما يكون من الخطا التصور فى ان الحساب هو علم اخترعه أحد النـاس من العدم أو اخترعته أمة من الامـم السابقة بل ان علم الحساب وما صاحبه من اختراعات للارقام عبارة عن آثـار

انسانية ومجهودات عقلانية عبر الازمنة الطويلة ، ظل يتطور حتى الوقت الحالى ٠

ما أحدثه العرب فى الرياضيات :

بعد أن فتح العرب بلاد الفـــرس والهند ومصر والشام شاهدوا ما لهذه الامم والشعوب من تقدم حضارى ، وتنظيم ادارى، وتراث قيم ٠ فبـدأوا اولا بنقل هذا التراث وجمعه ثم ترجمته الى اللغة العربية حتى يكون فى متناول كل الناس ٠ وانطلاقا من المبادىء الاسلامية فى أن المعرفة حق لكل انسان ، انفقوا فى ذلك أموالا كثيرة ، وما كان يهمهم المال فى سبيل المعرفة ، ولا المشاق فى سبيل اكتشاف الحقائق ٠ وهذا النبى عليه السلام يقول:اطلبوا العلم ولو فى الصين ٠ وبعد أن هضم العرب هــذه العلوم وصححوا ما فيها من أخطـــاء أضافوا اليها اضافات كثيرة اثـــارت الاعجاب والدهشة لمن جاء من بعدهــم من علماء الغرب ٠

ولعل من أهم ما برع فيه العرب هو علم الرياضيات وعلم الفلك ٠ وسنقتصر فى موضوعنا هذا على علم الرياضيات فقط وان كان القدماء لا يفصلون بينهما، ولا بين علم الحساب وعلم الجبر ، لما بين هذه العلوم من ارتباطات وثيقة ٠

نظــام الترقيــم :

لم يكن للشعوب القديمة قبل ظهور الاسلام ترقيم موحد كما لم تكن لها مكاييل ومقاييس موحدة ٠ بل كان لكل شعب أو قل لكل حضارة ارقامها الخاصة بها ٠ فالمصريون مثلا استعملوا الرموز الآتية منذ حوالى الثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد :  للتعبير عن الآحد و  للتعبير عن العشرات و  للتعبير عن المئات و  للتغبير عن الآلاف ٠ والسوماريون كانوا يستعملون الرمـز ﮾ للدلالات على الآحاد والرمز < للدلالة على العشرات ٠ والسريانيون استعملوا الرمز \ للدلالة على الواحد والرمز ٢ للدلالة عـــلى اثنـيـن ٠ واليونانيون استعملوا الحروف للدلالة على الارقام مثال :

a	θ	Ka	ξθ	Pξθ
I	9	2I	69	I69

كما استعمل الرمانيون رموزا أخـــرى للتعبير عن الارقام وهي عبارة عـــن شرط عمودية متوازية أو متقطعة كما استعملوا الحروف أيضا مثل :

VIII	VII	VI	V	IIII	III	II	I
8	7	6	5	4	2	2	I

M	C	L	X	IX
I000	I00	50	I0	9

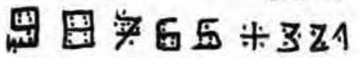
وكل هذه الارقام كانت مبنية عـــلى أساس الجمل ، لذلك وضع العرب فى أول الامر لكل حرف رقمـا خاصـا بـه للدلالة على الارقام ٠ فكان جـــدول ارقامهم كالتـــالى :

ز	و	هـ		د	حـ	ب	ا
7	6	5		4	3	2	I
ن	م	ل	ك		ى	ط	ح
50	40	30	20		I0	9	8

س	ع	ف	ص		
60	70	80	90		
ق	ر	ش	ت		
100	200	300	400		
ن	خ	ذ	ض	ظ	غ
500	600	700	800	000	1000

أما رموز الاعداد التى تزيد عـــن الالف فتكتب باضافـــة الحـروف الى بعـضها مثال لذلك 2000 تكتب : بـغ و 20000 تكتب : كغ الخ ...

ووجد العرب من أرقام الجمل صعوبات فى الانطلاق نحو العمليات الحسابيـــة لذلك راحو يبحثون عن الرموز الاقرب للاختصار والتعبير ، فوجدوا بغيتهـــم فى الارقام الهندية . ويذكر البيرونى ، وهو محمد بن أحـمـد أبو الريحـانى المولود بخوارزم عام 362 هـ 973 م . المشهور بالرياضيات ، ان صور الحروف وارقام الحساب ، تختلف باختـــلاف المحلات . وان العرب أخذوا أحســـن ما عند الهند ، فلقد كان عند الهنود اشكال عديدة للارقام ، فهذب العـرب بعضها ، وكونوا من ذلك سلسلتيـن ، عرفت احداهما بالارقام الهندية ، وهي التى تستعملها بلادنا واكثر الاقطـار الاسلامية والعربية . وعرفت الثانيـة باسم الارقام الغبارية ، وقد انتشــر استعمالها فى بلاد المغرب والاندلس ، وعن طريق هذا البلاد دخلت الارقـــام الغبارية الى أوربا وعرفت عندهم باسم الارقام العربية . ويقصد البيـرونى بالارقام الغبارية : 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 ، أما الهندية فهي :
١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩
ويرى بعض العلمـاء ان الاســاس فى كتابة الارقام الغبارية مبنى على الاشارة الى الزوايا . فالرقم 1 مثلا يتضمن زاوية واحدة والرقم 2 يتضمن زاويتين الخ ... وبذلك تكتب الارقام على أساس الزوايا كما يلى :



فيها نلاحظ ان كل نقطة تشير الى زاويـــة .

ويرى البعض ان هذه الارقام اشتقت من الحروف العربية ، فالواحد مثلا 1 اشتق من الالف ا واثنان من ج = 2 وتسعة 9 من الواو وستة من الهاء . 6 = 6 . وعلى أى حال وهو الاصح فالعرب قد استخلصُوا هذه الارقام من عدة رموز هندية وغير هندية . واليهم يعود الفضل فى تجريدها من الخرافات وما كان يظن فيها من سحر واســـرار اللهوت فالهنود والصينيون من قبلهم اعتقدوا فى أن الارقام منـها مـا هي حقيقية ومنها ما هي خالصة أي مثالية وهذه الاخيرة هي التى ترمز الى سر من أسرار المعرفة . فالرقم 6 مثلا يعد رقما مثاليا فى كونه يدل على ان الله خلق كل شيء فى ستة أيام . وصنـف الصينيون الارقام الى ذكور وانـــاث فالذكور هي التى لا تقبل القسمة الا على نفسها مثل : 3 ، 5 ، 7 ، 11 ، 13 ، 17 ، 19 ... وهى المعروفة لدينـــا حالـيا

بالاعداد الاولية · ثم الارقام الانـــاث مثل : 4 ، 6 ، 8 الخ ··· وهي عكس الاولى · كما اعتقد الصينيون قبـــل فيتاغورس بآلاف السنين فى أن لكـل رقم دلالة سحرية أو يحوى سرا لاحد الاشياء ، فالرقم ثلاثة يحوى سـر السماء والارض والنار ، والاربعة تتضمن الماء ايضا ، والخمسة للهواء ، والستة للرياح ، والسبعة للجبال · كما اعتقد اليونانيون ان رمز الحق واحد والضمير اثنان ، ونسبوا الى العدالة الرقم اربعة، أما الزواج فظنوا انه يكمن فى الخمسة لانه يتألف من اتحاد أول اعداد الذكـور وهو ثلاثة مع أول اعداد الاناث وهـو اثنان وظنوا ان سر البرد يكمن فى ستة والصحة فى سبعة ، والحب ثمانية · وزعموا ان الشكل الهندسى الذى لـه ستة وجه يحـوى سـر الارض ، وان الشكل الهرمى يحوى سر النار ، والشكل الهندسى ذى الوجوه الاثنى عشر يحوى سر السماوات ، وان الشكل الكروى هو الشكل المثالى أو الكامل · ومنهم من قسم الارقام الى ارقام مثالية وأخـرى غير مثالية فالاولى مثـل السـتة وهي التى تساوى مجموع الارقام التى تقبل القسمة عليها (1 + 2 + 3 = 6) ، ومثل 28 (28=14+7+4+2+1)

وزعم نيكوماك الاسكنـدرى ان الارقام المثالية نادرة الوجود مثلها فى ذلك مثل الخير والحسن والجمال ، فهي قليلة يمكن عدها وحصرها ، اما غيرها من الارقام فهى اكثر انتشارا كالقبح والشر

فالديانة الاسلامية تتنافى وهــذه المعتقدات البالية والخرافات العقليــة فالنبي عليه السلام يقول أمرت ان أحكم بالظواهر والله يتولى السرائر ، لذلك راح العرب يزيلون عن هذه الارقــام ما كان يكسوها من غبار ومفاهيم زائفة · كما راحوا يدافعون ضد عبادة الاوثان والسحر والشعوذة · وعملوا عـلى اطلاق تفكير الانسان فى مجال البحـث والمعرفة ، والوصول به الى مجال التحرر والاختراعات والاكتشافات · ويكفيهـم فخرا انهم اضافوا الرمز العاشر للرموز التسعة التى عرفت من قبلهم · وبذلـك أصبح الانسان باستطاعته أن يعبر عن أي كمية مهما كبرت باستعمال احـد الرموز العشرة وهو 0 ، 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 ، أو مركباتها · ولعل اهم ما اخترعه العرب فى هذا الميدان هو النظام العشرى القائم على أساس موقع الرقم أو وضعيته بالنسبة لمـا وضع له · بحيث يكون للرقم دلالتان فى نفس الوقت الاولى دلالـة ذاتيـة والثانية دلالة منزلية · فالعدد 301 مثلا يدل على ان الرقم 1 منزلته الآحاد ، والرقم 0 منزلته العشرات ، والرقم 3 منزلته المئات لذلك يقرا ثلاثمائة وواحد ·

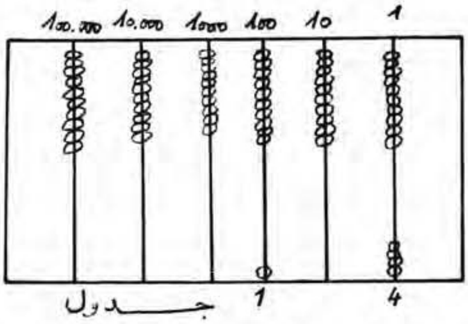
نشأة الصفـــر :

يعد الصفر آخر اختراع وصل اليه العقل البشرى فى اكتشافاته للاعداد وهو أصغر أبناء العدد · ولم يفكر فيه الرياضيون والمتعاطون للحساب الا فى

عصر الحضارة الهندية · ولم تكتشف أهميته الا فى عصر الحضارة الاسلامية ·

ففى العصر المسيحى الاول كـــان الناس يستعملون العصي أو القطـــع الخشبيـــة المستديـــرة أو المحـــار فى حساباتهم · كما استعملت الحضارات القديمة · مصرية ، بابلية ، يونانية ، صينية نفس الوسائل تقريبا فى اجراء العمليات الحسابية وكانت تجابههـــم صعوبات شتى فى انشاء الجداول · ولقد كان الهنود يستعملون كلمة سونيا (ومعناه فراغ) للدلالـــة عـــلى معنى الصفر · وبعد أن فكر الرياضيون العرب فى هذا الفراغ اخترعوا له رمزا سموه الصفر ، ثم انتقلت هذه اللفظة مـــن العرب الى الاوروبيين الذين استعملوها فى لغتهم فكان من ذلك chiffre التى تطور حاليا الى كلمة زيرو ومعناه لا شيء : rien

وباكتشاف الصفـــر تجـــرر العقـــل البشرى من تقيده بالجداول لمدة طويلة من الزمن فأصبح بامكانه نقل الارقام وكتابتها على الورق أو على الالواح كما يفعل فى الجداول · اذ كان قديما تترك خانة فارغة دون أي شيء عندما ينتقل من عمود الوحدات الى عمـــود العشرات أو أضعافها ، وبذلك يصعب عليه نقلها على الورق ·



جـــدول

كما ساعد الصفر على حل الكثير من المعادلات الجبرية خاصة تلك المعادلات من الدرجة الثانية فما أكثر · ومثال لذلك المعادلة من نوع :

$$\text{س}^2 - 5\text{س} + 6 = 0$$

التى يمكن أن نعبر عنها بلغة الكلام كالآتى :

ما هو العدد الـــذى اذا ضـــرب فى نفسه ، ثم طرح منه حاصل ضربه فى خمسة ، ثم أضيفت له ستة كان مساويا للصفر ؟ ولندع الجواب للخـــوارزمى الذى يقول فى حل هذه المشكلة : خذ نصف المعامل للرمز س (ويقصد بالمعامل هنا الرقم 5 وبذلك يكون نصفه $\frac{5}{2}$) ثم اضرب هذا النصف فى نفسه (أي $\frac{5}{2} \times \frac{5}{2} = \frac{25}{4}$) ثم اطرح هذا من العدد 6 (أي $\frac{25}{4} - \frac{24}{4} = \frac{1}{4}$) ثم خذ الجذر التربيعى لهذا الحاصـــل (أي $\sqrt{\frac{1}{4}} = \frac{1}{2}$) ثم أجبره الى نصف معامل س (أي $\frac{5}{2}$) تحصل على قيمة س التى تبحث عنها · أي $\frac{5}{2} + \frac{1}{2} = \frac{6}{2}$ ، وبعد الاختصار س = 3 · أو $\frac{5}{2} - \frac{1}{2} = \frac{4}{2}$ وبعد الاختصار س = 2 وللاختبـــار

نعوض س بقيمتيها فنجد :

$$2^2 - 5 \times 2 + 6 = 0$$

$$3^2 - 5 \times 3 + 6 = 0$$

وهكذا نلاحظ ان الصفر ساعدنا كثيرا فى حل هذه المعادلة التى ظلت مجهولة لدى الرياضيين من اغريق ومصريين وبابليين وهنود الى ان جاء محمد بن موسى الخوارزمى فى القرن الثالث للهجرة ٠

وبهذا يتجلى لنا ان من مزايا الصفر استعماله فى المنازل الخالية من الارقام والاجابة به عن لا شىء ، وتسهيل جميع العمليات الحسابية ، ولولاه لاحتاج المرء الى طرق عويصة وملتوية وربما كانت غامضة لاجراء عملية الضرب والقسمة بالخصوص ، حيث ان هاتين العملتين كانتا فى القديم تقتضيان جهدا كبيرا ووقتا طويلا ٠ ولسنا بحاجة الى القول انه لولا اختراع العرب للصفر واستعماله فى الترقيم لما فاقت الارقام العربية والهندية غيرها من الارقام ، ولما كان لها اي ميزة بل لما فضلتها الامم المختلفة على الانظمة الاخرى المستعملة فى الترقيم ٠

وبايجاز نقول انه لولا الصفر لما تقدمت المدنية هذا التقدم العجيب حيث ان الاوردیناتور وهو أساس التطور الحضارى الحالى يستعمل فى حساباته رقمين فقط هما : الواحد والصفر ٠ فاختراع الصفر لا يقل أهمية عن اختراع الورق واختراع الطباعة ٠

الكسور :

لقد اهتم اليونانيون ومن عاصرهم بالاعداد الصحيحة ولم يشتغلوا بالكسور بل تركوها للعرب الذين جاؤوا فيها بالعجب والعجاب ٠ فمثلا ظل الرياضيون اليونانيون مدة طويلة من الزمن لا يجدون حلا لمشكلة آشيل والسلحفات التى وضعها لهم كسينون فيلسوف ايليا٠واليك هذه المسالة :
اجريت مسابقة عدو بين اشيل المشهور والسلحفاة المشهورة ببطء سيرها ، وكانت المسافة الفاصلة بينهما عند بدء الانطلاق هي ١٠٠ متر ٠ فاذا كانت سرعة آشيل تساوى عشرة أضعاف سرعة السلحفات ، ما هو بعد النقطة التى يقبض فيها آشيل على السلحفات ؟
فكان التفكير السائد لدى اليونانيين هو انه عندما يقطع آشيل مسافة ١٠٠ متر وهي المسافة البدئية الفاصل بينه وبين السلحفات تكون هذه الاخيرة قد قطعت 10 م وعند ما يقطع اشيل العشرة أمتار تكون السلحفات قد قطعت مترا واحدا وعندما يقطع آشيل المتر الواحد تكون السلحفات قد قطعت عشر المتر وعندما يقطع آشيل عشر المتر تكون السلحفات قد قطعت جزءا من مائة من المتر الخ ٠٠٠ وهكذا يظل آشيل يجرى والسلحفات تجرى دون أن يقبض عليها ٠ ولو تمرن اليونانيون فى الكسور لأدركوا ان آشيل سيقبض على السلحفات على مسافة ١١١،١١ متر من نقطة انطلاقه او

على مسافة تساوى $11\frac{1}{2}$ م من نقطة انطلاق السلحفات ، ذلك ان الفارق فى البعد بين آشيل والسلحفات سيظل فى النقصان الى أن يصل الى حد فيه يكون اقل بقليل من طول السلحفات نفسها ٠ فاليونانيون كانوا يحللون الكسور الى وحدات صغيرة كتحليل الاطنان الى قناطر ، والقناطر الى كيلوغرامات ، وهذه الى غرامات ٠ وبذلك كانوا يحللون الكسور كما يحللون الاعداد الصحيحة ومن هنا كانت لهم صعوبات فى تحليل الكسر $\frac{2}{43}$ مثلا الى مجموعة من الكسور لها الواحدة هو البسط ٠ فتحليل الكسر المذكور عند اليونانيين كان كالآتى : $\frac{2}{43} = \frac{1}{30} + \frac{1}{86} + \frac{1}{645}$ ومن هذا المثال تتجلى الطريقة العقيمة وغير الدقيقة ٠ وكثيرا ما كانوا يضعون الكسور الى جانب بعضها للمقارنة مثلما نفعل حاليا فى المقارنة بين وزنين مثلا ٠

لهذا لم يتقدموا فى علم الحساب ٠ أما الهنود فكانوا على عكس الاغريق ، لكن العرب هم الذين خاضوا فى الكسور وعرفوا عنها الاشياء الكثيرة ٠ وممن اشتهر منهم فى هذا الميدان غياث الدين الكاشى الذى توفى سنة 1436 م وقد الف فيها رسائل عديدة منها رسالة فى مفتاح الحساب الذى ضمنه بعض اكتشافاته للكسور العشرية وغير العشرية ٠

كما بين ان عمليات الضرب والجمع هي عمليات تعاوضية اي تبادلية ٠ commutatifs وان عمليات القسمة والطرح هي عمليات غير تعاوضية ٠ وان عملية القسمة هي عملية عكسية للضرب ٠ كما ان عملية الطرح هي عملية عكسية لعملية الجمع ٠ ويتجلى هذا فى قولنا مثلا بالنسبة لهذه الاخيرة : اذا طرحنا من سبعة ثلاثة بقيت أربعة ٠ فيكون عكس هذا : جد عددا اذا أضيف الى ثلاثة أعطى سبعة ٠ ونفس هذه العلاقة تنطبق على الضرب والقسمة ذلك ان ضرب ثلاثة فى أربعة معناه جمع أربعة مجموعات ذات ثلاث وحدات ، وقسمة 4 على 3 معناه ايجاد كم من مرة 3 يمكن طرحها من 4 ٠ وبتطبيق العرب لهذا المنطق الرياضى على الكسور برهنوا على ان قسمة كسر على كسر يكون بضرب المقسوم فى عكس المقسوم عليه مثال لذلك : $\frac{3}{5} \times \frac{4}{7} = \frac{12}{35}$ وان $\frac{3}{5} : \frac{4}{7} = \frac{3}{5} \times \frac{7}{4} = \frac{21}{20}$ ومعنى قانون قسمة كسر على كسر هو ايجاد العدد الذى اذا ضرب فى المقسوم عليه أعطى قيمة المقسوم ، وبتطبيق هذا القانون على المثال السابق نجد : $\frac{21}{20} \times \frac{4}{7} = \frac{84}{140}$ وبعد الاختصار $\frac{84}{140} = \frac{3}{5}$ وهو المطلوب ٠ ونفس الطريقة سلكوها فى البرهنة على جمع وطرح الكسور ٠

وبايجاز فان العرب قد وضعوا مؤلفات كثيرة فى الحساب والرياضيات والهندسة وعلم الفلك وكانوا يكثرون من الامثلة والتمارين فى مؤلفاتهم ويأتون

بمسائل عملية تتناول ما يقتضيه العصر ·
وجل مؤلفاتهم النفيسة موزعة فى الوقت الحالى بين المكتبات الاوربية ، ومنها ما ترجمت الى اللغة الاجنبية ومنهـا ما بقيت محفوظة فى الخزائن · ولقد أخذها منهم الاوربيون عندما تفرقـوا الى أحزاب وشيع وابتلوا بالاستعمار التركى ثم الاستعمار الاوربى · وبذلك اطفئت شمعتهم وفقدوا حرية التفكيـر والابتكار وانساقوا فى درب الجهـل والتأخر ، وانشغلوا بكارثة الاحتـلال الاجنـبى ·

فالله أرجوه أن يلهمنا الصواب وان يهدينا الصراط المستقيم لكي نعود الى ما كنا عليه من خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنـكـر ، وتخوض فى المعرفة ، وتعمل على نشر العلم والمعرفة ·

الاصالة فى شعر ثورة نوفمبر

د٠ محمد نـاصر

ان من أبرز الظواهر التى يمتاز بها شعر الثورة ظاهرة التحدى ، ونكران الذات وهى ظاهرة تدل من دون شك على الالتزام المتأصل فى نفوس أولئك الشعراء ، والواقع لقـد كان التحـدى ونكران الذات جانب من أروع جوانب ثورة نوفمبر المعجزة ، فقد قامت أساسا على التحدى منذ بداية أمرها فليس ثمة ما يدع مقارنة بين شعب اعزل الا عن ايمانه بحقـه وثقته بنفسه ، ومستعمر جبـار متسلح بكـل وسائل التدمير الجهنمية ، متجرد من كل معانى الرحمة والانسانية ٠

ولقد كان هذا الكبرياء الشامخ الذى ميز الشعب الجزائرى مما بث الرعب فى نفوس المستعمرين فتهاوت كل مظاهر الجبروت أمامه ٠

وقد حاول شعراؤنا التعبير عن هذه المشاعر التى غمـرت نفوسهم اصـرارا وثباتا ، وتجسدت من خـلال مواقفهم التى تنكروا فيها لذواتهم منصهرين فى أتون الثورة الملتهبة حيث ذابت نوازعهم الفردية ذوبانا كليا ٠ وتجردوا مـــن عواطفهم الخاصة تجردا متساميا ٠ وان أروع آيات التحدى ونكران الذات هى تلك التى عبر فيها الشعراء عن معاناة واقعيـة عاشـوها بنبضات قلـوبهم ، وخلجات أفكارهم ٠

وأى شاعر لم يتعرض للعذاب ابان الثورة التحريرية ، فهو ان لم يتعرض لآلام التعذيب الجســدى فى الزنزانات والمعتقلات ، فأنى له ان ينجو من آلام العذاب النفسى تنهشه مواجد الاغتراب بعيدا عن الاهل والاحبة والوطن ٠

فهذا مفدى الذى كتب أروع قصائده الثورية من قعر (باربروس) ذلك السجن الرهيب الذى سيبقى شهادة تاريخية حية تدين فظاعة الاستعمار الفرنسى من جانب ، وشهادة فخرية تمجـد الشعب الجزائرى الذى لـــم يعرف الاستخذاء والتذلل ، مفدى يتحدى (بارباروس) وما فيه من ألوان التعذيب الجهنمية ، وهو

يتحداه عن خبرة وابتلاء فقبل ارتيادة له شاعرا ثائرا فى صفوف جبهة التحرير ارتاده مناضلا سياسيا فى صفوف حزب الشعب الجزائرى ، لـذا فهـو يخاطبه قـائلا :

سيـان عنـدى مفتـوح ومنغلـق
يـا سجن بابك ان نفدت بـه العلق

ام السياط بهـا الجـلاد يلهبنـى
ام خـازن النـار يكوينى فأصطفـق

والحوض حوض وان شـتى منـابعه
ألقى الى القعـر أم أسقـى فانشرق

سرى عظيم فـلا التعذيب يسمـح لى
نطقـا ورب ضعاف دون ذا نطقـوا

يـا سجن بابك ان شدت بـه الحلق
من يحذق البحر لا يحدق بـه الغرق

انـى بلوتك فى ضيـق وفى سعـة
وذقت كأسك لا حقـد ولا حنـق

نـام ملئـى عيـونى غبطـة ورضى
على صياصيك لا هـم ولا قلـق

طـوع الكرى واناشيـدى تهدهـدنى
وظلمـة الليـل تغـرينى فانطلـق

والروح تهـزأ بالسجان ساخـرة
هيهات يـدركها ابـان تنـزلق (1)

أما أحمد سحنون الذى عرف هـو الآخر قسـوة السجن ، وآلام المعتقـل وعرف وهـو فى المعتقل عذابا نفسيا مريرا يتجلى فى هـذا الصراع النفسى الذى كان يستبد به من حين لآخر حين تنتهبـه عواطفـه الشخصية تلهـفا الى فلذات كبـده وأهلـه ، وبـين عواطفه الوطنية التى تخفف عنه مـا يلاقيه فى سبيل حرية الوطن من أسى وعذاب ٠

وقد ثمر به لحظة من لحظات الضعف النفسى حين تعصره وحشة السجن حين تتيقظ مشاعر الاغتراب فى اعماقه حادة شائكة قد تصل به لحظة الياس احيانا ولكنه لا يلبث حتى يتحرك بين جنبيـه الانسان الجزائرى الثائر ٠ فيتحدى قوة الظلم بقوة أشد وأعتى ، انها قوة تنبع من أعماقه وتمتزج بدمه وروحه قـوة الايمان التى لا تنفد طاقتها ٠

يا لسجن الانسان حين نـراه يتحـدى الافكـار بالجـدران
لسـت اعنـو لقـوة تتحـدى فكـرتى غـير قـوة الديـان
والايمان القـوى زادى ، وهـل ينفد زاد من قـوة الايمان
وطريق التحرير قد حـف بالاشواك لا بالورود والريحان (2)

---

(1) اللهب المقدس ص 21 ٠
(2) ديوان سحنون ص 105 ٠

وطائفة أخرى من الشعراء تعرضت لعذاب من نوع آخر انه عذاب الاغتراب بعيدا عن الاهل والوطن هذا الاغتراب الذى زاد من قسوته انقطاع الصلة عن الاهل انقطاعا كان فى بعض الاحيان كليا • وزاد من حدته انه اغتراب لا يعلم له انتهاء مما يجعل الانفس معلقة بين اليأس والطمع •• ولكن هذه المشاعر رغم توثبها بين الحنايا فقد طوتها الضلوع وهى تتمزق ، وتنكرت لها وهى تضرب بجذورها فى أعماقها •• وتسامت عليها وانصرفت عن ذكرها حين استحوذت عليها عاطفة أروع واقدس هى حب الوطن الثورة •

فهذا أبو القاسم خمار الذى لم يستطع ان يخفى أحاسيه فيما اشتملت عليه دواوينه (أوراق) (وظلال واصداء) (وربيعى الجريح) • من قصائد ذاتية رائعة •• ولكنه تتنكر لعواطفه الخاصة حين يكون فى هذا التنكر تحديا للمستعمر • ويتعالى على أشواقه الشخصية عندما يتحول الشوق الى الوطن المحرر دون غيره •

لا لن اقول أبى أخى سافرتما وتركتمانى
نضوا يعانى من لهيب الشوق قلبى ما يعانى
انا يا أبى ، انا يا أخى ، ان شئتما ان تعرفانى..
.. فتحسسا ما خلف الشهداء عندى ، تلقيانى •

✡ ✡ ✡

ان لن أزورك منزلى والدمع يجرى من جفونى
أتعثر الاشلاء أدعوها واغرق فى شجونى
أمى ، أبى ، أختاه ، قوموا كلمونى كلمونى !
لا لن أزورك منزلى الا اذا درت ديونى
سأظل فى الدنيا مدانا يا بلادى امهلينى
حتى أكلل هامتى فخرا والا فانبذينى (1)

ويتخذ نكران الذات عند صالح خرفى هو الآخر طابع التضحية بالعواطف الشخصية ، ويتجلى التسامى على المشاعر الذاتية رائعا حين يكون متعلقا بهذه العاطفة التى تمتلك قلب الانسان فلا يستطيع لها دفعا ، واية عاطفة أنبل من عاطفة الحنين الى الزوجة الصبور الوفية ، أو الام الحانية ، ويتعالى نداء الضمير من أعماق الشاعر ليصور هذه الاحاسيس التى تضطرم بها حناياه حين يقول :

(1) ظلال واصداء ، ص 46 •

يا حبيبي ذكريات الامس لم تبرح خيالي
كيف تغفو مقلتي عن ذكرها عبر الليالي
لا تلصني ان ترامت بي أمواج البعاد
لا تلصني لم يزل يخفق للحب فؤادي
غير ان القلب هزته نداءات شجية
صعدتها في دجى الليل قلوب عربية
وجفون مسها الضيم فغصت بالدموع
فاستعارت شعلة الحب لهيبا في ضلوعي
وتراءت لي وراء الصوت اعلام البشائر
فوهبت الحب قربانا وبايعت الجزائر (1)

وطالما لمسنا هذا الحنين الجارف الذي يتحرك في قلوب شعرائنا المغتربين ولا سيما في تلك المناسبات التي تذكرهم باجتماع الاسرة والاحباب ، ولعل خرفي أكثرهم عناية بهذه المناسباب العيدية فنجد في ديوانه (اطلس المعجزات) خمس قصائد في هذا الموضوع بالذات ولكن العيد عنده كان يتخذ طابعه الثوري ابدا ، فاحيانا يرى العيد الحقيقي في قمم الجبال المضمخة بعطر الشهداء ودم الابطال • فيخاطبه بقوله (يا عيد لذ بالشاهقات) (2) وهو عبد جريح تحرم فيه الابتسامة الا ان تكون ابتسامة جرح ثائر •• وهو يرى بأن الضحية في عيد النحر انما يجب ان تكون بالاعداء المناكيد •

غير ان الاشواق قد تكون ملتهبة ، والحنين جارفا عندما تفرض الغربة على الشاعر ان يقضي (عيد الام) بعيدا عن أمه ، هذا العيد يذكر الشاعر بأمه النائية وهو يرى الابناء يتسابقون الى أمهاتهم يحملون الهدايا والزهور •• ويبحث عن أمه بين الوجوه فلا يجدها ويجهد نفسه بحثا عنها فلا تسعفه عيناه اللثان تذرفان الدموع غزارا • وعندما تمل رجلاه تطواف الشوارع يعود الى كسر بيته غريبا وحيدا محطم النفس ، ليكتب الى أمه الرسالة التالية : (1)

(1) اطلس المعجزات ص 193 •
(1) اطلس المعجزات ص 98 •

أمــي اليــك حكــاية منــى تجسـم دائيـة
كان الصديق صباح عيد الام يعرف مـا بيـه
والخل ابـن النيـل مصرى يفيض حساسية
فمشــى بجنبى ساعـة اقضـى الحياة كماهية
حتى اذا كـان الـوداع وفى الـوداع أنـانية
فسألته عـن قصـده ، عـن سعـده وشقائية
فأجاب أمـى لا أشــك بغيبتى فى داهيــة
قلقــت عليـه أمــه لمــا تغيــب ثانيـة
وصبـرت انـت لغيبـة سنــواتها متتـالية

✡ ✡ ✡

رجع الصديق لامــه ورجعت للكـوخ الصغير
فلزمت بيــتى يـوم يتـرك بيتـه خلق كثـير
وسئمت تجوال الشوارع فارتميت على السرير
لكن يا أمـى بسمت ، بسمت مرتاح الضمير
لما علمـت بـان هـذا كلـه ثمــن المصـير

واذا استطاع الشعراء المغتربون أن يتساموا على عواطفهم ، واذا علموا كيف يذيبون آهاتهم ومواجدهم لتصبح حـبا خالصا للجزائر وحدها ، فان أمهاتهم أنفسهن أكثـر استطاعة وقدرة عـلى نكران الذات بل انهن هن اللائى ارضعن هـؤلاء الابنـاء الانفــة والكبـرياء ، واستبدلن بالزفرة والنحيب للغريب أو الشهيد بسمة طمأنينة ورضى وزغرودة اباء وايمان ، وما الام التى يعتز بـها محمد الصالح باوية الا نموذج لـــلام الجزائرية ٠

اقسمت أمـــى بقيـدى سـوف لا تمسـح مـن عينـى دمـوعى
اقسمت ان تمسح الرشاش والمـدفع والفأس باحقـاد الجموع
ان أراها ضربة عذراء تغـزو بسمـة السفاح فى الحقل الخصيب
اقسمت ان ترضع النصر واختى فى ضفاف الموت فى عنف اللهيب
يـا صرير الثـأر يسرى فى حنايا ضربتى نـارا تناغى امنيـاتى
انـا جبـار ورعـد وانفجار احمـل الفجـر بـأيد داميـات (1)

(1) أغـانى نضـالية ص 42 ٠

رأينا فى النماذج السابقة صورا للتحدى ونكران الذات تشهد جميعها بالاصالة الثورية لاولئك الشعراء ، ولكن الصورة التى يبرز فيها التحدى مهيبا جليلا هى صورة الشهيد عندما يواجه المقصلة دون أن يرف له طرف أو يتردد له خطو ·· ان صورة البطولة تكون فى قمة روعتها عندما تمتزج بالاباء المتشامخ والكبرياء المتعالى ·· هذه الصورة التى تصور اللحظة الرهيبة فى حياة كل مخلوق لخطة مواجهة للموت ·

تلك هى اللوحة التى صور فيها مفدى زكريا الشهيد أحمد زبانه أول شهيد جزائرى يدشن المقصلة فى سجن (باريروس) · لقد استقبل الشهيد زبانه المقصلة

باسم الثغر كالملائك أو كالطفل
يستعبل الصباح السعيدا
شامخا انفه جلالا وتيها
رافعا راسه يناجى الخلودا

ان منظر هذا الشهيد ، وهو فى أشد المواقف استدرارا للعطف والشفقة ينقلب بايمانه المتأبى ، الى أشد مواقف البطولة بعثا للرعب فى نفوس الاعداء ومن أمرها تحريكا للغيظ فى قلوبهم ، وذلك حين يتحداهم بقوله :

اشنقونى فلست اخشى حبالا
واصلبونى فلست اخشى حديدا
وامتثل سافرا محياك جلا
دى ولا تلتثم فلست حقودا
واقض يا موت فى ما أنت قاضى
انا راض ان عاش شعبى سعيدا
انا ان مت فالجزائر تحيا
حرة مستقلة لن تبيدا (2)

ومن مظاهر التحدى ايمان الشعراء القوى بأصالة الشعب الثورية هذه الاصالة التى لم تعرف عبر تاريخ كفاحها الطويل ضد المحتل الفرنسى ، خفضة رأس أو انحناءة ظهر ، ثقة منهم بان هذه الثورة انما تضرب بجذورها فى عمق كل جزائرى حر ، وتستمد نارها وتأججها من تاريخه الذى ظل يغلى ببركان الثورة منذ ان وطئت قدم أول فرنسى أرض الجزائر ·

فعظمة الثورة واصالتها عند (مفدى) مثلا ، هى ارتكازها على قوتين جبارتين قوة روحية هى قوة الدين الاسلامى · وقوة مادية هى قوة الشعب وتضامنه فيما بين أفراده وانضباطه حول قيادته

---

(2) اللهب المقدس ص 9 ·

وهـو مـا أعطى لثورة التحرير الاستمرارية الصـامدة . والشعبيـة الشاملة ، وقـد صـور ذلك التجاوب الرائع بين الثورة والشعب ذاهبا الى ان جلال ليلة أول نوفمبر لا يقل عن جلال ليلة القدر التى نزل فيها القرآن فيصلا بين الحق والباطل ٠

وهـزت ثـورة التحـرير شعـبا
فهـب الشعـب ينصـب انصبـابا
تنـزل روحـها مـن كـل أمـر
بأحـرار الجـزائر قـد أهـابـا
ولعلـع مـن (شلعلـع) ذو بيـان
فانطـق فـوق (جرجـرة) الجعابا
وشبـت مـن ذرى (وهـران) نـار
رآهـا (بـرج مـدين) فاستجـابـا
وقـال اللـه كـن يـا شعب حـربا
عـلى مـن ظـل لا يـرعى جنـابـا
وقـال الشعب كـن يـا رب عـونا
عـلى مـن بـات لا يخـشى عقـابـا
فكـان ، وكان مـن شعـب ورب
قـرار أحـدث العجـب العجابا (1)

ومن أبرز مظاهر أصالة الشعب الجزائرى الثورية وحدثه الوطنية واتحاده الملتحم الذى برز ابان الثورة فى أكثر مـن مناسبة ، ولعله من أبرز تلك المناسبات حدثان رائعان أولهما نضـالى وثانيهما سيـاسى ٠ امـا الاول فهـو الاضراب الاسبوعى الذى لقن المستعمرين درسا رائعا عـن انضباط الشعب الجـزائرى والتحامه الشديد مع ثورته وقادتها٠ان الاضراب الاسبوعى الذى وقع فى سنة (1957) وتجليه بذلـك المظهـر الـذى ادهش المستعمرين . وأصابهم بخيبة أمل مريرة ٠ قد قدم أمام اعينهم دليلا قويا عـلى مـدى العمق الثـورى والالتفاف الشعبى الذى تحظى به هذه الثورة ٠

لقـد تحـركت أحاسيس الشعـراء الجزائريين تفاعلا بهذا الحدث الجليل فلم يستطع تجاوزها أى شاعر منهم حتى أولئك الذين كانت كتاباتهم قليلة فان الفيض الشعرى هذه المرة تدفق عليهم فخلـدوا هـذه الذكرى التى تحمل فى مطاويها أكثر من رمز ، واذا كان مـن المتعذر هـنا الاستشهاد بتلك القصائد كلها أو بعضها ، فلا أقل من ان نشير الى ان النزعة الغالبة على تلك القصائد هى نزعة الالتفاف حول الثورة تحـت قيادة جبهة التحرير الوطنى ، واظهار الوحدة الشعبية الرائعة التى تمخضت عن هذا الحدث ٠ وهى فى حد ذاتها من أغلى مكاسب حرب التحرير ٠

---

(1) اللهـب ص 198 ٠

ومن هذه القصائد نستشهد بنموذج (لسعد الله) وهو يصف ذلك الاسبوع التاريخى فى قصيدته (اصرار) :

الافـق خبـاء يتمزق
والليـل عيـــاء
والارض عـــرق
وقباب بيض سهرانه
رعب يدنو فى عجـل
مـن دبابات تتـأفف
فى كل الاحياء العربية
ونـداء الجيش الوطنى
صـرخة عمـلاق هـائل
فى كل فراش مخنوق
فى كل طريق مشنوق
وعلى الجدران المغتصبة
نقش الشعب الثائـر
تحـــيا الحـرية

☆ ☆ ☆

والشمس جريحـة
ثلـج مطـر أحمر
يـوما سبعة أيـام
عامـين ثلاثـة أعـوام
والافق خبـاء يتمزق
والليل مقـابر جوعانه
والشعب الـه يتالق (1)

أمـا القضية الثانية فهـى قضيـة محاولة فصل الصحراء عن الشمال هذه القضية التى حركت أقـــلام الشعراء فكتبت عنــها تعـرية وكشفا وتناولتها بأساليب تختلف بين الحماسة والتهكم فقد فضل بعض الشعراء السخرية من سذاجه السياسيين الفرنسيين الذين رغم طول احتكاكهم بالشعب الجزائرى لـم يستطيعوا ان يعرفوا أصالته الثـورية ونظرته المقدسة الى كل شبر من أرض وطنـــه .

ولناخذ كنموذج لهذا التهكم قـــول (خباشـــة) وهـو يخاطـب الساسـة الفرنسيين ... ويتندر بما عرف عندئذ (بربع ساعة) الذى حـدده (لاكوست) لتصفية الثورة الجزائرية :

شعـب الجـزائر وحـــدة جبـارة
جســم تكامـل فهـــو لا يتقطـــع
هــذى ارادتـــنا وذلـــك حلمـــهم
وارادة الشعـــب المصمـــم اقطـــع
(أربـاع ساعـات) توعـــدنا بـــها
(لاكوست) ايـــن وعيـــده المتميـع
أو للهشيم مـــع اللهيـب نطـــاول
ان الجبـــان لبالتـــوعد مـــولـع
زعـــم المغفـل ان سيمحق شعبـــنا
فابشر بطـول سـلامة يا مربع (2)

(1) ثـائر وصـب ص 64 .

(2) الروابى الحمر ص 156 أيضا ص 36 . انظر أيضا اللهب المقدس ص 314 .

اما صالح خرفى فقد صب موقفه فى أسلوب حماسى تـزدحم فيـه الصـور البـدوية :

خبـــر قــراصنة الفضـاء بـانـنا
فى البيد عـين لا يراودها الكــرى
البيـــد سفـــح للاشـــم كــلاهما
للـثار مشـدود الاواصر والعــرى
يا مــن عـلى الصحراء سال لعـابهم
كـم مورد فيها سلوا هـل اصدرا ؟
اقسمت بالرمضاء فيــها ، بالـرياح
الهـــوج تنتعـل الجـديب المقفـرا
بالنـاقة الوجنـاء فيـها لـم تــزل
عـربية الخطوات شـامخة الــذرا
اقسمــت بالحـادى وبالفصحى التى
نـاجى بها الليـل الجميل المقمـرا
بالخيمة السـوداء بالليـل الانيس ،
بنـارها مـا انفـك طـائى القـرى
بالنفط فى الصحرا عشقت سـواده
الداجى ، وعفت به النضار الاصفرا ـ
سنشنـــها عمـــريـة سعـــدية
سنثـير رملتها قتامـا اغبـــرا (1)

والاصالة الثورية لا تتخذ مظهرا لها فى تماسك الشعب ووحدته الـوطنية فحسب ، وانما تتجـلى أيضا فى ايمانه بأصالته الذاتية دينا وقومية ٠

(1) اطلـس المعجزات ص 176 ٠

فقد ادرك الشعراء عن وعى بأن القيم الاسلامية التى حفظت للشعب أصالته المتميزة طيلة قرن ونصف من الاستعمار الصليبى الحاقد ، هى القيم نفسها التى كانت تمد الثورة المسلحة بالمدد فيزداد لهيبها اشتعالا ، وهى القيم التى حددت هـــوية الثورة وأعطتها بعدها الشعبى الساحق ، وكان الثوار بالتالى يصدرون عنها فى حالتى النصر والاستشهاد ٠

ان هذا الادراك الواعى من شعرائنا يفسر لنا ارتباط كثير من القصائد ابان الثـورة بالمناسبات الـدينية كالمـواسم والاعياد ، فنجدهم يتفنـــون بالسنـة الهجرية التى ترمز الى بداية الكفـاح العملى ضد الظلم والجبروت ، تمجـــد ذكرى غزوة بدر التى تعد نقطة التحول من الكتمان الى الظهور ومن الضعف الى القوة ٠ وهكذا راحـوا يهتمون بعيـد النحر ٠٠ وعيد الفطـــر ٠٠ ورمضان المعظم والمولد النبوى مستمدين منـــها جميعها معـــانى الفـــداء والتضحية ، والصمود والثبات ٠

كما نجد بعضهم كثير الربط بـــين ثورة نوفمبر وبين الشخصيات الاسلامية ذات التاريخ الجهادى من امثال الامـام عـــلى ، وخالـد بن الـوليد ، وعمـرو

ابن العاص وعقبة بن نافع الفهرى ، وحسان بن النعمان ، وطارق بن زياد ، مؤكدين بان هذه الثورة إنما هي استمرار للجهاد الاسلامى ضد الكفر ، والظلم والطغيان ، وان الذين اشعلوا الثورة فى الجزائر ينحدرون أصلا من أصلاب أولئك الفاتحين الاوائل . (وعن هذا يقول مفدى) :

أرض الجزائر والسماء تحالفا
فاختط حلفهما النجيع الاحمر

والشعب اسرع للشهادة عندما
ناداه عقبة للفداء (وحيدر) (1)

ولعل أكثر شعرائنا اهتماما بهذا الجانب من الثورة هو الشيخ احمد سحنون ، الذى قلما اغفل مناسبة من هذه المناسبات الدينية ، وهو فى كل هذه القصائد يؤكد انتماء الثورة الجزائرية الى هذه الجذور الروحية العظيمة . يقول الشيخ سحنون ، مستلهما ذكرى 17 رمضان يوم بدء نزول القرآن الكريم .

يا رسول الله لو تبصرنا
نتحدى كل أعداء الحياه

نتحدى السجن والنفى معا
نتحدى الموت فى كل اتجاه

لو ترانا أمة واحدة
كلنا ينصر فى الخطب أخاه

لو ترانا خلتنا عندنا كما
كنت فينا لمباديك حماه

من فتى كالسهم سباق الى
مورد الحتف ليجنى مبتغاه

وفتاة روحها فى كفها
ضربت خير مثال للفتاه (2)

ويلتقى خباشه بالشيخ سحنون فى هذه النظرة التى لا ترى فى معارك التحرير على أرض الجزائر سوى امتداد لغزوة بدر الكبرى ، لان هدف تلك وهذه واحد وهو ان تصبح راية القرآن خفاقة فى هذه الربوع التى أراد المستعمر الصليبى ان يجعلها مسيحية .

تبارك ليلنا عن ألف شهر
وكل زحفنا فى يوم بدر

تواكبنا الفتوح بغير سيف
وتحدونا ملائكة بنصر

فخلدنا البطولة معجزات
يرتلها الزمان بكل عصر

اعدنا للورى يوما اغرا
لنهزم بالجهاد فلول كفر

(1) اللهب ص 306 ويريد بحيدر هنا الامام على (كرم الله وجهه) .
(2) ديوان سحنون ، ص 215 .

لتخفق رايــــة القـــرآن ظــلا
عــلى دنــيا تقلــب فــوق جمــر
فـما نــزل الكتاب لبعض يــوم
لقـد نــزل الكتاب لكــل عصــر (1)

ويكون الربط بين الاجداد والاحفاد من الصور والمعانى التى سيعتمد عليها الشعراء فى قصائدهم واستروواح الامجاد التاريخية عندهم يتخذ طابع الاستلهام الذى يبعث النخوة والاعتزاز بالنفس والثقة فى مميزاتها لا مجـرد تفاخـر وتواكل عقيم ، وتصبح هذه الامجــاد التى هى جزء لا يتجزأ من كيان هــذه الامة قسما به عند الامور العظام كقول خـرفى مثـلا عنـدما راح المستعمرون يحاولون لعبـة الفصـل بـين الجنوب والشمال ·

اقسمـــت بالصحــراء مهـــدا
لانبثاق الوحى نقاها حـراء وطهـرا
سنعيـــد ذكـــرى القـــادسيـة
للنهى تهـوى بكسرى تطيح بقيصرا
سننشنـــها عمـــريـة ، سعـــدية ، سننشـــر رملتـــها قتـــاما أغبـــرا
ذكـــرى سنجعلها وتبـــقى عبـــرة فى الخافقـــين لمـــن وعـــى وتذكـــرا
ان كنتـــم تجـــار حـــرب ان مـــن أجـــدادنا مـــن بـــاع فيهـــا واشترى
فرســان حـومتها سلـوا صهواتها كـم أسرجت بابن الـــوليد وعنتـــرا (2)

ولا تكتمل الاصــالة الثـورية الا فى التعلق بكل مقومات الشخصية ، ومـن أبـرز مقوماتها التمسك باللغة العربية لغة القرآن الكريم · وقد كان شعراؤنا يؤكدون على هذا الجانب من الشخصية الجزائرية التى تعرضت لمسخ متفرنس

وكان بعضهم يبرز هذا الجانب فى المحافل الادبية العربية التى كان يرفع فيها صوت الجزائر العربى ·· وكانت الجزائر فى معتقد كثـير مـن أشقائنا العرب انها مسخت مسخا وان الجزائريين لا يحسنون غير لغة المستعمر لغة تعبير وانها بالتالى قد تفرنست ذوقا وسلوكا ، فكان الرد على هذه الدعوى العريضة من مستلزمات الكفـــاح ، ومـن أوكـــد الواجبات الداخلة فى الاطار الثورى ، ومن هنا نجد صالح خرفى الذى مثـل الجزائر فى المؤتمرات العربية الادبية من أحرص شعرائنا على تفنيد هذا الزعم الباطل بمثل قوله :

مـن قال عـنا فى العـروبة قـالـة
فقـد افتـرى زورا علينـا وادعـى

(1) الــروابى ص 147 ·
(2) اطلــس المعجزات ص 178 ·

هى بعض ما ينساب بين عروقنا
هى وقع دقات تهز الاضلعا
هى طرفنا ان مسه يوما قذى
متطاول ، فلقد أقض المضجعا (1)

وقد يلتمس الخرفى عذرا للجزائر من الذين كانوا يتكلمون الفرنسية فى تلك الظروف التى لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها ، ولكن الفرنسية لا تتجاوز اللسان الى القلب ، ولا تتعدى التحادث الى المشاعر ، فالعربية ان غاضت لسانا فهى فى الاعماق تتفجر اباء ونخوة ، وان سكتت السن عن الضاد كلاما فانها ظلت تفصح عن عروبتها وأصالتها بلغة السلاح فى ساحة الشرف ٠

عرب نحن والعروبة غذت
بهواها عروقنا ودمانا
هى كالنبع دافق فى الحنايا
ان تكن فى اللسان غاضت بيانا
لوثة العجم ان غزتنا فبأس
العرب فينا بيانه لا يدانى
سكتت السن عن الضاد لما
ألسن النار رددته بيانا
عرب اليوم بالدماء وانا
عرب فى غد دما ولسانا (2)

والاصالة العربية عند (خمار) ليست هى الاعتزاز باللغة العربية لسانا أو التعلق بها عاطفة فحسب ، وانما أبعد من هذا وذاك وانها ماض حضارى ، وحاضر نضالى ، ومستقبل مشترك ٠ وما الثورة الجزائرية الا تجسيد لكل هذه المعانى السامية وهى لن يخبو لها أجيج حتى تحقق هذا الامل الذى لا يتجلى الا فى وحدة الامة العربية ٠

عرب نحن والعروبة ارث
ولسان ومذهب ومشاعر
كل جزء فى موطنى من خليجى
تفديه منى الكواسر
ثورتى لن تكف الا اذا ما
وحدث أمة ، وهزت مصائر (3)

ومنذ بداية الثورة سنجد (خمار) يربط بين الثورة الجزائرية وقضية فلسطين ، ويرى بانه لا يكتمل للثورة انتصار الا اذا عادت فلسطين الى عروبتها الاصلية ٠

أى نصر كسبته فى بلادى
ليس نصرا ما دمت أحمل ثارا
فانهمر يا دم الكفاح بارجائى
ولون ثراك شبرا فشبرا

---
(1) م٠ س٠ ص 122 ٠
(2) اطلس المعجزات ص 142 ٠
(3) ظلال واصداء ، ص 111 ٠

مـا خلقنـــا الا لنفتـــح الآفـــاق
نـــورا ونـــزرع الارض نصـــرا (2)

اما (خباشه) فيرى الوحدة العربية واقعا معاشا تجسد كاروغ ما يكون التجلى ابان مرحلة الكفاح المسلح فى الجزائر ، وهى وحدة لا يمكن فصلها عن القيم الاسلامية التى هى الوازع الحقيقى الذى شد أزر هذه المشاعر ونماها فى النفوس .

لقـــد انتظمـنا أســـرة عـربيـة
مـذ شـع فينـا الـوحى والالهـام
كـم صوب المستعمرون سهـامهم
فـاذا صـدور المعتـدين مـرام
كـم حاولوا تقسيم جسـم واحـد
ويعـز أن تتقسـم الاجســام
مـا خطـه الشعب العظيـم لنفسـه
سيكون ، لا ما خطـه الحكـام (2)

وبعد فهذا هو الموقف الاصيل الذى وقفه شعراؤنا اثناء الثورة التحريرية ايمان قوى بالكفاح المسلح وثقة كاملة بالنصر ، وانصهار تام فى اتون الثورة تجلى فى نكران الذات وتحدى القـوة المستعمرة ، وأصالة ثورية تستمد مقوماتها من الشعب ومن قيمه الروحية والقومية .

---

(1) م. س. ص 112 .
(2) الروابى الحمر ص 140 أيضا ص 85 ـ 108 ـ 112 .

الشعر العربى
بين
المنهج الفنى والمنهج الاسلامى

د. حامد حفنى احمد داود
استاذ بجامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

الشعر ديوان العرب ، ومعقل محافلهم ومفاخرهم ، وفيه صوروا حياتهم فى الجاهلية والاسلام ، ورسموا معالم تاريخهم ، ولعلهم آثروا هذه الصناعة على صناعة النثر لحلاوة جرسه وعذوبة موسيقاه ، وخفة تأتيه، وجريانه على طرف اللسان فى سهولة ويسر ، وهذه القسمات الفنية فى أسلوب الشعر مكنتهم من حفظه واستيعابه وروايته عبر الاجيال ، بالاضافة الى ما تميز به من وزن وقافية . وهو الى جانب ذلك أوسع من النثر مجالا وأقرب تناولا لكل ما عناهم من مطالب الحياة وأغراضها وموضوعاتها ودوافعها ، فكان خير أداة فى التعبير عن كل ما يريدون من مدح وهجاء ، وغزل ورثاء ، وفخر ووصف، وشكوى وعتاب ، فى صورة بليغة مؤثرة لا يتاح مثلها فى النثر بلاغة وتأثيرا . وهم فى هذه الصناعة لم يفضلوا شعرا على شعر ، أو يقدموا قصيدة على قصيدة على أساس من القيم الفلسفية المشهورة وهي : الحق والخير والجمال . وانما جعلوا نصب أعينهم الجمال الفنى وحده، واختاروا من ذلك : الجمال الموحى بالقوة والمتعة الحسية ، وجعلوا ذلك شرطا فى صلاحية النص . ومن ثم أصبح عنصر الجمال الحسى دستورا عاما لفنهم الشعرى . ولم يكترثوا بعنصري الحق والخير الا نادرا .

واذا نظرنا نظرة عامة للشعر العربى : جاهلية واسلامية لاحظنا ان المقياس الفنى عند نقاد الشعر كان مقياس الجمال وحده ، دون مبالاة بما

يحمله النص من خير أو شر ، من حلال مشروع أو حرام ممنوع ، من بناء للقيم أو هدم لها · وهم فى ذلك أقرب شبها الى ما تدعو اليه « المدرسة البرناسية » الحديثة فى دعوى الفن للفن ، دون نظر الى ما يحمله الفن من خير أو شر ، حق أو باطل · وأسلوب الشعر عند هؤلاء البرناسيين يقاس بقدر ما فيه من عاطفة متأججة وخيال مجنح ، وما يشتمل عليه النص من خلابة أساسها التشبيه الجميل، والتمثيل الرائع ، والاستعارة الموحية · ونحن لا نعنى بذلك كوكبة الشعر العربى، ولكننا نعنى الشعر الجاهلى ، وكذلك نعنى الشعر الاسلامى الذى ليس له من جانب الاسلام الا الاطار الزمنى ، ذلك الشعر الذى لم تمسسه يد الاسلام ولم تعمل فيه قيمه ومثله العليا ، ولم يأبه بمبادئه وما فيها من دعوى الحق والخير ·

أن الاسلام حين أظل الجزيرة العربية والبلاد التى فتحها العرب بنى أمية قوية ، جديدة فى اقتصادها وسياستها، جديدة فى اجتماعها وفكرها ، جديدة فى فنها وأدبها · وأخضع ذلك كله لقيم جديدة ، ومثل جديدة ، غايتها التوحيد ، وأساسها الاخلاق ، ومنهجها الالتزام بالعمل لتحقيق سعادة الانسان فى الدنيا والآخرة · لذلك كان لابد من أن تتغير نظرة الاسلام للشعر ، وأن يحل (المنهج الاسلامى) محل (المنهج الفنى) ليضيف الى الشعر العربى قيما جديدة تتركز حول الحق والخير · وليس لقائل ان يقول : « ان الفن لا ينبغى أن يقاس الا بمقاييس الجمال » ، ذلك لان الاسلام لم يرفض المقياس الفنى ، وانما رفض أن يكون الجمال وحده هو الفيصل فى مجال الفن البناء ، فأضاف اليه هذين المقياسين ليستكمل الصورة الفنية من جميع جوانبها ·

هذا هو الموقف الذى وقفه خاتم الانبياء محمد عليه السلام وهو يبنى الامة الجديدة فأزاح عن الشعر كل ما كان عالقا به من رذائل الجاهلية وسخفها وعاداتها · وهدم ما فى الشعر من واقعية متطرفة هدامة لا تؤمن بالتراحم والتعاطف ، وقعية تؤثر مبدأ الاثرة والاخذ بالثار على مبدأ الايثار والتسامح · وهكذا كان لابد للمنهج الاسلامى من أن ينفى بطريق مباشر وغير مباشر كل معنى واقعى ، كقول زهير بن أبى سلمى :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وكان لابد للرسول عليه السلام من أن يستبدل بهذه الدعوة الواقعية الدعوة الى التعامل المثالى ، فيؤثر التسامح والتعاطف على التراشق والشحناء ، ويقدم المثالية على الواقعية ، حين يقول عليه السلام : اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله ، وحين يقول : واعف عمن ظلمك · فشتان ما بين منهج واقعى

دعا اليه الفن القديم ومنهج مثالى دعا اليه الاســلام ·

ولهذا السبب ازدرى النبي عليــه السلام امرؤ القيس واترابه من شعــراء الجاهلية ، كما ازدرى غيرهم مــــن شعراء عصره الذين لا يؤمنون برسالة الاسلام فقال مهجنا أميرهم : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعر الى النار» (1) وفى رواية اخرى : « امرؤ القيس قائد الشعراء الى النار لانه أول من أحكــم قوافيهـــا » · (2)

واذا كان المنهج الاسلامى يأمــــر الشعراء أن يتمسكوا بالحق والخيــر والجمال وألا يفرقوا بين هذه القيـــم ، أو ينفوا احداها على حساب الاخرى ـ فان الاسلام رفض رفضا باتا المنهج الذى يؤثر الفن لذاته (أي الفن للفن) ، وهو المنهج الذى لا يحمل فى طياتـــه خدمة الناس ومبادىء الانسانية ولا يكاد يحفل الا بعنصري الخلاية والصورة الفنية · وفى مثل هذا المنهج يقـــول النبي عليه السلام : « من قرض بيــت شعر بعد العشاء لم تقبل له صلاته تلك الليلة حتى يصبح » (3) · ويقول : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيما حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا » (4) · ولامر ما كان النبي صلوات الله عليه يقــول : « أبغض أن أرى المــجـنون أو الشاعر » (5) · ولهذا السبب لم يرض الله لنبيه صناعة الشعر ، ونزه مقــــام النبوة عن أساليب الشعراء لما فى الشعر من كذب ومبالغة ، وللذى فيه من سمات قريبة الشبه من سجع الكهان وأساليب الجاهلية · وفى ذلك يقول سبحانــه : « **وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، ان هو الا ذكر وقرآن مبين** » · (6)

ان تشقيق الشعراء لشعرهم تشقيق الخطب ، واسرافهم فى عنصرى المبالغة والايغال ، وايثارهم هذه الصناعة فى أغراض الشعــر بعامــة ، وفى المــدح بخاصة ، جعلت النبى صلوات اللـــه عليه يشدد النكير على شعراء المدح ، حتى كان المدح ابغض أغراض الشعــر الى نفسه بسبب ما يتضمنه من كــذب ونفاق ورياء ، وتزلف ممقوت ، وتقرب لغير الله ، وايثار لحظوظ الدنيا على حظوظ الآخرة ، وهناك أحاديث كثيرة تزرى بالمدح والمداحين ، منها قولــه :

---

(1) رواه ابو هريرة ، واخرجه الامام احمد فى مسنده ·
(2) رواه أبو هريرة ، وأخرجه ابن عساكر ، وأبو عروبة فى الاوائل ·
(3) رواه شداد بن أوس ، وأخرجه الامام احمد فى مسنده ·
(4) أخرجه الشيخـــان ·
(5) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس ·
(6) سورة يس آية 69 ·

« احثوا فى وجوه المداحين التراب» (7)، وقوله : « اذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب » (8) ، وقوله : « اياكم والمدح فانه الذبح » · (9)

فهل يفهم من هذه الاحاديث ونحوها أن الاسلام ضيق دائرة الشعر كما يبدو للسطحيين من نقاد الفن والادب اليوم ؟؟ والجواب : لا ، لان الاسلام لم ينف من الشعر الا أرذله ، ولم يرفض من الشعراء الا كفارهم وأرذالهم الذين يعارضون مبادىء الاسلام ويخرجون على نواميسه وآدابه وأخلاقه ، مستثنيا شعراء الاسلام المؤمنين بقيمه الروحية ومبادئه العليا ، وهذا ما أشار اليه الحق سبحانه فى قوله من سورة الشعراء : « **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون · الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا** ··· الآية » (10) · وهكذا ارتفع الاسلام ـ فى منهجه الاسلامى ـ بشخصية الشاعر ، ونزهها عن العبث والتذلل بين يدى الممدوح ، وأبى الا أن يحفظ للشاعر ماء وجهه ويحبس عليه كرامته أن تهدر · ولكن السطحيين من نقاد الشعر لا يعلمون ·

وليس أدل على صدق ما ندعيه ، من أن الاسلام وسع دائرة الشعر الهادف البناء ، ذلك الموقف الذى وقفه النبي حين أجاز للشعراء أن يهجوا كفار قريش ، وسوغ لهم النيل من أعداء الاسلام وخصومه الى أبعد الحدود · ولهذا استحث النبي حسان بن ثابت الانصارى على هجاء قريش مع أنهم عشيرته ومسقط رأسه ، ذلك لان النبي عليه السلام أراد أن يطبق المثل العليا التى أوحى بها الله اليه ، ولم يجد طريقا لتحقيق ذلك الا أن يقتل العصبية الجاهلية فى مهدها ويحل محلها المثل العليا التى أقام بها دعائم الاسلام · كيف لا !! وهو القائل « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » (11) · ولذلك كان يأمر حسانا أن ينوب عنه فى هجاء قريش · والنبي ـ هنا ـ آثر الشعراء فى هجائهم دون الخطب النثرية لانه ـ وهو سيد الحكماء ـ أراد أن يحاربهم بسلاح من جنس سلاحهم ، وهو سلاح أشد على نفوسهم من وقع السهام فى غلس الظلام · وفى هذا يقول النبي مخاطبا حسانا : « اهج قريشا فان الهجاء أشد

---

(7) أخرجه مسلم وأبو داود ·
(8) أخرجه مسلم ·
(9) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ·
(10) سورة الشعراء آيات 224 ـ 227 ·
(11) حديث حسن رواه جبير بن مطعم وأخرجه أبو داود ·

عليهم من رشق النبل » (12) • ويقول : « اهـــج المشركيـــن فـــان روح القدس معك » (13) • وفى رواية ثالثة أخرجها الشيخان : « اهجهم فان روح القدس سيعينك » (14) • وفى رواية رابعـــة أخرجاها : « يا حسان اهجهم وجبريل معك » (15) • وفى رواية خامسة لهما : « يا حسان أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس » (16) • وهكذا نرى أن أحاديث هجاء قريش من رواية الشيخين تؤيـــد تأييدا لا شك فيه – ليس فقط – علـــى اجازة النبي لشعراء الاسلام جهـــاء الكفار ، بل على الدعوة لذلك والامـــر به ، وأن هذا الهجاء من أسباب القربى الى الله ، والا ما كان لجبريل وهو أمين الوحى أن يشارك فى ذلك • ومن تأمـــل ذلك من نقاد الشعر عرف كيف وســـع الاسلام دائرة الشعر فيما يحمى دعـــوة الحق والخير بقدر يفوق كثيرا ما ضيق فيه من مجال الفن غير الهادف وما نفاه نفيا باتا من مجال الشر •

ودعنى أشرح لك كيف وسع سيـــد الانبياء مجال الشعر الهادف حـــتى أشرف على كل مجال من مجالات الشعر الفنى وغلب بمنهجه الاسلامى الهادف كل قيم الجمال المحض ، وحمل الشعر حملا على الحق والخير – ما يحكيه الرواة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل على النبي عليه الســـلام والصحابة يقرءون بين يديه شعرا فى مجلس القرآن ، فقال أبو بكـــر : قـــرآن وشعر !! – متعجبا لا معترضا – فقال صلوات الله عليه – وهو الحكيم بطبائع النفوس والهادى الى سعادة الدارين – قوله المشهور : « روحوا القلوب ساعـــة فساعة » (17) • والنبي – فى هـــــذا المقام – يعنى المغايرة بين : العلم النافع للدين والدنيا المتمثل فى القرآن والادب الهادف المروح عن النفس المتمثل فى الشعر • وقد أثبت فلاسفة التربية وعلماء النفس فضل المغايرة والمراوحة فى تثبيت العلوم فى الذاكرة وتوسيع دائرة الفكر مما تغنى فيه الاشارة عن الاطالة فى هذا الصدد ، الامر الذى يؤكد أن هذا الحديث – على الرغم من كونه فى درجة الضعيف – يعتبر من أعلام النبوة •

والمنهج الاسلامى الذى أرسى قواعده فى مجال الشعر يدخل فى دائرته كـــل شعر هادف نافع ، فيجيز شعر الحكمة، وشعر الامثال ، كما يعتبر الشعر الهادف

---

(12) أخرجـــه مسلـــم •
(13) أخرجه الترمـــذى •
(14) أخرجه الشيخـــان •
(15) أخرجـــه الشيخـــان •
(16) أخرجـــه الشيخـــان •
(17) رواه أنس ، وابن شهاب مرسلا ، وأخرجه القضاعى وأبو بكر المقرى فى فوائده ، وأبو داود •

فى مجال الحق والخير وسيلة من وسائل تعلم اللغة وصقل اللسان ، وعونا على الافصاح عما فى النفس ، وتدريبا عمليا على صناعة البلاغة • ولهذا نجد كوكبة من الاحاديث ليست بالقليلة اجاز فيها النبي عليه السلام رواية الشعر الهادف ، شعر الحق والخير ، وربما حث عليه فى بعض المواطن ، كقوله عليه السلام « تعلموا من الشعر حكمه وأمثاله » وقوله « تعلموا الشعر فانه يعرب ألسنتكم » (18) • وقوله « ان من البيان شحرا وان من الشعر حكما» • (19)

وفى هذا المنهج الاسلامى الرائع تقبل النبي عليه السلام قصيدة كعب بن زهير « بانت سعاد » حين جاءه معتذرا مادحا له :

ان الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

فاجازه النبي على مدحه وخلع عليه بردته •

وقد تسالنى – فى هذا المقام – كيف أجاز النبي مدح كعب له وهو القائل : احثوا التراب فى وجوه المداحين • والجواب عن ذلك واضح لا يحتاج الى دليل : أولا : أن المدح هنا يتعلق بالنبي والنبوة ، وطاعة النبي فى ذلك من طاعة الله ، ومادحه كأنه مادح الله ، والله يقول : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » (20) ، والنبي نفسه يقول « من أطاعنى فقد أطاع الله » (21) ، ثانيا : أن المدح هنا مهما بالغ فيه الشاعر – ما دام متحاشيا التقديس والتأليه اللذين وقع فيهما اتباع موسى وعيسى – يعتبر قول صدق مهما اكثر الشاعر من الثناء ومن ثم فلا أشكال ، ومقام النبوة لا يقاس على غيره •

أن هذا المنهج الاسلامى الذى استنه سيد الانبياء وسار على هديه شعراء الاسلام الاولون أصبح اليوم موضع اجلال الاصلاء من النقاد المعاصرين ، واليه انتهت آراؤهم فى اختيار المنهج النقدى الصحيح بعد طول المعاناة التى مر بها تاريخ النقد • فالنقاد المعاصرون – اليوم – يمقتون الصنعة فى الاسلوب شعرا ونثرا ، وهم أشد مقتا للتصنع والمعاظلة والاسراف فى استخدام الحلى اللفظية فى أساليب الشعر • وذلك عين ما ارتضاه النبي وأشار اليه فى أحاديثه • فكان عليه السلام يكره المغالاة فى كل شىء ، لا يستثنى من ذلك السلوك فى مقام السلوك الشرعى «هلك المتنطعون» (22)

(18) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس •

(19) رواه ابن عباس ، وأخرجه الامام احمد وأبو داود • وورد الحديث فى ثلاث صيغ •

(20) النساء : آية 80 •

(21) أخرجه الشيخان • وانظر الجامع الصغير ج 2 ص 474 (طبعة الحلبى) •

(22) رواه ابن مسعود واخرجه احمد ومسلم وابو داود •

وقال فى مجال السلوك الاجتماعى : « اياكم والغلو فانما هلك من كان قبلكم بالغلو » (23) · أما فى مجال المعاناة الادبية - ولا سيما الشعر - فكان يقول : « لعن الله الذين يشققون الخطب تشقيق الشعر » (24) · وكان ينهى عن السجع بسبب عنه : « اياك والسجع يا ابن رواحة » (25) ولنفس السبب حكمنا على شعر ابن العميد والصاحب ابن عباد فى القرن الرابع الهجرى وغيرهما من شعراء الكتاب بانه فى الطبقة الثانية من الشعر وذلك لانهم حاولوا نقل ما التزموه من سجع فى رسائلهم الى ما نظموه من شعر فى دواوينهم فصار شعرهم متكلفا على الرغم مما فيه من احساس رقيق وتجربة شعرية عميقة ·

وعلى هدى من هذا المنهج الذى وضع النبي أساسه ارتضى الكثير من شعر أصحابه كحسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة ولبيد بن ربيعة · وكان خير ما أعجبه من ذلك : الشعر الهادف ، والشعر الرمزى ، وشعر الحكمة ، وشعر الدعوة · وكان يعجبه من شعر الدعوة ما جاء على لسان (حسان) يؤيد ذلك ما قدمناه لك من أحاديث الشيخين · وقد بلغ حب النبى عليه السلام له القدر الذى روته عائشة أم المؤمنين فى قوله : « حسان حجاز بين المؤمنين والمنافقين، لا يحبه منافق ولا يبغضه مؤمن » (26) · اما شعر الحكمة فكان يعجبه من قول لبيد يؤيد ذلك ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

الا كل شىء ما خلا الله باطل * »

وكثيرا ما كان يدور على طرف لسان النبى كلام موزون يعتبر فى القمة من البلاغة وجودة السبك · كقوله : « اشتدى أزمة تنفرج » (27) وهى حكمة موزونة من بحر المتدارك · وقوله من الرجز :

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

وقوله من الخفيف :

ليس من مات فاستراح بميت

انما الميت ميت الاحياء (28)

---

(23) أخرجه ابن منيع ·
(24) حديث ضعيف : رواه معاوية وأخرجه أحمد ·
(25) أخرجه أبو يعلى الموصلى ·
(26) أخرجه ابن عساكر ·
(27) أخرجه أبو يعلى ·
(28) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس · وانظر الجامع الصغير للسيوطى ج 2 ص 467 ·

وقوله عليه السلام من الرجز :

ان تغفر اللهـم تغفـر جمـا
وأي عبــد لــك لا ألمـــا

والنبي ـ هنا ـ لا يعنى الوزن ولا يقصده لان مقامه فوق مقام الشعـر ٠ ولعله فى ذلك يمىء ايماء واضحا انه لو أراد الشعر لبلغ فيه فوق مـدارك الشعراء ٠ ولكن الله نزه أسلوب نبيه ـ كما نزهه القرآن من قبل ـ عـن أساليب الشعراء ٠ كيف لا ! وهو سيد الناطقين بالضاد وفى الطبقة العليا من الاسلوب العربى البليغ المحكم ٠ وهـو القائل : « أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولسانى لسان بنى سعد بن بكر » ٠ (29)

وعلى غرار هذا النمط من المنهـج الاسلامى سار عمر فى توجيه الشعـر وجهته الصحيحة ، وكان يعجبه شعـر زهير ، وكان يعزو اعجابه به الى أنه كان لا يعاظل فى شعره٠ وفى هذا الخط سار النقاد المعنيون بالمنهج الاسلامى ، الامر الذى نرجىء تفصيله الى مقـال آخـر ٠

وأخيرا نستطيع أن نقول : ان المنهج الاسلامى وسع مجال الشعر العـربى بخلاف ما كان يظنه بعض النقاد من أن الاسلام حجر على الكثير من أغراض الشعر ، وأضعف الكثير من أهدافـه ومراميه ٠ كذلك حول المنهج الاسـلامى مسار الشعر العربى من مهاوى الشر ومفاسد الجاهلية الى شعر هادف أصيل بناء يحمل فى طياته أسمى المبـادىء التى نعمت بها البشرية طوال أربعـة عشر قرنا ، محققا للنفس المؤمنة ـ ذات الجوانب المتكاملة ـ كل ما تصبوا اليه من قيم الحق والخير والجمال ٠

---

(29) رواه يحيى بن يزيد السعدى ـ مرسلا ٠ وقال السيوطى : حديث صحيح ٠

العلاقات بين بنى حماد والمسيحيين

د. عبد الحليم عويس
الاستاذ بجامعة الامام محمد
ابن سعود الاسلامية - كلية العلوم
الاجتماعية - الرياض

دولة بنى حماد :

دولة بنى حماد من الدول الاسلامية الجزائرية ، التى استقلت بعد نزوح الفاطميين الى مصر سنة 361 هـ . وكان ذلك حين ورث بنو زيرى الفاطميين ، فاستقل عنهم - بعد أن أثبت جدارته - (حماد بن بلكين) الذى كان قد أصبح « عما » لحكام بنى زيرى أبناء أخيه المنصور بن بلكين، وقد تم هذا الاستقلال سنة 405 هـ (1014 م) .

وبوفاة حماد سنة 419هـ خلفه أبناؤه من بعده ، وكانت عاصمتهم الاولى (قلعة بنى حماد) ثم انتقلوا أيام ازدهارهم على يد (الناصر بن علناس) (ت 481 هـ) الى موضع بجاية ، فبنوا فيها عاصمتهم ، ونجحوا فى جعلها عاصمة حضارية كبرى .

وقد استمر بنو حماد فى حكم الجزائر ، حتى سقطوا على يد (عبد المؤمن بن على الموحدى) سنة 547 هـ ، واعلن استسلامه وخضوعه آخر أمراء بنى حماد (يحيى بن العزيز الحمادى) سنة 547 هـ فدخلت الجزائر فى عصر جديد هو عصر الجزائر الموحدية !!

ملاحظات عامة حول العلاقات الحمادية المسيحية :

تعاونت عدة عوامل على تحديد نوعية علاقة الحماديين بالمسيحيين ، وكان موقع الدولة الحمادية وسط الدول الموجودة فى المغرب ، وكحاجز بين المرابطين والنورمان ، أبرز العوامل فى تحديد نوعية السياسة الحمادية المسيحية وبما ان العلاقات المغربية الداخلية القائمة بين دول المغرب كانت

علاقات تفكك وصراع فى أغلب أحايينها لذا لم يحاول الحماديون فتح باب جديد من أبواب ـ الصراع عـلى أنفسهم ، حتى ولو كان هذا الباب جهادا مقدسا ضد المسيحيين ، وقد استغل الغزو المسيحى هذه النقطة ، فحاول جهده تعميق علاقات الود بينه وبين الحماديين وعدم تهييجهم (1) .

ومن الملاحظ ان العلاقات بين الحماديين والمسيحيين لم تبرز واضحة قوية الا فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وحتى نهاية الدولة ، أما قبل ذلك فقد كانت سياسة الدولة الخارجية تخضع بنسبة كبيرة لسياسة الزيريين والفاطميين ، كما ان هذه السياسة لم تسر على وتيرة واحدة ، فحينما وجد المسيحيون أن علاقة السلم التى تربطهم بالحماديين فى غير صالحهم ورأوا فى الحماديين منافسا فى مجال الاستيلاء على المدن الزيرية التى كانوا يطمعون فى الاستيلاء الكامل عليها بعد استيلائهم على مالطة وصقلية ، فى هذا الـوقت هاجمـوا الحماديين بشراسة وعنف (2) .

كان النورمانيون قد نزلوا ـ على امتداد القرنين الثالث والرابع للهجرة من شمال فرنسا الى جنوبها ، وشرعوا يتعقبون المسلمين ويناجزونهم فى ايطاليا ، حتى ملكوا جميع البلاد الاسلامية فى جنوب أوروبا ـ وساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية اثر الزحف الهلالى سنة 442 هـ (3) .

ولم تقف أطماع هؤلاء النورمان عند محاولتهم ازالة الحكم الاسلامى من أوروبا ، بل جنحوا الى التغلب على المسلمين فى مواطنهم الآمنة فى افريقيا (4) . فأصبح واجب الدفاع عما بقى من سيادة المسلمين على غرب البحر الابيض المتوسط على عاتق بنى زيرى أصحاب افريقيا وبنى حماد أصحاب القلعة (5) ، لكن قدر على الزيريين فى المهدية أن يتولوا وحدهم ـ فى هذا الجانب ـ عبء الجهاد ضد هؤلاء الغزاة حتى سقطوا أمام زحفهم

---

(1) انظر تاريخ الجزائر للهلالى 210/2 .
(2) انظر تاريخ الجزائر العام للجيلالى 281/1 .
(3) انظر تاريخ غزوات العرب شكيب ارسلان 201 ونحن نذكر ان الزحف الهلالى كان سنة 452 وقد ذكرنا تاريخه الصحيح وهو 442 .
(4) المكان السابق نفسه .
(5) اثر ظهور الاسلام فى البحر الابيض المتوسط ، دكتور حسين مؤنس ص 117 .

المستمر بعد كفاح قرابة ثلاثة أرباع قـــرن ، كـما وقف المرابطون ـ مـن جانبهم ـ يكافحونهم فى ميدان آخر ٠ أما الحماديون فلم يلح الخطر عليهـــم باتخاذ موقف مماثل ، وتمكنوا من اقامة علاقات طيبة مثالية مع المسيحيين مـــدة طـويلة !!

النـاصر الحمـادى قمـــة العلاقـات الحمادية المسيحية :

لقد أقام الناصر بن علناس علاقات ودية مع البابا « جريجورى السابع » ، وكان مما توصل اليه جريجورى والناصر اقامة أسقفية فى بونة ، ترك للنصارى الموجودين فى بـــونة حـرية انتخاب أسقفهم (6) . وقد انتخبوا أسقفا يدعى «سرفاند» صادق الناصر على تعيينه (7) .

ويحدثنا جنرال (دوبلين) أن هـذا الاتفاق الـودى بـين الناصر والمـركز البابوى (الكرسى الرسولى) هيأ نوعا من الامان للقضايا المسيحية (8) ، بل ان المستشرق (فرديناند جوتيه) يرى أن هذا الاتفاق منح الرعايا المسيحيين (آمنا كاملا) (9) ٠

ومبالغة فى تعميق الـــود استغـل الناصر فرصة سفـــر (سرفـاند) الى (البابا جريجورى) فحملـه هـــدايا جميلة ، كما حمله رسالة ودية الى البابا ـ لم يحفظ لنا التاريخ نصها ـ كـما اشترى الناصر جميع الاسرى المسيحيين الذى عثر عليهم بمملكته وأرسلهم هدية الى البابا ، ووعده بأن يعتق كل أسير مسيحى يعثر عليه من بعيد (10) ٠

وثيقـة خطيرة :

وعندما عاد سرفاند الى بونة أرسل معه كبار الكنيسة رسائل شكر وثنـاء الى الناصر ، وأرسل البابا أيضا رسالة خاصة تعد أكبر رسالة واعظمها أرسلت من بابوات ، ومنه الى ملـوك المغرب ، وذلك سنـة 469 هـ 1076 م وهـــى رسالة تـدل عـلى مـا كان يكنه البابا للناصر من تقدير واحترام (11) ٠ وقد روى لنا (ماس لاترى) نـــص هذه الرسالة ، ونحن نترجمها عنـــه كاملة بنصهـا ٠٠٠

(6) انظـر : La Kalaâ des Beni Hammad : De Beylei, p. 10.

(7) تاريخ الجزائر للهيلالى 211/2 ٠

(8) De Beylei : La Kalaâ, p. 20
Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord, p. 737

(9) انظـر : La Kalaâ : De Beylei, p. 10.

(10) تاريخ الجزائر للهيلالى 211/2 ٠

(11) اثر ظهور الاسلام 118 ٠

تقول الرسالة :

« من جريجوار .. خادم خدام الله ... الى الناصر ملك موريتانيا ومقاطعة سطيف فى افريقية ... تحيات وبركات رسولية ... » كتبتم الينا نبالتكم تطلبون الينا تعيين قس ، وفقا للشرائع المسيحية وهو هذا القس الخادم (سرفاند) الذى بادرنا بتعيينه ، لان طلبكم كان منصفا ، وفى نفس الوقت أرسلتم الينا بعض الرسائل ، وأطلقتم سراح المسيحيين الذين كانوا أسرى لديكم ، مراعاة للطوباوى البار بيير ، المبشرين وحبا لنا ، ووعدتم باطلاق سراح كل من يوجد لديكم ثانية .

ولا شك أن الله خالق كل شىء ، والذى لولاه لما استطعنا شيئا على الاطلاق ، لا شك أنه قد ألهمكم هذا الحلم ، وهيأ قلبكم لهذا العمل النبيل . والله ـ القادر ـ الذى يريد لكل الرجال النجاة ، ولا يريد الهلاك لاحد ـ لا يتقبل منا شيئا أكثر من تقبله لحبنا لمن يماثلوننا ـ بعد حبنا الواجب له ـ ومن مراعاتنا لذلك المبدأ القائل « افعل للآخرين ما تحب أن يفعلوه لك » ونحن بصفة خاصة ملزمون بأن تمارس الشعوب الاخرى فضيلة المحبة هذه . ونحن وأنتم ـ بصورتين مختلفتين ـ نعبد نفس الاله الواحد، وكل يوم نمجده ونجل فيه خالق القرون وسيد العالم . وقد أعجب نبلاء روما ـ الذين عرفوا منا نبأ الصنيع الذى ألهمكم الله اياه ـ بسمو قلبكم ، وأشاعوا الثناء عليكم ، وثمة اثنان من بينهم من أكثر اتباعنا ألفة ـ وهما البريك وسسنيوس اللذان نشأ معنا منذ يقاعتهما فى قصر روما ـ يرغبان فى توثيق أواصر الصداقة والمصالح الخاصة معكم ، وسيكونان سعيدين اذا استطاعا أن يكونا من ذوى الحظوة لديكم ، وفى وطنكم انهما يرسلان اليكم بعض رجالهما الذين سيشرحون لكم مدى تقدير سيديهما لسعة أفقكم ، ولسموكم ، ومدى سرورهما بتقديم أية خدمة لكم هنا ، ونحن نوصى جلالتكم بهم ، ونطلب منكم لهم نفس الحب ونفس الوفاء الذى سنكنه دائما لكم ، ولكل من ينتمى اليكم ويعلم الله أن عزة الله القادر هى التى تلهمنا الصداقة التى قد نذرناها لكم ، ويعلم مدى رغبتنا فى سلامكم ومجدكم ، فى هذه الحياة ، وفى الحياة الاخرى ونحن ندعوه من أعماق القلب أن يتلقاكم ـ بعد حياة مديدة ـ فى أصفيائه فى نعيم الاب المقدس ابراهيم (12) .

(12) انظر : Relation et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les natinos chrétiennes au Moyen-Age : De Mas Latrie, pp. 42, 43, 44.

تعليق على الوثيقة :

وكما ترى ، فان الرسالة تحمل مشاعر ودية من البابا . ومن البريك وكنسيوس من خدام قصر البابا الذين نشأوا به ، وتحمل رغبتيهما فى تقديم خدماتهما لما يتعلق بالناصر فى أن يخدماه ببلده ، وأنهما أرسلا له بعض رجالهما لتأكيد ودادهما ، كما تنص الرسالة على أن البابا مستعد لمعاملة كل من تعلق بالناصر معاملة ودية . صادقة (13) .

وقد استمرت محاولات الحماديين للابقاء على علاقة الود التى تربطهم بالمسيحيين ، وان كان الاخيرون لم يبذلوا مثل هذه المحاولة ، ففى سنة 508 هـ 1114 م سمح العزيز بن المنصور بانشاء كنيسة القلعة دشنت باسم كنيسة مريم العدراء ، وكان كاهنها المسمى « عزون » يطلق عليه العامة لقب (خليفة) تأثرا بالطابع العربى واللغة العربية ، وكان يسكن فى بيت مجاور للكنيسة ويؤكد « جوتيه » أننا لا نستطيع أن نمارى فى وجوده (14) .

وفى العام 1114 م ، وقع حادث تدل نتائجه على رغبة الحماديين الملحة فى ارضاء المسيحيين ، فقد وقع بعض رهبان (مون كاسان فى أيدى القراصنة !! (المنتمين للحماديين) أثناء عودتهم من (سردينيا) الى صقلية ، وبعد فترة وجيزة رمت عاصفة على سواحل صقلية بالرهبان الذى كان قد أرسلهم المطران الاكبر لافتداء اخوانهم . وقد بادر الكونت روجية حاكم صقلية — بإرسال ميعوثيه الخاصين الى العزيز ملك القلعة ، فرحب العزيز بمساعى روجيه وقبل وساطته (15) .

وقد استقبل الحماديون من المسيحيين أعدادا غفيرة خلطوهم بانفسهم ، واستعانوا بهم فى بعض أعمالهم ، لا سيما العمرانية (16) .

---

(13) ومن الملاحظ أنه بعد ذلك بسنوات قليلة كان البابا يحرض على غزو المهدية ، وقد أحدث الصليبيون فيها ببركة البابا مقتله ذريعة ، وحرقوا وخربوا معالم المهدية المشهورة وسبوا النساء والذرارى واضطر تميم الى ان يدفع لهم مائة الف دينار ويقبل تجارتهم بلا مكسب 11 (راجع دائرة المعارف 59/6 ، وتاريخ غزوات العرب 201 شكيب أرسلان) .

(14) انظر : Le passé de l'Afrique du Nord, p. 372. And Encyclopedia of Islam vol. II, part 2, p. 680.

(15) انظر : La Kalaâ des Beni Hammad, p. 13°

(16) انظر : La Kalaâ des Beni Hammad, p. 20

سياسة الجانب المسيحى :

لقد غلب على سياسة الحماديين تجاه المسيحيين روح التسامح والود . ولم يتركوا فرصة الا استغلوها لتعميق هذه ـ العلاقة ، لكن المسيحيين كانوا ينظرون الى الامور نظرة مصلحية محددة ، فلما ان استرجبت ظروفهم المصلحية الانقضاض على الحماديين حتى بادروا الى ذلك ، دون نظر الى اية خدمات حمادية سابقة او اية عهود او مواثيق ·

وقد حاولوا اغراق الاسطول الحمادى امام المهدية سنة 528 هـ ـ كما ذكرنا ـ كما شهدت سنة 527 هـ ـ 1142 م هجومهم على جيجل ، وتتابع هجومهم على المدن الحمادية الساحلية ، وبدأوا بعد استيلائهم على المهدية سنة 542 هـ 1148 م محاولة الاستيلاء على الجزائر الحمادية ، وهاجموا مدينة بونة لهذا الغرض ، ولم يمنعهم عن التوغل فى الارض الحمادية الا ظهور الموحدين الذين وضعوا حدا لاطماعهم وتوسعهم ·

ومع ذلك بان بقية من هذه الروح التى تمسك بها الحماديون فى علاقاتهم مع المسيحيين ظلت باقية الى آخر أيامهم ، فعندما سقطت بجاية واستسلم يحيى آخر ملوك الحماديين ، لحق أخوه الحارث صاحب بونة بصاحب صقلية (روجيه الثانى) ، واستصرخه فانجده باسطول غلب به على بونة ، وظل بها غير ملتفت الى سلطة الموحدين ، وبمساعدة النورمان ، الى سنة 552 هـ 1156 م ، حين استولى الموحدون على بونة وقتلوا الحارث صبرا ، فاعتبر هذا سقوطا لآخر معقل حمادى (17) وانتهت صفحة بنى حماد ومن التاريخ ·

---

(17) العبر 264/6 ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية 247/4 مادة بونة وتاريخ الجزائر العام الجيلالى 594/1 ·

بيان من رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

بسم الله الرحمن الرحيـــم

والصلاة والسلام عـلى محـمد النبىء الكريـــم ،

اليكم ـ شبان الجزائـر وفتيانهـا

الله اللهفى بلادكم وامتكم أيها الشبان!

كل من سمع ، أو قرأ ، أو شاهد على الشاشة الصغيرة ـ بالاذاعة المرئية ـ آثار (أعمال) طائـفـة من شبيبتنـــا (المدللة) أخذه العجب ، والفزع ثـــم الاشمئزاز والتقزز مما وصلت اليـــه أخلاق بعض من يعدهم الوطن لاستلام زمامه ، وتحمل مسؤولياته الجسام ، فى مستقبل ايامه ، وتولى قيادته ، والسير به الى الامام : نحو الازدهار والقــوة والرشد فى صنع مصيره ٠

أهكذا ـ أيها الشـبان ـ تفعلـــون بوطنكم ، وترتكبون فى حقه من جرائم وحماقات ما لا يفعله العدو بعدوه : مما يحرمه الدين وتدينـــه القوانـين وتشمئز منه الحضارة ، فساد ، وتخريب، واتلاف لمنشآته وتمزيق وتحريق لوثائق تخص المواطنين ، ويعود عليهم فقدهـا بالضرر المبيــن ، وتحطيـم لوسائـــل المواصلات لا ينتفع بها ـ مضطرين اليها ـ الا الضعفاء من أبناء الشعب الكادح فى تنقلاتهم وحركاتهم ، ثم حفر لخنادق عميقة توسع الانفصال ، وتتلف كـــل اتصال مأمول بينكم ، وتديم العـــداوة والبغضاء ، والتقاطع بين الاخـــوان الاشقاء المفروض عليهم ـ دينا واخلاقا ومصلحة وطنية وسياسة ـ ان يتعايشوا ٠

من يقبل هذا أو يرضى به ؟ ان اللـــه ينهى عنه ويحرمه ، ثم ان الحكمـــة والتعقل والمصلحة توجب الاتصـــال ـ لا كمال الانقطاع ـ بينكم ، والتعـــاون على البر والتقوى ، والاحسان وصالحات الاعمال ، وان لا تقربوا الاثم والعدوان والعدول عن هذا المنهج انما هو مـــن

وساوس الشيطان من الجـن او مـن الانسان ، من كل زنيم لا يريد لكم ولا لامتكم ولا لوطنكم مثقال ذرة من الخير، وانما يبيت للجميع الشر والفساد ٠

أهكذا تفعلون بالوطن والمواطنين وبالدولة التى بناها آباؤكم واخوانكم بالتضحيات الغالية من الملايين ، وبدماء زكية ، ونفوس طاهرة من الشهداء المجاهدين ؟

لو ارتكب ما فعلتم ـ من تخريب ـ أميون ، لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون حادثة واحدة من حوادث التاريخ ، ولا مبدأ ولا كلمة من الدين ، ولا قاعدة من قواعد الفلسفة والحكمة ، ولا قياسا فى المنطق ولا شيئا من علم الاجتماع ، ولا احصائية من فن الحساب لجاز أن يلتمس لهم عذر ولرجونا أن ياتى العلاج منكم ، وأنتم أطباء أمتكم بحكم ثقافتكم وحكمتكم وفهمكم ، ولتوقعنا ان يتعلموا منكم ، ويفهموا ، لان جهلهم بسيط يعترفون به ، ويطلبون أن يتعلموا ما لم يتعلموا ، ويفهموا ليرتقوا ويزول جهلهم ٠

أما أنتم فلستم بالاميين ، انكم (علماء) مدركون ، وجامعيون فهمون ، منكم أطباء الاجساد والارواح فى المستقبل القريب يعالجون الادواء ويصفون الدواء ، ومنكم المهندس فى مختلف شعب الهندسة يخططون وينفذون ما به نكون دولة قوية متطورة تخرج بنا من صفوف الامم المتخلفة الى أمم الصدارة ، ونحن بذلك جديرون ، ومنكم علماء الاجتماع الذين درسوا أحوال الامم السالفة ، واخلاقها وأسباب يقظتها وقوتها ثم أسباب فتورها وضعفها وانحطاطها ، ثم انهيارها وموتها ، فأنتم حريصون على سلامة أمتكم ، وقوة دولتكم وحمايتها من الضعف والانهيار ، والمحافظة على استمرارها فى طريق التطور المفيد والاخذ بأسباب القوة والكرامة والعزة ٠

ومنكم علماء المادة وعلماء الروح يربطون هذه بهذه ، ويبنون لنا من وسائل المادة ما به نحمى انفسنا ونسلح به جيشنا ، ومن وسائل الروح ما به نحقق سلامة مجتمعنا من السوس والانهيار ٠

ومنكم قادة الحرب ، وزعماء السياسة، والموظفون الساموِن المعدون لتحمل أعظم المسؤوليات فى القيادة والسياسة والادارة مما يجعل أمتنا أحسن مثال فى الضبط والنظام والعدالة المطلقة، والسير الحكيم ٠

من كانوا هكذا ، أو من ينتظر منهم هذا ، ثم يندفعون اندفاعا أعمى الى التخريب والفساد المادى والمعنوى فلا عذر لهم ، ولا يعتبرون فى ذوى الالباب والبصائر ، كما يستفاد من وصف الله سبحانه لمن فعل فعلهم « **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار** » بل يعتبرون من الذين بيتوا الجريمة ثم ارتكبوها عن (عمد وسبق أصرار) وذلك ما كان يدبره العدو لامتنا، ويعمل لتحقيقه فينا فهم عملاؤه ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، أحبوه أم كرهوه ٠

الا تخجلون ـ ايتها الفئة المثقفة المستنيرة ـ انكم كنتم تحيون ذكرى حوادث 19 مايو 1956 م ؟ انه اليوم الاغر ، يوم طلاب الجزائر وفتيانها ، وآمال مستقبلها ـ آنذاك ـ كانوا مقبلين على طلب العلم ، فى الداخل والخارج ، وشعبهم يحترق ، كانوا يشاركون فى الكفاح مشاركة رأوها متواضعة قد لا يعلمها كثير من الناس ، فقرروا تلبية نداء الجهاد الصادر من جبهة التحرير 1954 م ومغادرة مقاعدهم فى الجامعات والثانويات ـ وهم على أبواب نهاية سنتهم الدراسية ـ والالتحاق باخوانهم الجنود فى الكفاح علنا ، فى الجبال والوهاد ، بجانب من لبوا النداء من العمال والفلاحين والتجار والمحترفين، كل الفئات من المجاهدين ، فكان لفعل هؤلاء الطلاب دوى هائل فى العالم أجمع ، كاثر زلزال مريع فى ادارة العدو ومشاريعه الخبيثة التى كان يود أن يصل بها ـ ببث سمومه فى المثقفين ـ الى الفصل بينهم وبين شعبهم ·

حدثنى بعض هؤلاء الطلاب أن مدير ثانويتهم حاول أن يثنيهم عن عزمهم على مغادرة مقاعد الدراسة ، فلما رأى تصميمهم أدركه اليأس وقال أمامهم : « آديو لفرانس ! » ·

ولم يكن فى يد طلاب 1956 م سوى أرواحهم وخبراتهم التقنية وما فى عروقهم من دماء زكية ، وما فى قلوبهم من ايمان ووطنية ، فجادوا بكل ذلك لانقاذ أمتهم ، واعزاز دينهم وتحرير وطنهم ، وبناء دولتهم قوية عزيزة منيعة، فاستشهد معظمهم ، وتم ما أرادوه ـ بفضل الله أولا وأخيرا ـ ثم بفضل جهاد واستشهاد مئات الالوف ، وبلغوكم الامانة وحملوكم اياها ، فوجدتم أمة حرة ، وشعبا متحدا ، ووطنا مستقلا ، ودولة فتية غنية أكرمتكم ، ويسرت لكم كل أسباب العلم ، ولم تبخل ببناء الجامعات الفخمة العصرية ولا بملحقاتها، ولم تشح عليكم بالمآكل اللذيذة والفرش المرفوعة والبرامج الدراسية القوية وجاءتكم بأمهر العلماء العالميين ، ووفرت المنح السخية فى الداخل وفى الخارج للبعثات العديدة ، ووضعت فيكم كل آمال شعبها ، لتجعلوا من الجزائر رائدة من رواد أمم العالم وقائدة من قادة الرشد فيه ذائدة عن الحرية والكرامة والسلام بين جميع أبناء الانام

هؤلاء هم طلاب 1956 م وها أنتم طلاب 1981 م افلا يحق لكل من قارن بين الطائفتين أن يهتف : نعم السلف ، نعم السلف ، وهدى الله الى الحق هؤلاء الخلف ·

ماذا تريدون ـ يا طلاب اليوم ـ أو على الاصح ماذا يراد بكم أو منكم ، وانتم عنه غافلون ؟ أتريدون أيها الشبان ـ أو يراد بكم ـ أن تحطموا ما بناه آباؤكم واخوانكم بالدموع والدماء والآلام والتضحيات الجسام وكان أمل الاجيال منذ 1830 م حتى

الآن ، وهو بناء دولة تجمع شملنا وتصلح ذات بيننا وتحقق وحدتنا ، وترفع رايتنا ، وتضمن سلامتنا وأمننا ؟ انكم لا تمثلون جمهور طلابنا فهم سالمون ، ولكنكم تمثلون طوائف لنا أن نسائلهم :

أحقا ان منكم ـ أو فيكم ـ من يحب الحرية ثم يفهم منها انها اطلاق العنان لنزوات الجسد الخسيسة ، تذبح فيها الفضيلة وتنصر الرذيلة وتهان الاخلاق الفاضلة ، وتمجد الاخلاق السافلة ، ويترك الفرض وينتهك العرض ، ويحتقر الدين ، ويؤذى المتدين ، وتحول جامعاتنا ومعاهد العلم عندنا الى قاعات رقص ، وحانات قصف ، ونوادى الحاد وانحراف واستهتار يبث فى ابنائنا وبناتنا فيدمر منهم الارواح والاجساد ، ثم يراد من الآباء والامهات ، والاخوان والاخوات ، والجيران والجارات ، والعفائف المحصنات يراد منهم الرضى بذلك وقبوله والانغماس فيه ، أو على الاقل السكوت عنه ، فان لم يفعلوا ـ ولن يفعلوا ـ فهم الرجعيون المتحجرون وهم المتوحشون الواقفون فى طريق التقدم والرقى يجب القضاء عليهم بالقوة أو بالقانون أو بالسياسة ، ان كان هذا ظنكم وتصوركم للحرية وعملكم للتمتع بها فبئس ما تظنون وما تدعون وما تتوقعون وساء ما تعملون ·

أحقا ان منكم من تنكر للوحدة الجزائرية واصالتها ، فانحرف عن مقوماتها التى لا جدال فيها ولا مساومة عليها وهي (الاسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا) وعاد الى العصبية الجاهلية ـ التى أماتها الاسلام، وقضى عليها منذ عصر موسى وطارق ـ وحماقتها ، وراح يركض ـ فى ميادينها ـ ويتنسم روائحها المنتنة فيلذها ، ويحقق أحلام الاستعمار فينا ويروج لها ، ويريد منا أن نتقاطع ونتدابر ونرجع كفارا يضرب بعضنا رقاب بعض ، بعد ألفة وانسجام واتحاد والتحام ، واعتصام بحبل الله المتين حبل الاسلام بلا فرقة ولا انفصام ؟

أحقا أيتها الطائفتان ان الوقاحة بلغت ببعض من اندس فى صفوفكم ـ وحاشاكم أن نقول انه منكم ـ وبلغت به أن يكتب فى جامعاتكم ، ويعلن باسمكم : (لا) للعروبة والاسلام ؟

ان العروبة قومية الجزائر ، بنص الميثاق والدستور ، والاسلام دينها بارادة جميع أهلها ، ومن قال (لا) للاسلام فقد ارتد عنه وحل فيه الجهاد وان الجزائر ـ بسهولها وجبالها ـ بلاد المجاهدين ، فليحذر الذين يخالفون أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ·

أحقا ان منكم ـ أو فيكم ـ من يعتز بالاسلام ويفديه ويحب أن يكون دين الانام ، ثم يكون أول المخالفين لمبادئه وآدابه فيقتصر على المظاهر والتظاهر، ويكفر الناس بالصغائر فضلاعن الكبائر، ويعمل للفتنة فى المساجد : فى المحراب ومن

فوق المنابر ، ويكون فى دعوته عنيفا الى أقصى درجات العنف ، أو قاسيا الى أبعد غايات القسوة ، أو ساذجا الى درجة الغفلة ويعرض عن أخلاق النبوءة وآدابها فى السيرة والسلوك ومباشرة الدعوة فقد قال الله سبحانه فى صفة نبيه : « **لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** » وقال : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » وقال : « **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم ...** » وقال فى أسلوب الدعوة : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن** » وقال : « **ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين ، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هي احسن . فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم** » وقال عليه الصلاة والسلام : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » وقال « من قال هلك الناس فهو أهلكهم أو أهلكهم » واذا كان محمد عليه الصلاة والسلام - وهو نبيء الرحمة - يؤمر بهذا الاسلوب فى الدعوة الى الله فاحرى وأولى غيره من البشر لان الدعوة ان لم تكن بالحسنى أدت الى الفتنة ، والفتنة اكبر وأشد من القتل قد أمر الله باتقائها فى قوله سبحانه : « **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** » . وأحمق الحمقى من نهى عن منكر بارتكاب منكر مثله أو أشد منه ، اراد الهداية فكان السبب فى الضلالة وابتغى السلم فكانت الحرب .

فحذار ، حذار أيها الدعاة الى الله أن تحدثوا الفتنة أو توقظوها أو تفرقوا بين المؤمنين أو تصدوهم عن جماعة المسلمين ، ومن كان يحب الله ورسوله حقا فسبيله وعلامته قول الله : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** » . ولا يكفى فى المحبة مظهر من المظاهر المادية وانما يتحقق بالقيام بالاركان والواجبات واجتناب الموبقات وجهاد النفس الامارة بالسوء .

ان صح هذا أو ذلك فى سلوك الطوائف الثلاث أو فى بعضها فقد ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا .

ايها الشبان :

ان الجامع والجامعة فى الامم وظيفتهما جمع الاشتات والاتحاد والوئام وبث العلم النافع بجميع فنونه، والقضاء على الجهل - أو الحمق - بجميع الانواع ، فاذا رأينا ان الجامع أصبح أداة تفريق ، وان الجامعة صارت آلة تخريب علمنا اننا أمام انحراف شديد ، ودق عندنا ناقوس الخطر ووجب علينا أن نفزع الى الدواء والقضاء على الداء ، وليتق الصائدون فى الماء العكر غضبة الحليم اذا نفد صبره وبدأ زئيره .

ان الاسلام ديننا جميعا ـ أو هـو دين شعبنا ودين دولتنا وهو أقدم الاديان وأوسطها : دين الاخوة والمحبة والكرامة والخلق القويم يجمع بيننا ولا يفرقنا . ويعلمنا كتاب ربنا أن نتيجة التنازع : الفشل والوهن وذهـاب الريـح ، وهي القوة أو الدولة ، وقد جربنا ذلك فى تاريخنا وذقناه ـ فى مدة قرن وثلث قرن ـ فعشنا بلا دولة ولا راية فى ذلـة وهوان وشر ما يبتلى به الانسان ، افلا نتعـظ ؟

ان الجزائر وطننا جميعا ، ورثناه عن آباء صدق كلا لا يتجزأ واحتفظنـا بوحدة ترابه وشعبه ، وعلى هذا مات مئات الآلاف من شهدائنا ، ورغم مكائد الاستعمار ومكره الكبار ومساوماتـه الفاشلة فى الصـحـراء أو فى التـل ومشاريعه مثل (لالوا كادر) التى أراد بها أن يمزقها وغير ذلك من المكر ، فاننا صبرنا وصابرنا وقبلنا التضحيات الجسام ، واطالة ايام الثورة حـتى وصلنا به الى شاطىء السلامة موحدا، فالتنكر لهذا جريمة فى حق الوطـن والامة وخيانة لله ولرسوله وللامـة وللماضى والتاريخ وهو رضوخ لمـا أراده المستعمر بنا وخيانة لا يقبل ان يرتكبها وطنى مسلم كريم ، ان الوطـن لنا جميعا ، ولا يكون حرا سعيدا الا بنا جميعا ، خلقنا فوق أديمه كلنا ، فلنتعايش فيه اخوة متحابين متعاونين متنبهيـن ـ شبانا وشيبا ، رجالا ونساء ، طلابا وعمالا ـ الى حقيقة مصلحتنا ، وكيد أعدائنا ومكرهم العلنى والخفى ، والله معنا وقواته فى نصرنا ما أقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينـا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور .

يا شبان الجزائر وفتيانها استيقظوا، وآمنوا بالله واستقيموا .

احمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

اقامة التماثيل الرخامية أو النحاسية

ومن السيد التيجانى زغودة ـ ايضا ـ وهو السؤال السادس والاخير :
الرجاء منكم افادتنا بالحكم الشرعى فى اقامة التماثيل الرخامية والنحاسية لبعض الملوك والامراء والزعماء فى الاوطان الاسلامية ٠

الجـــواب :

التمثال هو كل ما صور على مثال صورة شىء آخر من انسان أو حيوان أو نبات أو جماد ، قد يصنع من حجارة أو طين أو زجاج أو رخام أو نحاس أو ذهب أو فضة ٠ وقد عرف الانسان صنع التماثيل منذ القديم كما يستفاد من أقوال المفسرين لقوله تعالى فى قوم نوح حكاية لقولهم : « **وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعـــوق ونسرا** ٠٠٠ » وروى البخارى فى صحيحه أن ابن عباس قال : « صارت الاوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب » ثم قال عن هذه الاسماء المذكورة فى الآية انها : « أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون نصابا وسموها باسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ، وتنسخ العلم عبدت » اهـ ٠ ونقل الشوكانى عن محمد بن كعب قوله : « هذه أسمـــاء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة فقال لهم ابليس (يعنى وسوس لهم) لـــو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأسوق الى العبادة ففعلوا ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم ابليس : « ان الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم فابتداء عبادة الاوثان كان من ذلك الوقت ، وسميـت هذه الصور بهذه الاسماء لانهم صوروها على صورة أولئك القوم » اهـ ٠ وقال عزوة بن الزبير وغيره « ان هذه كانت أسماء لاولاد آدم » اهـ ٠

وهكذا نجد ان اتخاذ التماثيل موغل فى القدم ، وأنهن اضللن كثيرا مـــن الناس كما قص القرآن على لســـان ابراهيم عليه السلام ٠

ولم يكن اتخاذ الصور والتماثيل محرما فى شرع من قبلنا ، كما يستفاد من قول الله تعالى عن عمل الجن لسليمان ابن داود عليه السلام : « **يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجوابى وقدور راسيات ...** » . قال الشوكانى : « قيل كانت هذه التماثيل صور الانبياء ، والملائكة والعلماء والصلحاء ، وكانوا يصورنها فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا وقيل هي تماثيل اشياء ليست من الحيوان ، وقد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحا فى شرع سليمان ونسخ ذلك بشرع محمد » اه .

وكان عيسى عليه السلام يصور الطير من الطين وينفخ فيه فيكون طائرا باذن الله آية له من الله ليتحدى بها مكذبيه ، كما جاء فى قوله تعالى على لسانه : « **انى قد جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طائرا باذن الله** » وقال الله سبحانه يمتن عليه : « **واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طائرا باذنى** » وفى الآية نص صريح بأن تصويره لهيئة الطير كان باذن الله .

وقد عرفت التماثيل والانصاب فى جاهلية العرب ، وكانت الكعبة مشحونة بالصور والتماثيل ، ومنها صورة ابراهيم عليه السلام يستقسم بالازلام افتراء على ابراهيم الحنيف فأبطلها الاسلام ، وحطمها النبىء صلى الله عليه وسلم بيده يوم الفتح وهو يقول : « **قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** » وقد مر فى الحديث أن عليا قال لابى الهياج : « أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته » فدل الحديث على وجود التماثيل فى المقابر فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المباهاة بالبناء فوق القبور ، وامتد ذلك الى عهد علي كرم الله وجهه فى الجنة ، وعلى أن ذلك منكر فى الاسلام لا يقبله ولا يقره ، بل يأمر بتغييره باليد ، بل حتى مجرد البناء المترفع المتجاوز قدر شبر لا يقره خشية الفتنة بعبادة الناس له ، ولما كان شأن الخلق عبادة التماثيل مآلا أو ابتداء ـ فان الاسلام جعل التصوير والتمثيل لخلق الله من كبائر الذنوب ، دليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة « أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » ، وفى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود انه صلى الله عليه وسلم قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » . وروى مسلم عن عائشة قالت : « كان لنا ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل اذا دخل استقبله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحى لى هذا فانى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا » وقالت أيضا انه كان

لها ثوب فيه تصاوير ممدودة الى سهوة (بيت صغير منحدر قليلا فى الارض) فكان النبىء صلى الله عليه وسلم يصلى اليه فقال : « أخريه عنى » قالت فاخرته فجعلته وسادتين » وعنها أيضا قالت : « دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا مستترة بقزام (ستر رقيق) فيه صور فتلون وجهه ثم ناول الستر فمتكه ، ثم قال ان من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله عز وجل » قال القرطبى عن بعض العلماء « يمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورعا لان محل النبوءة والرسالة الكمال » اهـ ٠

الصور الجائزة والصور الممنوعة :

سمعنا من بعض شيوخنا ـ هو ابن باديس رحمه الله ـ أن الصور الممنوعة انما هي صور الانسان والحيوان التامة التى لا ينقصها الا النطق أو الصوت ، وما سواها من الناقصة بعض الاعضاء ، أو صور الآلة ، أو الشجر أو الجماد فلا حرمة ، وهذا ما نص عليه فى مختصر خليل ابن اسحاق وشراحه ـ عند الكلام على الوليمة ، ووجوب استجابة المدعو اليها ـ اذ قالوا ان الوجوب يسقط عليه ان حضرها من يتأذى به كالمغتاب والنمام أو وجود منكر ، قال خليل فى الوجوب والاستثناء : « ان لم يحضر من يتأذى به ، ومنكر كفرش حرير ، وصور على كجدار » الخ ٠ وفى كلام الدردير عن الصور قال : « ولم يكن هناك صور أي تماثيل مجسدة كاملة لها ظل كحيون على جدار أي فوق سمته ، لا فى عرضه اذا لا ظل له فلا يحرم كالناقصة عضوا ، والحاصل انه يحرم تصوير حيوان عاقل أو غيره ، اذا كان كامل الاعضاء اذا كان يدوم اجماعا وكذا لم يدم على الراجح كتصويره من نحو قشر بطيخ ، ويحرم النظر اليه ، اذ النظر الى المحرم حرام بخلاف ناقص عضو فيباح النظر اليه وغير ذى ظل كالمنقوش فى حائط أو فى ورق والا فخلاف الاولى كالمنقوش فى الفرش ، وسفينة فجائز » اهـ ٠

واستنتج العلماء من قوله صلى الله عليه وسلم « يضاهون خلق الله » ٠ اباحة تصوير ما لم يكن له شبيه فى خلق الله مثل صورة حصان مجنح ، أو حيوان أعلاه آدمى واسفله سمكة أو شبه ذلك ٠

فتصوير الانسان أو الحيوان الكامل الاعضاء هو ما جاء فيه الحديث الصحيح : ان أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم أحيوا ما خلقتم فاذا كانت الصورة ناقصة غير تامة أو لم يكن لها ما يضاهيها لم تكن من الممنوع ولعل اشتراط التمام مستفاد من أن عائشة جعلت الثوب الذى فيه تصاوير وسادتين فتغيرت الصورة ، قال القرطبى : « ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيأتها ، فان جواز ذلك اذا لم تكن الصور فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة

لم يجز » اه . ثم نقل عن الشافعي بنقل المزني قوله : « ان دعي رجل الى عرس فرأى صورة ذات روح أو صورا ذات أرواح لم يدخل ان كانت منصوبة ، وان كانت توطأ فلا بأس وان كانت صور شجر » اه . ثم قال القرطبي : « ولم يختلفوا أن التصاوير في الستور المعلقة غير محرمة ، وكذلك ما كان عندهم خرطا أو نقشا في البناء ، واستثنى بعضهم ما كان رقما في ثوب لحديث سهل بن حنيف » اه . وقد يكون ناجيا منهما قال : « من صور الحيوان ليعبد أو قصد به المضاهاة لخلق ربه واعتقد ذلك فهو اشد الناس عذابا بالكفر ، ومن لم يقصد ذلك فهو فاسق ، فتصوير الحيوان كبير ولو على ما يمتهن كثوب وبساط ونقد واناء وحائط ، ولا يحرم » .

مذهب الاستاذ محمد عبده :

من علمائنا المتأخرين الذين تكلموا عن عمل الصور والتماثيل الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله ، ففي رحلته الى صقلية كتب فصلا تحت عنوان : « الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها » جاء في طاله قوله : « لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ، ويوجد في دار الآثار عند الامم الكبرى ما لا يوجد عند الامم الصغرى ... يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ... » ثم يقول ان الرسم ضرب من الشعر الذي لا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى ... ويذكر ان السبب الذي دعا سلفنا لحفظ الشعر وضبط دواوينه والمبالغة في تحريره خصوصا شعر الجاهلية هو السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل التي ... حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيآت والاحوال البشرية » ويعد أن بسط الكلام عما تعرب عنه تلك الصور ، وما يفهم منها متأملها يتساءل : « ما حكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيآت البشر في انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجثمانية : هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ فأقول لك : ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال قد محي من الاذهان فاما ان تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، واما أن ترفع سؤالا الى المفتي وهو يجيبك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حديث : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك : « ان الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الاول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والاول مما يبغضه الدين ، والثاني مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به ، فاذا زال هذان العارضان

وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف ، وأوائل السور ، ولم يمنعه احد من العلماء ، مع ان الفائدة في نقش المصاحف موضع النزاع ، وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر » اهـ . ثم قال : « وبالجملة يغلب على ظنى أن الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق انه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ، ولا من جهة العمل » وقد علق الامام محمد رشيد رضا على كلام استاذه وبين ان الذين رسموا الصالحين والانبياء انما ارادوا التبرك بصورهم تعظيما واكراما لهم وهذا التعظيم سمي ـ في كل اللغات ـ عبادة ، وجميع الصور والتماثيل التى كانت عند العرب ، كانت معظمة للدين ، ولذلك سمي في القرآن تعظيمها عبادة ، وكذلك النصارى كانوا يحرمون بأن تعظيم « الايقونات » ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون في ذلك صار بعض المصرين عليه يسمى تعظيما اكراما واصر بعضهم على تسميته عبادة . ثم ختم قوله بـ : « ان النهي عن التصوير في الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها ، وايقاد السرج عليها ، والاحاديث الصحيحة في حظر هذا كله ولعن فاعله مشهورة ، وقد فعله المسلمون مع بقاء علته وهم يتركون التصوير وفوائده مع انتقاء علة النهي عنه » وقد قارن الامام محمد عبده بين تساهل المسلمين في البناء على القبور وزيارتها » وكلام الاستاذ الامام محمد عبده في نفع عمل الصور والتماثيل ودفاعه عن جواز استعمالها لم يتناول المجسم منها من تماثيل الانسان أو الحيوان كما يستفاد من احتياطه في أول كلامه بنصه على « الصور المرسومة على الورق والنسيج » من مثل ما تركه رفائل ، أما التماثيل المجسمة للانسان أو الحيوان ، مما يوجد في الدور أو القصور أو ينصب في الميادين ، ويكلف الاموال الطائلة عامة أو خاصة فانها لا تخرج عن غرض اللهو أو التعظيم ، أو التبرك ، وقد حكم ضدهما بقوله « الاول مما يغضه الدين ، والثانى مما جاء الاسلام لمحوه والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به » وفي كلام الاستاذ محمد رشيد رضا نص على أن تعظيم التماثيل واكرامها عبادة اذ قال في الذين صنعوها قديما « ارادوا التبرك بصورهم وتعظيمها اكراما لهم » وهذا التعظيم يسمى ـ في كل اللغات ـ عبادة وان « النصارى كانوا يصرحون بأن تعظيم الايقونات ونحوها من الصور عبادة ، ثم آل بعضهم الى تسميه (اكراما) فالمسلم لا يكبر في نفسه الا الله ولا يعظم عنده الا بديع السموات والارض ، والاسلام لا يقر السفه بانفاق أموال طائلة دون منفعة راجحة،

واذا كان يمنع من رفع قبر الميت ويأمر بتسويته ان رفع فأحرى وأولى أن يمنع من نصب تمثال له ، أما مجرد وجود صورة له على ورق أو نسيج فقد ينتفى المحذور وتزول الفتنة وتترجح الفائدة وهذا ما أشار اليه بقوله ان المسلمين « يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صورة الانسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية » اه . وهكذا ما لا يمكن الاستغناء عنه ـ اليوم ـ فى المدارس وفى جميع مراحل التعليم فعرض الصور من وسائل الايضاح الضرورية .

التماثيل المجسمة المأذون فيها :

أذن الشارع ـ للمصلحة ـ فى اتخاذ بعض التماثيل المجسمة للانسان أو الحيوان اذا لم يكن لها بقاء ، ولم يخش معها الفتنة ، وذلك مستفاد من اذنه عليه الصلاة والسلام لعائشة والجوارى صواحبها فى اللعب بالعرائس كما نقله القرطبى فى الاحكام وقال : « ذلك للضرورة الى ذلك وحاجة البنات حتى يقدرن على تربية أولادهن ، ثم انه لا بقاء له ، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له فرخص فى ذلك » اه .

ونقل الدسوقى فى حاشيته على شرح الدردير لمختصر خليل ، ان الشيخ عبد الباقى نقل عن الحطاب « انه يستثنى من المحرم تصوير لعبة على هيئة بنت صغيرة لتلعب بها البنات الصغار فانه جائز ، ويجوز بيعهن وشراؤهن لتدريب البنات على تربية الاولاد » اه (فى الكلام على الوليمة » ومثل الضرورة فى تدريب البنات على تربية الاولاد بالعرائس تعليمهم فى الفصول الدراسية على معرفة أجسام الانسان والحيوانات ووظائف الاعضاء، ولا يجول بذهن أحد ـ أساتذة أو طلابا وتلاميذ ـ عبادتها .

التصوير الشمسى والغلو فى تحريمه :

أفرط بعضهم فى تحريم التصوير والتنفير منه ، وجعلوا التصوير الشمسى مشمولا بالتحريم مع ان صوره لا جسم لها ولا ظل ، فاذا بولغ فيها فان حكمها حكم ما لا ظل له كالصور على النسيج ، وقلما يكون فيها الجسم كاملا ومع انها من عمل آلة تعكس صورة الشىء كما تعكسها المرآة أو صفحة الماء ، ثم انه الآن ضرورة لابد منها فى حاجات الانسان والدول وفى اثبات الشخصية فى الحل أو الترحال ، ولا تستغنى عنه دولة فى حفظ أمنها من الداخلين أو الخارجين ونصوص علمائنا تستبعد حرمة هذا النوع من التصوير ، ثم ان تأويل النص اذ صح سنده ومتنه أو شموله ـ تأويلا صحيحا ـ كما فعل الامام محمد عبده، أو القياس على ما ورد الاذن فيه كما فعل علماؤنا فى قياس صور الحلاوة والعجين على عرائس البنات ـ أولى من الاصرار على القول بالتحريم ثم الوقوع فيه ولابد ...

والله اعلم .